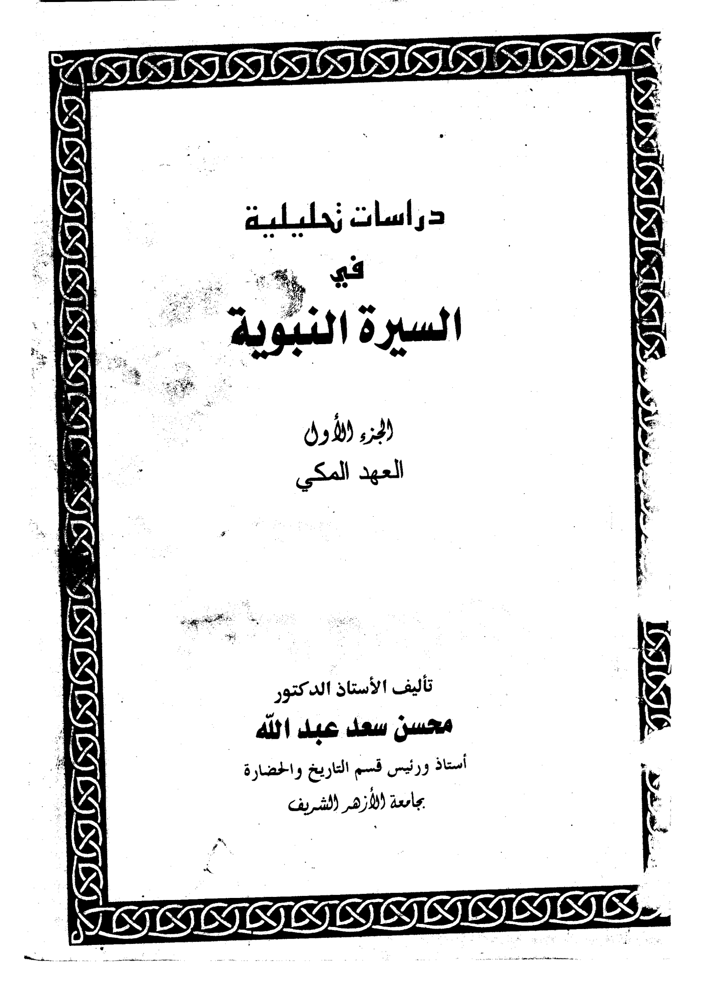


دراسات تحليلية في السيرة النبوية

الجزء الأول

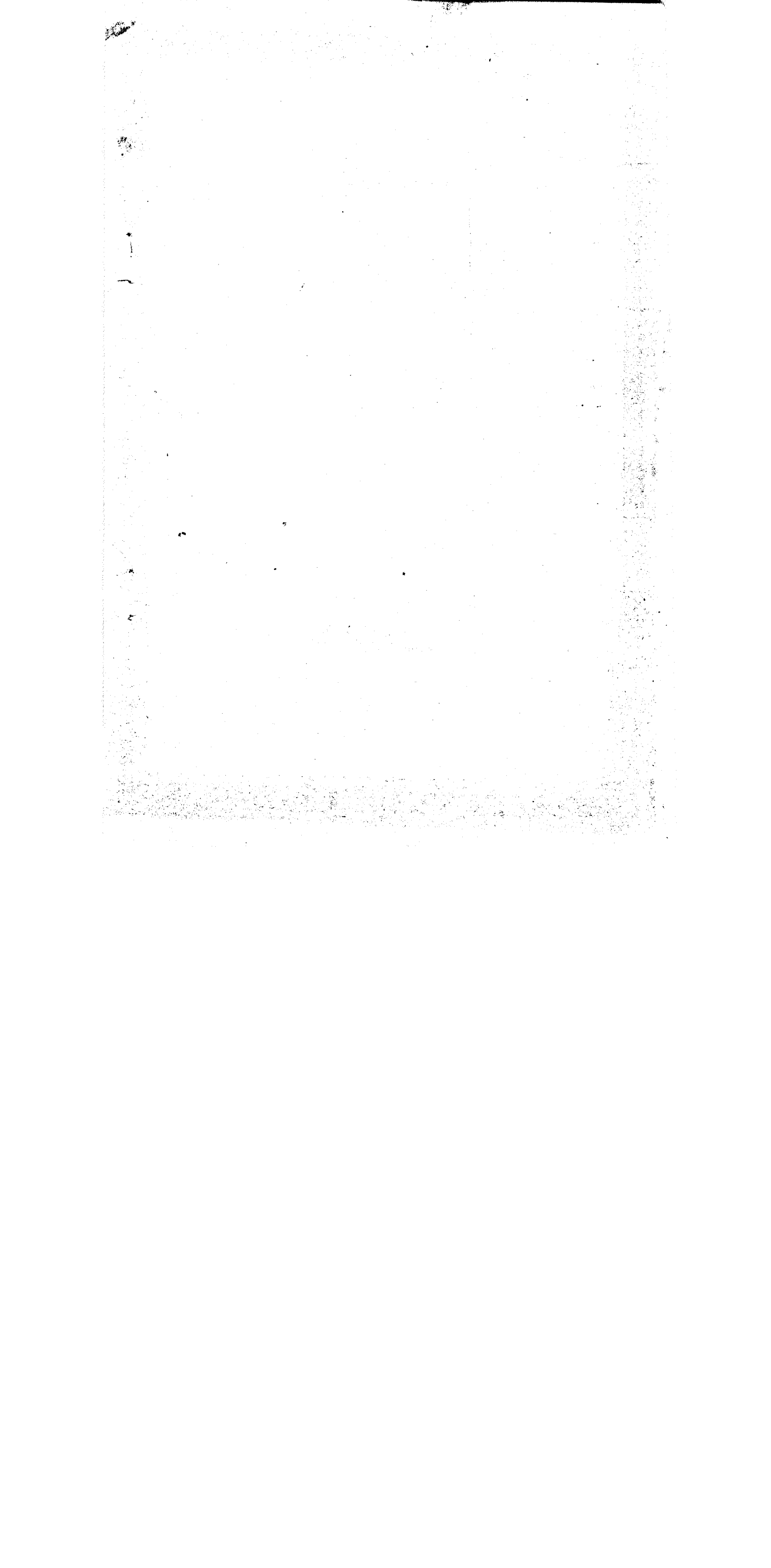
العهد المكي

تأليف الأستاذ الدكتور

محسن سعد عبد الله

أستاذ ورئيس قسم التاريخ والحضارة

بجامعة الأزهر الشريف





مقدمة الكتاب

اللهم لك الحمد كله ، و منك الخير كله ، و إليك يرجع الأمر كله و صـــــلاة وسلاما علي صاحب الرسالة العصماء محمد صلوات ربي و سلامة عليه و علــي آله و صحبة و من سار علي نهجه إلي يوم الدين .

و بعد..

فهذا كتاب في سيرة المصطفي –صلي الله عليه و سلم –جملناه باكورة تأليفنــــا في التاريخ الإسلامي علي غرار ما كان يفعله السلف الصالح من المؤرخين تبركا بسيرة الرسول –صلي الله عليه و سلم –، و كذلك فعل المحدثـــون ، و علــي دربهم نسير. و السيرة النبوية تاريخ يتميز لاعتماده علي الروايات الصحيحة التي تعتمد علي السند والضبط و رعاية المتن و حفظـــه ، و اختـــلاف الروايـــات وتضاربها أحيانا في الحدث الواحد لا يقدح في صحة الواقعة بقدر مـــا يضـــيء للباحث جوانب مظلمة ينطلق منها لرؤيا أوسع وأمثل في الوصول إلي الحقيقـــة تلك التي ينشد المؤرخ دائما . بل إن تضارب بعض الروايات أحيانا و الكشف عن زيفها يبرز الدوافع الخفية البعيدة عن الحادثة و التي تحاول التأثير فيها والنيـل من الإسلام بهذه الروايات. وبعد استقراء منهج القدامى و المحدثـين في كتابـة السيرة النبوية رأيتني أمام نوعين من الكتابة . الأولي تعـــني بســرد الروايـــات بسندها في الحدث الواحد و ربما تناقصت الرواية مع أختها ، دون تفسير لهـــذا التناقض أو تحليل لهذا الحدث إلا فيما ندر علي غرار ما كان يفعله ابـــن ســـيد الناس ، و الذهبي و ابن كثير .و قد كان هم المؤرخ أولا و أخيرا نقـــل كـــل

الروايات التي دارت حول الموضوع بل و نقلها بأمانة شديدة -لوضع الصـــورة كاملة أمام الأجيال القادمة .

هو إذن يقوم بدور الرواية في الأعم الأغلب . و قد كان هذا المنهج نعمة مــــن الله علي السيرة النبوية إذا حفظوا لنا كل الروايات لتكون الصـــورة واضحـــة جليلة ، و قد كان علي رأس هؤلاء ابن اسحق الذي ساغ مؤلفه في تسلســـــل منهجي مع تخليه أحيانا عن الأسانيد معتمدا علي سعة علمه و جميـــل عبارتـــه .الثانية : تعني بالانتقاء و الاختيار من الروايات و لفق الحدث بجـــوار الآخـــر لتصبح قصة سهلة يقود الحدث إلي أخيه ليصنعها في النهايـــة صـــورة لحيـــاة المصطفي - صلي الله عليه و سلم -.

و هذه الطريقة علي ما فيها من إثارة تشويق و جذب للقارئ فإنهـــا تحمـــل الخطورة الكبيرة بين جنبات سطورها ، لأن الكاتب لا يعطينا إلا رأيه و الروايـة التي اعتمد عليها دون غيرها من الروايات ، و لا يذكر سببا لترجيح روايته هذه و لا يذكر الداعي لطرح الروايات ، الأخرى هي إذن سيرة تعتمد علي وجهـــة نظرا الكاتب في اختيار للروايات .و هذا يفتح الباب علي مصراعيـــه لبعـــض المغرضين و أعداء الدين في الكتابة دون سند أو روية معتمدين علـــي بعـــض الروايات الضعيفة مع اطراح غيرها من الروايات .

و من هنا رأيتني أحاول أن أقرن الطريقة الأولي بالثانية و آخذ من هذه و تلك، فقد جملت منهجي سوق الروايات التي تناولت الحدث بدقة و أمانة مع ســـوق الظروف التي واكبت كل رواية و ما دار حولها ، ثم أقارن بين هذه الروايات ليظهر التضارب و أبحث عن علة هذه التضارب و منشـــأه فيســـهل اطـــراح الروايات الضعيفة عندما يتجلى عوارها مع ذكر علة الترجيح و الاطـــراح و لم أغفل المنهج الحديث فقد سقت الأحداث متسلسلة متعاقبة كطبيعية وقوعها ،

فترسم في ذهن القارئ صورة متشابكة لحياة الرسول صلي الله عليه و سلم .
كما أن كتب المحدثين و الآراء التي ساقوها في الروايات كانت نبراسا أهتدي به و عضدا لي في الكتابة حين أجد ما يفيدني فيها .

و لست أجد الكاتب في السيرة الإسلامية و الغافل الكتب التفسير و الحديث إلا طائرا يحاول التحليق بغير أجنحة و لذلك ارتكزت عليها و استندت إليها فهي مصدر من مصادر الكتابة التاريخية في السيرة النبوية . و كان لزاما علي استكمالا للصورة التاريخية و تحقيقا للسند في الرواية و تتويجا للمناهج الحديثة كان لزاما علي –أن ألم في ترجمة موجزة إلي المغمورين من الأعلام الذين ورد ذكرهم بالكتاب تاركا المشهور منهم لشهرته .و هذا المنهج بصورته هذه أعطي اتساعا في الجادة العلمية بما يجعل الإحاطة بسيرة النبي –صلي الله عليه و سلم –في كتاب واحد من الأمور العسيرة لذلك جعلت السيرة النبوية تقع في جزين ، الأول هو الذي نطالعه بين أيدينا و يتناول الفترة المكية . و الثاني يشمل الفترة المدنية تراودنا الآمال أن نواصل كتابته إن شاء الله و لست أزعم شيئا إلا أنني قد شرفت بالعيش في ظلال السيرة النبوية و هدأت النفس و استراح بالي .

و أسأل الله أن تكون هذه الكلمات ذخرا لنا يوم القيامة
ربنا عليك توكلنا و إليك أنبنا و إليك المصير .

المؤلف

د/ محسن سعد عبد الله

أستاذ ورئيس قسم الحضارة
كلية اللغة العربية بالمنصورة

المنصورة في ٢٨/١٢/ ١٩٨٧م

الفصل الأول

بلاد العرب قبل ميلاد النبي

بادئ ذي بدء نقول : إن المؤرخين اصطلحوا علي تقسيم العـــرب إلي ثلاثـــة أقسام :

أولها : العرب البائدة و هم الذين بادوا واومحيت آثارهم و لم نقف علي الكثـــير من أخبارهم باستثناء النذر اليسير الذي أطلعنا عليه القرآن الكريم ، أثناء حديثـــة عن عاد و ثمود و مدين .

أما النقوش الأثرية فإنها ما تزال حتى الآن قليلة ، وما كشف منها لا يعطينـــا فكرة عن الصورة الكاملة لمختلف مجالات الحياة في هذه المجتمعات .

ثانيها: العرب العاربة و هم الذين ينسبون إلي يعرب بن قحطان

ثالثها: العرب المستعربة و هم الذين ينسبون إلي إسماعيل –عليه السلام.

و لما كان النبي –صلي الله عليه وسلم –يصل بنسبة إلي إسماعيل فإنه يحسن بنا أن نتحدث عن هذا النبي و ما كان من أمره أولا ثم نتحدث عن بعض أجـــداد النبي صلي الله عليه و سلم –لنري في جلاء كيف أن الله – سبحانه و تعـــالى – قد كفل لهم العزة و الشرف و الإباء و الطهارة بين أقوامهم .

قصة إسماعيل في مكة

ذكر المؤرخون القدامى أكثر من تفسير يبررون به تعدد أسمـــاء هـــذه البقعـــة الشريفة التي كانت مسرحا لأحداث قصة إسماعيل –عليه السلام .و التي كـــانت و ما تزال تهفوا إليها أفئدة الناس فمنهم من يقول إنها سميت ببكة نسبة إلي بطن مكة (لأنهم يتباكون فيها أي يزدحمون) قال الشاعر :

إذا الشريب أخذته أكة ** فخلة حتى يبك بكة

(الرجز)

أي فدعه حتى يبك إبله أي : يخ ليها إلى الماء فتزدحم عليه .
ومنهم من عزى ذلك إلى أن هذه البلاد ما سميت ببكة إلا لأنها تبـــك أعنـــاق الرجال ، أي تهلكهن نظرا لطغيانهن فيها [1]
أما القرآن الكريم فإنه ذكرها بأكثر من اسم فقال تعالى : (إن أول بيت وضـع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين)[2] . ومن ذلك قوله تعالى (ولتنـذر أم القرى ومن حولها)[3].



وقد عرفت قديما باسم (بلاد بني زوين) يريدون بها بلاد جرهـــم الثانيـة وذكرها بطليموس الرحالة باسم (مكورب) وهي كلمة مكونة من لفظين (ملك) و(رب) ومعناها بلغة حمير (بيت الرب) ومن المؤرخين من يرى أنها سميت مكة لكونها تمك الناس إليها أي تجذبهن نحوها [4]

والذي نراه أن هذا التعدد في الأسماء إنما يدل على أن هذه البقعة الشريفة قـــد حظيت بعناية المؤرخين منذ القرون الأولى للميلاد وحتى القرن العشرين .
ولا يمكننا القطع بترجيح قول على قول من الأقوال التي ذكرها المؤرخون ، فإن تفسيراتهم التي برروا بها هذه الأسماء تستند فيما تستند إليه إلى معالم بـــارزة في تاريخ مكة من ناحية والأماكن المقدسة بها من ناحية أخرى . فالذين قالوا بأنهـا

١- ابن هشام / سيرة النبي جـ ١ ص ١٢٦
٢- سورة آل عمران / آية رقم ٩٦
٣- سورة الشورى / آية رقم ٧
٤- أحمد عبد الحميد الشامي / تاريخ العرب والإسلام / ص ٩٢ ، ٩٣ .

تبك أعناق الرجال استندوا إلى الصراع الذي وقع بين القبائل من لدن جرهـــم إلى قريش من أجل السيطرة عليها والذين قالوا إنها سميت ببكة لازدحام النـــاس في واديها استندوا إلى أن وفود جماعات الحجيج إليها يؤدي إلى ازدحامـــهم في واديها أثناء تأديتهم شعائر حجهم في الأزمنة السالفة على بعثة النبي محمد صلـــى الله عليه وسلم ونظير ذلك من قال إنها سميت بمكة لجذب الناس إليها .

ومن ثم فإن النفس تكاد تسكن إلى أن هذه التفسيرات لا تعدو عن كونهـــا اجتهادات شخصية لأولئك المؤرخين أو بحالة على معاني أسمائـــها في القـــرآن. وعلى هذا فإننا نأخذ بتسمية القرآن لها باسم بكة أو أم القرى فإن الاسمين همـــا الأصل لهذه الأسماء فازدحام الناس بهما جاء استجابة لدعوة إبراهيـــم هـــذا إذا فسرنا بكة بمعنى المكان المزدحم ، وكونها أم القرى ، فإن ذلك انطبـــق عليـــها لأنها وهي المكان الضيق الذي تكاد مساحته تقل عن مساحات العديـــد مـــن القرى فهي أم لها لوجود الكعبة بها .

وتقع مكة في منتصف الطريق الذي كانت تمر فيه القوافل منذ القدم وهـــي محاطة بالجبال التي شكلت حماية طبيعية لها تقي سكانها حرارة الشمس صيفـــا نظرا لخلو واديها من الأشجار [١]. وهذا الوادي له منافذ ثلاثة ، يصله أحدهـــا بطريق اليمن ، ويصله الثاني بطريق قريب من البحر ، ويصله الثالث بـــالطريق المؤدي إلى فلسطين ومن هذه الجبال الفلح غربا ، ثم جبل قيقعان ، ثم جبل الهند ، ثم جبل لعلع ، ثم جبل كداء ، وهو في أعلى مكة ، أما الجبال الجنوبية فإنهـــا تتركب من جبل أبي حديدة غربا ، ثم يتلوه جبلا كدى ، ثم جبل أبي قبيـــس ثم جبل خندمه ، وفي الجهتين الشرقية والغربية جبال كذلك ، وفي الوادي المحصور

١ - أحمد عبد الحميد الشامي / تاريخ العرب والإسلام

بهذه الجبال تقوم مكة وتقع عند تقاطع خط عرض ٢١,٥ درجة شمالا بخط الطول درجة شمالا بخط الطول ٣٩,٥ درجة شرقا وتمتد من الغرب إلى الشرق مسافة ثلاثة كيلومترات طولا وما يقرب من نصف ذلك عرضا. [١]

مكة قبل مجيء إسماعيل إليها :

تباينت آراء المؤرخين حول ما إذا كانت هذه البقعة مأهولة بالسكان من قبل مجيء إسماعيل إليها برفقة أمه وأبيه أم لا ،.ففريق قال : بعمرانها من قبل إسماعيل بغض النظر عن شكل هذا العمران . وآخر ذهب إلى أن عمران هذه البقعة الشريفة يرجع أول ما يرجع إلى الوقت الذي استقر فيه إسماعيل مع أمه في هذه البقعة الجرداء التي لم يكن فيها زرع ولا ماء .

ويجدر بنا أن نعرض لرأي كل من الفريقين على حدة ،والأدلة التي دعم بها رأيه ليتسنى لنا الإلمام بهذه القضية .

أولا - القائلون بعمرانها :

ذهب الدكتور / هيكل ومن دار في فلكه من الباحثين اللاحقين له إلى أن هذه البقعة المسماة بكة كانت معروفة للناس من قبل مجيء إبراهيم إليها مع زوجه وابنه فقد كانت مستراحا لقوافل التجارة التي كانت تقوم بنقل البضائع من الشام إلى اليمن والبلاد الأخرى .

وأن هذه البقعة تعدو خلوا من الناس عند رحيل أصحاب القوافل عنها بعد أن يكونوا قد أخذوا قسطا من الراحة [٢] ولم يكن مستراحهن في هذه البقعة دون غيرها يخلو من سبب يبرره فإن أحد الباحثين اللاحقين لصاحب " حياة محمد ".

---

١ - عبد الرازق الطنطاوي / تاريخ العرب وصدر الإسلام / ص ١٦ ، ١٧

٢-هيكل - حياة محمد / ص ١٠٥

ذكر أن أصحاب القوافل كانوا يأوون على سبيل التبرك إلى ربوة حمراء هنـاك ، رجح الباحث أنها هي الصفا والمروة. [1] ولم يكتف أصحاب هذا الرأي بما ذكـر بل ساقوا لنا أدلة أخرى تزيد من قوة رأيهم فقالوا : إن تاريخ مكة موغـل في القدم من قبل مجيء إبراهيم عليه السلام إليها ، إذ ليس من المعقـول أن يبـدأ تاريخ هذه البقعة بمجيء إبراهيم ، لأن ذلك يتناقض مع ما جاء بـه القـرآن الكريم في أكثر من آية فقد قال الله سبحانه وتعالى : (إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين) [2] وقوله سـبحانه وتعـالى : (وإذ بوأنـا لإبراهيم مكان البيت ألا تشرك بي شيئا) [3]، وقوله عز وجل (وإذ يرفع إبراهيـم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) [4] .

فالناظر إلى الآيات الثلاث يجدها تكشف لنا في جلاء عن حقيقـة وجـود البيت قبل مجيء إبراهيم عليه السلام ، فالآية الثانية توضح لنـا أن إبراهيـم لم يبتدئ بناء البيت ، وإنما رفع قواعده المعروفة من قبل مجيئـه إلى هـذه البقعـة المشرفة ، لأن هذا البيت كما قالت الآية الأولى أول بيـت وضـع للنـاس في الأرض كي يعبدوا الله فيه والآية الثالثة تشير إلى أن إبراهيم عليه السلام قد بـنى البيت في المكان الذي بوأه له الله فأظهر له حدوده ، ومعالمه التي كانت ظـاهرة منذ القدم ودليل ثالث اعتمد عليه القائلون بعمران مكة منذ القدم وخلاصته :

---

١ - الشامي / تاريخ العرب والإسلام / ص ٩٤

٢- سورة آل عمران / آية رقم ٩٦

٣ - سورة الحج / آية رقم ٢٦

٤ - سورة البقرة / آية رقم ١٢٧

أن وهب بن منبه [١] وكعب بن نافع ذكرا ما يفيد بناء البيت من قبـــل آدم على يدي الملائكة ،وأنه رفع إلى السماء إثر هبـــوط آدم إلى الأرض أو حـــين الطوفان زمن نوح عليه السلام [٢] .

ثانيا : القائلون بخلوها من السكان قبل إسماعيل :

أما الفريق الثاني فإنه سلك نفس الدرب فقد أقام رأيه هذا على دليلين :

أولهما : أن الله سبحانه وتعالى أطلعنا في القرآن الكريم على الدعاء الذي دعا بـه إبراهيم عليه السلام — عندما ذهب بزوجه وابنه إلى هذه البقعة الموحشة في هذا الوقت فعندما وجدها قفرا لا أنيس فيها ولا ونيس اتجه إلى ربه قائلا :

(ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم) [٣]

ثانيهما أن القرآن الكريم صرح بأن البيت الذي أنشئ في مكة هو أول بيـــت وضع للناس ، ولابد والحالة هذه أن يكون العمران في مكة قائما قبل إبراهيـــم إذا كان البيت موجودا منذ القدم .

---

١ – الصنعاني الذماري ، أبو عبد الله مؤرخ كثير الأخبار عن الكتب القديمة عالم بأساطير الأولين ولا سيما الإسرائيليات ، يعد من التابعين الموثوقين ، أصله من أبناء الفرس الذين – بعث بهم كسرى إلى اليمن وأمه من حمير ، تولى القضاء لعمر بن عبدالعزيز وتوفي بصنعاء سنة ١١٤ هـ

- ابن خلكان (وفيات الأعيان) ج ٢ ص ١٨٠
- ابن العماد الحنبلي (شذرات الذهب) ج ١ ص ١٥٠

٢– د . عبد العزيز غنيم / فلسفة السيرة ص ١١ ، د . عبد الرازق / تاريخ العرب وصدر الإسلام /ص ١٩

٣– سورة إبراهيم / آية رقم ٣٧

ولما لم نقف على شيء من أخبار مكة من خلال الكتب السماوية والحفائر الأثرية قبل مجيء إبراهيم إليها فإن ذلك يدل بلا ريب على أن عمران هذه البقعة المشرفة بدء أول ما بدء بمجيء إبراهيم إليها وإسكان زوجه وابنه بها [١].

أما المؤرخون المحدثون فمنهم من أدلى برأيه في هذه القضية بعد أن عرض لرأي كلا الفريقين ومنهم من أحجم عن ترجيح رأي على آخر على أساس أن الوثائق القاطعة في هذا الأمر لم تصل إلى أيدينا بعد ، ويمثل أصحاب الرأي الأول د / عبد الرازق الطنطاوى الذي قال :" من رأينا أن هذه المنطقة فيما يبدو وقد عمرت أول الأمر وبدت فيها حياة وكان البيت الحرام مثابة للناس وآمنا ثم حدثت فترة أقفرت فيها الأرض وأجدبت المنطقة لعوامل عديدة دعت الناس إلى تركها لمناطق أخرى شمالية حتى جاء وقت إبراهيم عليه السلام فأحدث ما أحدثه ، وذلك لأننا ما دمنا نجهل تاريخ وجودها أو منابع ظهورها فهذا يودي إلى الحيف في الرأي والخطأ في التقدير" [٢]

يمثل الفريق الثاني أ.د / عبد العزيز غنيم الذي قال إن من يجيل النظر في هذين الرأيين ويتتبع في إنصاف حجج كل منها يتبين له أنها كلها ظنية وأنها محتملة للتأويل والتفسير ، وما دام الفعل غير قاطع والعقل غير مانع فسوف تظل هذه القضية إحدى القضايا الاجتهادية [٣]

١- عبد العزيز غنيم / فلسفة السيرة / ص ١٠ ، ١١ ، ٢ [illegible]
الطنطاوي / تاريخ العرب وصدر الإسلام / ص ٢٠

٢- تاريخ العرب وصدر الإسلام ص ٢١

٣- فلسفة السيرة / ص ١٢

والذي نراه في هذه القضية أن النفس تكاد تميل إلى الأخذ بـــالقول الــذي ذهب أصحابه إلى أن مكة معروفة للناس من قبل إبراهيم ولا سيما التجار منـهم وأن إبراهيم ما توجه بزوجه وابنه إلا بناء على وحي نزل عليه وأمره بالتوجـــه إلى هذا المكان الذي كان يعرف إبراهيم أنه مستراح للتجار وأنه كان في ذلــك الوقت خاليا من الناس ، فدعوة إبراهيم ربه لهذه البقعة كان المقصود منـــها — والله أعلم — أن تصبح معمورة على الدوام دون ارتباط ذلك بوقت من أوقــات العام ولن يكون ذلك إلا بوجود الماء الذي تفجر من زمزم تحت أقدام إسمــاعيل — عليه السلام — كما سنوضحه مفصلا في حينه .

ومن ثم فإن القول بوجود المفهوم الكامل للعمران لم يتيسر في هذه البقعـة إلا بعد مجيء إبراهيم إليها ذلك أن الماء هو الذي ينشئ العمران وما كان هذا فيــها من قبل إبراهيم - عليه السلام — ولا يتنافى ذلك مع كون البيت الحرام موجودا من قبل إبراهيم ، وأنه كغيره من الأبنية التي كانت موجودة في الأزمنة الغــابرة التي فعلت بها العوامل الجيولوجية ما فعلت فغابت عن الأبصار وغـــدا تحديــد معالم البيت أمرا تعجز عنه ألباب البشر بطول الزمان ، وإلا فيما نفسر إيــــواء العرب التجار إلى هذا المكان دون غيره وتبركهم بالربوة الحمراء ، ونحن نـــرى أن ذلك راجع لهذا السبب دون غيره .

إسماعيل في مكة

يحسن بنا ونحن بصدد الحديث عن وجود إسماعيل بمكة الإيماء إلى أنه لا يعنيـــا هنا التعرض بالتفصيل إلى قصة إبراهيم الخليل — عليه السلام — وأن حديثنا عن بعض أموره لا يعدو عن كونه تمهيدا لما نود تفصيله من أمور متعلقـــة بقصــة إسماعيل في مكة .

لما شاء الله سبحانه وتعالى لإبراهيم – عليه السلام – البناء بـــامرأة اقــترن بسارة التي عاشت معه في رغد من العيش وقد شغفته حبا و لم يكن شيء يكـدر عليهما صفو الحياة إلا حرمانهما من ثمرة لهذا الزواج فقد ذكر القرآن الكريم أنها كانت عقيما ، وظلت هكذا إلى أن بلغ إبراهيم – عليه السلام – نيفا وثمــانين عاما ، فأشارت عليه زوجه سارة بالاقتران بهاجر التي أنجبت له إسماعيل –عليــه السلام – . [1]

وكانت هاجر كما يقول " الفاسي " أمة لبعض الملوك فأهداها هذا الملك إلى سارة زوج إبراهيم التي وهبتها له [2] كما قلنا – وذهبت بعض الروايــات إلى أن السبب الذي جعل إبراهيم – عليه السلام – يتوجه بزوجه وابنه إلى مكة يرجع إلى الغيرة التي تملكت سارة بعد أن أنجبت هاجر إسماعيل – عليه السلام – فقـد ذكر الطبري أكثر من رواية لهذا الحدث منها : ما يوافق ما ذكرناه ومنها مـــا يخالفه فمن الأول ما رواه عن موسى بن هارون عن السدي [3] " أن سارة قـالت لإبراهيم تسر بهاجر فقد أذنت لك فوطئها فحملت بإسماعيل ثم إنه وقع علـــى سارة فحملت بإسحاق فلما ولدته وكبر اقتتل هو وإسماعيل فغضبت سارة على أم إسماعيل وغارت عليها فأخرجتها ثم إنها دعتها فأدخلتها ، ثم غضبت أيضـــا فأخرجتها ثم أدخلتها وحلفت لتقطعن منها بضعة ، فقالت أقطع أنفها أقطـــع أذنها فيشينها ذلك ، ثم قالت لا بل أخفضها فقطعت ذلك منها .

١- الطيب النجار / السيرة النبوية / ص ١٥

٢- العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين / ج ١ / ص ١٣٥

٣- هو إسماعيل بن عبد الرحمن السدي صاحب التفاسير والمغازي و السير وكان عالما بالوقائع وأيام الناس تابعي حجازي الأصل ، سكن الكوفة .

- ابن تغرى بردى " النجوم الزاهرة " ج ١ ص ٣٠٥

إلى أن قال : إن سارة قالت لزوجها عن هاجر (لا تساكنني في بلد ، وأوحى الله إلى إبراهيم أن يأتي مكة ، وليس يومئذ بمكة بيت فذهب إلى مكة وإبنها فوضعهما) [١]

والذي يمعن النظر في هذه الرواية يجدها قد أسندت أمر إخراج إبراهيم زوجه وابنه إلى سببين أحدهما الغيرة وثانيهما الوحي وقد رجحت السبب الثاني تلك الرواية التي رواها ابن سعد ثم الطبري ، فذكر الأول عن محمد بن عمر [٢] عن أبي جهن بن حذيفة بن غانم قال : أوحي الله إلي إبراهيم يأمره بالمسير إلى بلده الحرام فركب إبراهيم البراق و حمل إسماعيل أمامه ، و هو ابن سنتين ، و هاجر خلفه ، و معه جبريل ، يدله علي موضع البيت ، حتى قدم به مكة فأنزل إسماعيل و أمه إلي جانب البيت ثم انصرف إبراهيم إلي الشام"[٣]

ومن الثاني ما رواه ابن بشار عن علي رضي الله عنه قال " لما أمر إبراهيم ببناء البيت خرج معه إسماعيل وهاجر فلما قدموا مكة رأى على رأسه في موضع البيت مثل الغمامة فيه مثل الرأس ، فكلمة و قال إبراهيم ابني علي ظلي أو علي قدري و لا تزد و لا تنقص فلما بني خرج وخلف إسماعيل و هاجر فقالت هاجر : يا إبراهيم إلي من تكلنا ؟ قال.. إلي الله، قالت انطلق فإنه لا يضيعنا [٤]

١- تاريخ الأمم والملوك / ج١ / ص ٢٥٣ ، ٢٥٤

٢- الواقدي بن واقد السهمي الأسلمى بالولاء أبو عبد الله ، ولد بالمدينة و انتقل إلي العراق سنة ١٨٠هـ، و تولى القضاء ببغداد في زمن الرشيد و هو من حفاظ الحديث . و أقدم المؤرخين فكلما ذكرت له حادثة و عين له مكانها ذهب لمشاهدتها ، توفي في بغداد سنة ٢٠٨ هـ.

- ابن خلكان وفيات الأعيان) ج ١ ص ٥٠٦.

٣- الطبقات الكبرى / ج ١/ ص ٥٠ (٤) الطبري / تاريخ الأمم و الملوك / ج١ ص ٢٥٢

٤- الطبري / تاريخ الأمم والملوك / ج ١ ص ٢٥٢

و لست أرتاب في شيءٍ قدر ارتيابي فيما ذكرته الرواية التي رواها الطبري عن موسى بن هارون فإنها تحمل في طياتها ما يوهن بعضها دون البعض الآخـــر ، ذلك أن الغيرة التي أشارت إليها الرواية ما كانت لتتسبب في إخـــراج هـــاجر وابنها من مكة ؛ لأن الله قد من علي سارة بإسحاق فلو ثبت أن إسحاق قـــد ولد قبل هجرة هاجر بابنها لما كان لهذه الغيرة وجود و لا عبرة عندي لما زعمه الراوي من أن هذه الغيرة نشأت نتيجة مشاجرة بين إسماعيل وإسحاق ؛لأن الإثنين كانا ما يزالان طفلين يمكن احتواء فعلتهما إن لم يمكن منعهما منـــــها ، كما أنه لا يتصور أن يضحي إبراهيم الخليل بأحد ولديه دون الآخر ويذهب به إلي هذه البقعة النائية رغبة في إرضاء زوجته الأولي دون نزول وحي يأمره بهـذا الفعل !!

و من ثم فإننا لا نرتضي إلا أن يكون هذا هو السبب المباشر الذي جعل إبراهيم عليه السلام – يهاجر بزوجة هاجر وابنها من العراق إلي مكة و هذا ما أشارت إليه الرواية المذكورة في نهايتها ووافقتها الروايتـــان المذكورتـــان في الطبقـــات وتاريخ الأمم .

كما أن الرواية المنسوبة لعلي بن أبي طالب في الطبري هي الأخرى فيها مـــا يوهنها ذلك أنها ذكرت أن إبراهيم لما خرج بزوجه و ابنه هيأ الله لـــه مكـــان البيت فبنا ثم قفل عائدا إلي الشام و لم تفصح الرواية عن إسمـــاعيل في ذلـــك الوقت فإذا كان صغيرا يكون والحالة هذه لم يشارك أباة في بناء البيت و هذا ما يتناقص مع إخبار القرآن الكريم عن هذا الأمر فقد قـــال تعـــالي (و إذ يرفـــع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) [1]

١- سورة البقرة / آية رقم ١٢٧

و إن كان كبيرا فإنه يتناقض مع ما ذكرته معظم الروايات من أمر سعي هاجر بين الصفا و المروة سبع مرات ؛ بحثا عن الماء لابنها الصغير فلو كان كبيرا و والحالة هذه لكفاها مؤنه السعي ، أو علي الأقل يقاسمها عناء سعيها و الذي نكاد نرجحه أن إسماعيل – عليه السلام- عندما جاء إلي مكة برفقه أمه كان لا يملك من أمره شيئا كما ذكرت العديد من الروايات .

و سواء صح هذا أم لم يصح فإن الله سبحانه و تعالي – قد من علي هاجر بعد سعيها بين الصفا و المروة سبع مرات بخروج الماء من تحت قدمي إسماعيل فنبعت منذ ذلك الوقت زمزم فطفقت هاجر تحبس الماء فقيل إن جبريل ناداها قائلا " دعيه فإنها رواء" [1]

و لما كان الماء مصدر الحياة فإنه أسهم بشكل سريع في تغيير أحوال هذه البقعة فقد أمتها الطيور و راحت تغرد في واديها فاسترعى ذلك الأمر الجديد نظر قبيلة جرهم التي ذكر البعض أنها كانت تقيم علي مسافة من تلك البقعة الشريفة بينما ذكر البعض الآخر أنها رأت هذه الظاهرة الجديدة أثناء مرورها إلي الشام في الطريق المعتاد لقوافل التجارة آن ذاك" [2]

فلما رأت جرهم الماء أناخوا رحالهم طالبين الإذن من هاجر أن يقيموا معها يؤنسون و حشتها و يخففون غربتها و يقطعون وحدها فوافقت علي إقامتهم بعد أن أمنت جانبهم علي أن يكون لهم استغلال الماء ولها الهيمنة عليه و ظلت

١- الطبري/ تاريخ الأمم والملوك / ج ١ / ص ٢٥٦

٢- الطبري / تاريخ الأمم و الملوك / ج١ / ص ٢٥٦ ،، هيكل/ حياة محمد / ص ١٠٤

جرهم في هذا الوادي حيث شب بينهم إسماعيل و استوى عودة " [١] .

فلما أنس في نفسه حسن الاستعداد للزواج بادر إلي ذلك نظرا لوفاة أمه التي توفيت بعد أن بلغ إسماعيل من العمر عشرين ربيعا و قد ذكر الطبري عدة روايات في أمر زواج إسماعيل لم نجد بينها من التباين إلا النذر اليسير الذي لا يتنافى مع المضمون العام لهذه الروايات .

فقد ذكرت أن إسماعيل قد تزوج بامرأة من جرهم أقامت معه ردحا من الزمان حتى تاق إبراهيم لزيارة أهلة الذين جعلوا من هذا المكان موطنا لهم فلما وصل إلي تلك البقعة الشريفة أخذ يبحث عن منزل ابنه حتى و صل إليه فلم يجده ووجد زوجه التي أساءت استقباله فقال لها إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام و قولي له أن شيخا صفته كذا و كذا جاءك زائرا و يقول لك فلتغير عتبة بابك!

فلما آب إسماعيل إلي بيته إثر فراغه من الصيد الذي كان يتكسب منه أطلعته زوجة علي الأمر فعرف أنه آباه فبادر إلى طلاقها ثم أعاد إبراهيم عليه السلام- الكرة ثانية ففصل من مكانة الذي يقيم به مع سارة إلي حيث يقيم إسماعيل فلم يجده ووجد زوجه الثانية التي يقال لها السيدة بنت مضاض فأحسنت وفادته و قدمت له الطعام و الشراب فدعا لهما و قال لها إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام و قولي له : قد استقامت عتبة بابك [٢]

١- عبد الرازق الطنطاوي / تاريخ العرب وصدر الإسلام ص ٢٨

٢- الطبري / تاريخ الأمم والملوك / ج ١ ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، هيكل / حياة محمد ص١٠٥ ، فلسفة السيرة / عبد العزيز غنيم ص ١٧

و إذا كنا قد عرضنا لأمر زواج إسماعيل من زوجتيه الإثنين سالكين سبيل إجمال العديد من الروايات فإنه لا يسعنا أن نولي وجهنا شطر أمر آخر من أمور هذا النبي في مكة إلا بعد الإشارة إلي هذا النسج القصصي الذي هيأة خيال الراوي لنفسه !!

فإن قولة علي لسان سارة لإبراهيم بشأن استئذانه لها في زيارة هاجر " لا تنزل " أمر يأباه المنطق السوي ذلك أن العقل لا يستسيغ مجيء شيخ مسن كإبراهيم عليه السلام – من العراق إلي مكمدون آن ينال قسطا من الراحة و إذا ما قال قائل إنها ما شرطت عليه ذلك للغيرة التي تملكتها من هاجر ، قلنا إن صح ذلك في المرة الأولي فإنه لم يصح في المرة الثانية بعد أن علمت سارة من إبراهيم بوفاة هاجر في المرة الأولي فإن الروايات تذكر أنها توفيت قبل مجيء إبراهيم إلي مكة زائرا في المرة الأولي .

أما عن اللغة التي كان يتكلم بها إسماعيل فإن المصادر القديمة حوت العديد من الروايات المتباينة حول هذا الأمر ففيها من يعزو نطق إسماعيل بالعربية إلي إلهام من الله له، و منها من يعزو ذلك إلي تعلمه إياها من قبيلة جرهم و آخرون يأبون أن يكون إسماعيل قد تكلم بالعربية في حياته و أن أول من تكلم بها أبناؤه فهذا ابن سعد يذكر لنا في الطبقات ثلاثة روايات في هذه القصة :

أولها : " عن إسماعيل بن عبد الله بن أبي أويس المدني قال عن عقبه بن بشير أنه سأل محمد بن علي ..من أول من تكلم بالعربية ؟ قال: إسماعيل بن إبراهيم – صلي الله عليه و سلم –و هو ابن ثلاث عشرة سنه قال قلت : فما كان كلام الله الذي أنزل علي رسله وعباده من ذلك الزمان ؟ قال العبرانية ".

و ثانيها : ما رواه أيضا " عن محمد بن عمر الأسلمي أن إسماعيل ألهم من يوم ولد لسان العرب ، وولد إبراهيم أجمعون علي لسان أبيهم "

و ثالثها: منقولا عن هشام بن محمد بن السائب [١] عن أبيـــه قـــال : لم يتكلـــم إسماعيل بالعربية و لم يستحل خلاف أبية و أول من تكلم بالعربية مـــن ولـــده بنور مله بنت يشجب بن سام بن نوح" [٢]

و ذكر البلاذرى أن إسماعيل عليه السلام- تكلم العربية نتيجة مخالطته لقبيلـــة جرهم و أن أول من تكلم العربية هم العرب العاربة حين اختلفت الألسن ببابل روي هشام أن أهل اليمن يقولون أول من تكلم العربية يعرب ابن قحطان[٣]

و علي هذا فنحن أمام الروايات أربع مختلفة فيما بينهما ، و إن كان لنـــا أن نرجح واحدة علي أخرى فإننا نكاد نميل إلي الأخذ برواية البلاذري التي تفيـــد أن إسماعيل اكتسب العربية من مخالطته جرهم، ذلك أن اللغة شأنها شـــأن أي كائن في الأرض لابد و أن يمر بأطوار مختلفة حتى تصل إلي مرحلة الكمال.

و علي الرغم من إلهام الله- سبحانه و تعالي- اللغة العربية لإسماعيل لم يخـــرج عن دائرة الإمكان إلا أن الأنبياء لما كانوا بشرا قضى الله — سبحانه و تعـــالي — عليهم أن يعيشوا في الأرض بين البشر دون الخروج عن المألوف مـــن الســـنن الطبيعية خلا المعجزات التي تأتي لتأييد دعوتهم إلي الله ثم إن العقل لا يستســـيغ أن يتكلم فرد واحد لغة لا تعرفها القبيلة التي جاءت لتقيم معه و يتمكن مـــن

١- بن بشير الكلبي من أهل الكوفة أبو المنذر ، مؤرخ و عالم بأنساب العرب له كتاب في الأصنام و الخيل بلغت مؤلفاته مائه، وتوفي سنه .....

ابن خلكان وفيات الأعيان " ج٢ ص ١٩٥ ، ١٩٦ ، ابن خلدون ج ٢ ص ٢ ٢٦.

٢-الطبقات ج ١ ص ٥٠ ،٥١

٣- أنساب الأشراف / ج ١ / ص ٥

فرضها عليهم حتى يمكنه التعايش معهم بهذا الشكل السريع ، دون أن يكـــون لهذه القبيلة معرفة باللغة المذكورة من قبل !!

إبراهيم و إسماعيل يرفعان قواعد البيت الحرام

ظل إبراهيم – عليه السلام –مقيما مع زوجه سارة إثر عودته ثانية من زيارة ابنه في مكة حتى أنزل الله عليه وحيا يأمره بالذهاب مرة ثالثة [1]
إلي تلك البقعة المشرفة لا للزيارة و إنما لإظهار البيت الحرام الذي هو أول بيـت وضع للناس فقد روي ابن سعد أن الله لما (أوحي إلي إبراهيم ببناء البيت كـان يبلغ من العمر مائة سنة و إسماعيل يومئذ ابن ثلاثين سنه)[2]
فلما وصل الخليل إلي مكة طفق يبحث عن مكان البيت فلم يهتد إليه حتى مـن الله عليه بإرشاده إلي مكانه فقد نسب السدى إلي ابن عباس أنه قال (بعـث الله عز وجل ريحا يقال لها ريح الخجوج لها جناحـان و رأس في صـورة حيـة فاكتست لهما ما حول الكعبة عن أساس البيت الأول.واتباعها بالمعاول يحفـران حتى وضع الأساس فذلك حين يقول عز وجل : (و إذا بوأنا لإبراهيم مكـان البيت)[3]

و ذكر البلاذري عن ابن عباس (أن إبراهيم و إسماعيل استعانا عند بناءهمـا البيت بأولاد جرهم بن عابر بن سبأ بن يقطن فعملوا معهم و كانت منازل

١-الطبري / تاريخ الأمم و الملوك / ج ١ ص ٢٥٧ ،، الفاسي / العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين /ج١ ص ١٣٣.

٢- الطبقات الكبري / ج ١ / ص٥٢

٣- سورة الحج آية ٢٦

جرهم بمكة وما حولها)[١] .

و نرى أن مشاركة أبناء جرهم لإبراهيم و إسماعيل في بناء البيت أمر مقبـول و ذلك أن القبيلة المذكورة كانت تقيم إلي جوار إسماعيل و أمة قبل بناء البيـت الحرام فلا يتصور أن تتركهما القبيلة يبنيان و حدهما دون معاونتهما بعد الـذي أسدته أم إسماعيل لهم حين سمحت لهم بالانتفاع بماء زمزم

و مهما يكن من أمر فإنه لما تم بناء البيت الحرام أمر الله إبراهيـم – عليـه السلام–بأن يؤذن الناس بالحج و يذكر الطبري (أن إبراهيم عليـه السـلام – راح يؤذن في الناس بالحج فكلما أمر بشجر أو حجر قال له لبيك اللهم لبيك[٢]

قصة الذبح

شغلت هذه القصة علماء السلف و الخلف فراحوا يدلون بدلوهم فيها من أجـل الوصول إلي رأي قاطع يحدد الذبيح من ولد إبراهيم ، فمنهم من ذهب إلى أنـه إسحاق ، ومنهم من قال إنه إسماعيل ، ولا نجد كبير عناء في ذكر السبب الذي يعزي إليه هذا الخلاف ، ذلك أن القرآن الكريم لم يصرح بإسم الذبيح ، وقـد رويت عن أصحاب النبي محمد– صلى الله عليه وسلم – والتـابعين روايـات بعضها صحيح وبعضها موقوف يفيد بعضها أنه إسماعيل ، والبعض الآخر يفيـد أنه إسحاق ، ولسوف نعرض لكل الرأيين اعتمادا على الروايات العديدة الـتي ذكرها الطبري لكل فريق من الفريقين على حدة ، ثم نزيل ذلك بذكر الـرأي الذي ارتضاه الطبري لنفسه في تاريخه ، وما ذهب إليه الدكتور محمد الطيـب

١-الطبري " تاريخ الأمم والملوك " ج ١ ص ٢٥٢
٢-أنساب الأشراف / ج ١ ص ٨
٣-الطبري " تاريخ الأمم والملوك ص ٢٥٩ .

النجار من رأي في هذه القضية ونكتفي بهذا عن ذكر الكثير في هـــذه القضيـــة حيث إن ذلك سيكون موضوعا لبحث في المستقبل بعيدا عن هذا المؤلف .

أولا : القائلون بان الذبيح إسحاق :

روى الطبري عن يونس قال (إن كعب قال لأبي هريـــرة [١] ألا أخـــبرك عـــن إسحاق بن إبراهيم النبي ؟ قال أبو هريرة : بلى ، قال كعب : لما أراد إبراهيـــم ذبح إسحاق قال الشيطان : والله لئن لم أفتن عند هذا آل إبراهيم لا أفتن أحـــدا منهم أبدا ، فتمثل الشيطان لهم رجلا يعرفونه فأقبل حتى إذا خـــرج إبراهيـــم بإسحاق ليذبحه دخل على سارة امرأة إبراهيم فقال لها : أين أصبـــح إبراهيـــم غاديا بإسحاق ؟ قالت غدا لبعض حاجته ، قال الشيطان : لا والله ما لذلـــك غدا به ، قالت سارة فلم غدا به : قال غدا به ليذبحه قالت سارة ليس من ذلـــك شيء لم يكن ليذبح ابنه قال الشيطان : بلى والله قالت سارة فلم يذبحه ؟ قـــال زعم أن ربه أمره بذلك قالت سارة فهذا حسن بأن يطيع ربه إن كـــان أمـــره بذلك فخرج الشيطان من عند سارة حتى أدرك إسحاق وهو يمشي على أثـــر أبيه فقال له : أين أصبح أبوك غاديا بك ؟ قال غدا بي لبعـــض حاجتـــه قـــال الشيطان ، لا والله ما غدا بك لبعض حاجته ، ولكنه غدا بك ليذبحـــك قـــال إسحاق ما كان أبي ليذبحني ، قال : بلى قال : .. لم ؟ قال : .. زعم أن ربـــه أمره بذلك ، قال إسحاق ، فو الله لئن أمره بذلك ليطيعنه ، فتركه الشـــيطان

١-هو عبد الرحمن بن صخر الدوسي ، وقيل اسمه عبد الله بن عامر ، أسلم عام خيبر سنة ٧ هـــ وشهدها مع الرسول – صلى الله عليه وسلم – كان أحفظ أصحاب الرسول – صلى الله عليه وسلم –.استعمله عمر على البحرين ثم رآه لين العريكة مشغولا بالعبادة فعزله وأراده بعد زمن على العمل فأبى ز توفي بالمدينة سنة ٥٧ أو ٥٨ أو ٥٩ هـــ .

- ابن العماد الحنبلي / شذرات الذهب ج ١ ص ٦٣ .

وأسرع إلى إبراهيم فقال أين أصبحت غاديا بابنك ؟ **قال غدوت بـه لبعـض** حاجتي قال أما والله ما غدوت به إلا لتذبحه ، قال لم أذبحه ؟ **قال** : زعمـت أن ربك أمرك بذلك قال : فوالله لئن كان أمرني ربي لأفعلن قـال : فلمـا أخـذ إبراهيم إسحاق ليذبحه ، وسلم إسحاق أعفاه الله وفداه بذبح عظيم قال إبراهيم لإسحاق .. قم أي بني فإن الله قد أعفاك ، فـأوحى الله إلى إسـحاق .. إني أعطيك دعوة أستجيب لك فيها . قال إسـحاق .. اللـهم إني أدعـوك أن تستجيب لي .. أيما عبد لقيك من الأولين والآخرين لا يشرك بك شيئا فأدخلـه الجنة[1]

ثانيا : القائلون بأن الذبيح إسماعيل :

روى الطبري عن ابن حميد عن محمد بن كعب القرظي يقول : " إن الذي أمـر الله عز وجل إبراهيم بذبحه من ابنه إسماعيل ، وإنا لنجد في ذلك في كتـاب الله -عز وجل -في قصة الخبر عن إبراهيم وما أمر به من ذبح ابنه أنـه إسمـاعيل وذلك أن الله عز وجل . يقول حين فرغ من قصة المذبوح من ابني إبراهيم قـال " وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين " ويقول .. فبشرناها بإسحاق ومـن وراء إسحاق يعقوب " يقول يا بني وابن ابني فلم يكن يأمره بذبح إسحاق وله فيـه من الله من الموعود ، وما وعده ، وما الذي أمره بذبحه إلا إسماعيل[2]

وقد قال ابن جرير الطبري بعد عرضه للعشرات من الروايات في هذه القضية :

" أما الدلالة من القرآن التي قالت أن ذلك الذبيح إسحاق أصح فقوله تعـالى في خبره عن دعاء خليله إبراهيم حين فارق قومه مهاجرا إلى ربه ، إلى الشام مع

١- تاريخ الأمم والملوك / ج ١ ص ٢٦٥ ، ٢٦٦

٢- تاريخ الأمم والملوك / ج ١ ص ٢٦٩ ، ٢٧٠

زوجته سارة فقال " إني ذاهب إلى ربي سيهدين رب هب لي من الصـــالحين" [1] وذلك قبل أن تصير له أم إسماعيل ثم أتبع ذلك ربنا - عز وجل - الخبر عـــن إجابته ودعاءه وتبشيره إياه بغلام حليم ثم عن رؤيا إبراهيم أنه يذبح ذلك الغلام حين بلغ معه السعي و لا يعلم في كتاب ذكر لتبشير إبراهيم بولـــد ذكـــر إلا إسحاق و ذلك قوله و إمرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق و مـــن وراء إسحاق يعقوب " [2]

و قوله " فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف و بشروه بغلام حليم فأقبلت إمرأتـــه في صرة فصكت وجهها و قالت عجوز عقيم " [3]

ثم كذلك في كل موضوع ذكر فيها بتبشير إبراهيم الغلام فإنما ذكر بتبشـــير الله إياه به من زوجة سارة فالجواب أن ذلك في قوله " فبشرناه بغلام حليم " نظـــير ما في سائر سور القرآن من تبشيره إياه من زوجة سارة أما اعتلال من أعتل بأن الله لم يكن يأمر إبراهيم بذبح إسحاق و قد أتته البشارة من الله قبـــل ولادتـــه بولادة وولادة يعقوب منه بعدة فإنها علة غير موجبة صحة ما قال ، وذلـــك أن الله أمر إبراهيم بذبح إسحاق بعد إدراك إسحاق السـعي وجـائز أن يكـــون يعقوب ولد له قبل أن يؤمر أباه بذبحة ، وكذلك لا وجه لاعتلال من أعتـــل في ذلك بقرن الكبش أنه رآه معلقا في الكعبة و ذلك أن غير مستحيل أن يكـــون حمل من الشام إلي الكعبة فعلق هنالك " [4]

و لم يرتض أ.د / الطيب النجار الأخذ بهذا الرأي و رأي أن ، الراجح لديـــة أن الذبيح إسماعيل دون إسحاق فقال : قد أشار القرآن الكريم إلي ذلك في قولـــه

١-سورة الصافات الآية ٩٩-١٠٠

٢- سورة هود آية ٧٧

٣- سورة الذاريات آية ٢٨:٢٩

٤- الطبري / تاريخ الأمم والملوك / ج١ ص ٢٧٠: ٢٧١

تعالي عن إبراهيم عليه السلام: " رب هب لي من الصالحين فبشرنا بغلام حليم ، فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا تري ؟" قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين ، فلما أسلم و تله للجبين ، وناديناه أن يا إبراهيم ، قد صدقت الرؤيا، إن كذلك نجزي المحسنين ، إن هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم ؛ و تركنا عليه الآخرين ، سلام علي إبراهيم ، كذلك نجزي المحسنين ، إنه من عبادنا المؤمنين ، وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين ".[١]

فهذه الآيات الكريمة تشير في وضوح إلي أن هناك بشارتين لإبراهيم أولاهما فبشرناه بغلام حليم" و ثانيهما " و بشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين ".
و منحة الذبح التي ابتلي بها إبراهيم جاءت بعد البشارة الأولي التي كانت بالغلام الأول و هو إسماعيل و بعد أن سرد الله قصه إبراهيم مع ابنه و كيف فداه الله بذبح عظيم فقرب به إبراهيم إلي ربه شكرا علي نجاة ولده عاد فأخبره عن البشارة الثانية بالولد الثاني لإبراهيم و هو إسحاق الذي رزقت به السيدة سارة بعد ولادة السيدة هاجر لإسماعيل [٢]
و إن كان لنا من رأي نبديه بعد هذا العرض الذي توخينا فيه الإيجاز هو أن هذه القضية ما تزال موضع أخذ ورد و لم يستطع فريق من الفريقين إحراز النصر علي صاحبة برأي قاطع ليضع حدا للمناقشة فيها و إن كنا نود الميل لرأي جمهرة المسلمين الذي يرجح أن الذبيح إسماعيل و ليس إسحاق .

١- سورة الصافات آية ١٠٢
٢-السيرة النبوية ./ ص ٢٩

المستشرقون و هجرة إسماعيل إلي مكة :

لم يرق للمستشرقين ما أجمعت عليه المصادر العربية القديمة و ما ذكر في بعـــض الكتب المقدسة عن رحلة إبراهيم بابنة وزوجة من العراق إلي الشام فذهبـــوا إلي إنكارها و أعدوها واحدة من الأساطير العربية الموغلة القدم و زعموا أن العـرب انتحلوا من أجل توثيق العري بينهم و بين اليهود بصفتهم أبناء عمومة .[١]

و من المستشرقين الذين برهنوا علي وجهة نظرهم تلك السير و ليم مويـــــرا الذي قال " إن أوضاع العبادة في بلاد العرب لاصلة بينهما و بين دين إبراهيـــم لأنها وثنبه مغرقة في الوثنية والتي كان إبراهيم حنيفا مسلما "[٢]

و قد انبري صاحب " حياة محمد " لمناقشة وليم موير و من حذي حذوه مـــن المستشرقين ففند رأيهم هذا بالبراهين المنطقية التي ساقها فقال :
(و لسنا نري مثل هذا التعليل كافيا لنفي واقعة تاريخية فوثنية العرب بعد مـوت إبراهيم و إسماعيل بقرون كثيرة لا تدل علي أنهم كانوا كذلـــك حـــين جـــاء إبراهيم إلي الحجاز و حين اشترك و إسماعيل في بناء الكعبة ، ولو أنها كـــــانت وثنية يومئذ لما أيد ذلك " سيرموير " فقد كان قوم إبراهيم يعبدون الأصنـــــام ، وحاول هو هدايتهم فلم ينجح ، فإذا دعا العرب إلي مثل ما دعا إليه قومة فلـــم ينجح و بقي العرب علي عبادة الأوثان، لم يطعن ذلك في ذهـــاب إبراهيـــم و إسماعيل إلي مكة ، بل إن المنطق ليؤيد رواية التاريخ ، فإبراهيم الذي خرج مـــن العراق . فارا من أهلة إلي فلسطين و إلي مصر رحل ألف الارتحـــــال و ألـــف

١- أحمد عبد الحميد الشامي / تاريخ العرب و الإسلام ص ٩٥
٢- هيكل / حياة محمد / ص ١٠٦

احتياز الصحاري ، و الطريق ما بين فلسطين و مكة كان مطروقا من القوافل منذ أقدم العصور ، فلا حل إذا للريبة في واقعية تاريخية انعقد الإجماع على جملتها .

و السير وليم موير والذين ارتأوا في هذه المسألة رأيه يقولون بإمكان انتقال جماعة عن أبناء إبراهيم و إسماعيل بعد ذلك من فلسطين إلي بلاد العرب و اتصالهم و إياهم بصلة النسب ، و ما ندري إذا كان هذا الإمكان جائزا في شأن الرجلين بالذات : فكيف لا يكون ثابتا قطعا ، و رواية التاريخ تؤكده " [1]

و علي أية حال فإن إسماعيل ظل في مكة يدعو إلى الله- سبحانه و تعالي – العماليق و غيرهم في اليمن و المناطق المجاورة للحجاز " [2] حتى توفي عن عمر يناهز الثلاثين بعد المائة و دفن في الحجر مع أمة هاجر " [3]
بعد أن أنجب من الأولاد اثني عشرا ولدا .[4] ذكر المؤرخون أن أمر مكة آل إليهم ثم لأخوالهم الجراهمة[5]

١- هيكل / حياة محمد / ص ١٠٦ ، ١٠٧

٢- عبد العزيز غنيم / فلسفة السيرة / ص ١٧

٣- الطبري / تاريخ الأمم و الملوك / ج١ ص ٣١٤ ،، الذهبي / السيرة النبوية / ص٣

-تضمنت العديد من المصادر القديمة أسماء أولاد إسماعيل و هم : (أنانبتا ، قيدار ، إربل ، مشا ، حمعا ، و ماشي ، وذما ، و أزر ، طحا ، بطور ، قيدما ، و ينشا)

-. الفاسي العقيد الثمين و تاريخ البلد الأمين ج١ ص ١٣٥ ، ١٣٦

٤- ابن سعد / الطبقات الكبرى ج ١ ص ٥٢ ، البلاذري أنساب الأشراف ج ١ ص ٨

مكة بعد إسماعيل :

غدت مكة بعد ظهور ماء زمزم بها وقطون الجراهمة في واديه مكانــا معمــورا بعدما ما كان بالأمس مهجورا و راحت جماعات القبــائل تؤمــها للحــج أو للاستراحة بها أثناء المرور للتجارة كما أشرت آنفا ،و كانت مقاليد الأمــور في مكة في يد الجراهمة الذين أخذوا شيئا فشيئا ينأون بأنفسهم عن مبادئ إسمـاعيل و أبية إبراهيم ، فقد قالت المصادر القديمة إن جرهم ارتكب الفواحــش عنــد الحرم و خارجة و أية ذلك ما نجدة شائعا في هذه المصادر من أسطورة إساف و نائلة اللذين مسخها الله حجرين لارتكابهما جريمة الزنا في البيت الحرام " [1]

و علي الرغم أن ظاهرة الاختلاف بينه في هذه الأسطورة إلا أنها بلا ريــب توقفنا علي مدي الفواحش التي أخذت ترتكب في هذه البقعة مــن الجراهمــة الذين نكلوا بأولاد إسماعيل –عليه السلام – إلي حد جعــل أولئــك الأولاد يهيمون علي وجوهم إلي اليمين و مناطق أخرى باحثين عن العيش و نجاة مــن الظلم ليس هذا فحسب بل إن الجراهمة أكلوا مال الكعبة " [2]

أدي ذلك كله إلي انزعاج قبيلة خزاعة المجاورة فطفقت تعد العتاد و تحشــد الرجال من أجل إخراج الجراهمة من مكة .

فلما أيقن عمرو بن مضاض الجرهمي أنه لا طاقة له بخزاعة و رجالها عمــد إلي بئر زمزم فأعمق حفرة و أوضع فيها غزالتين ذهبيتين و طمسها ، حتى إذا مــا

١- ابن هشام / سيرة النبي ج ١ ص ١٢٥ ، عبد الرازق الطنطاوي / تاريخ العرب وصدر الإسلام ص ٣٤ .

٢- عبد الله محمد بن عبد الوهاب / مختصر السيرة ص ٩ ، عبد الرازق الطنطاوي / تاريخ العرب وصدر الإسلام ص ٣٤ ، ٣٥

أب ثانية إلي هذه البقعة المشرفة أعاد البئر إلي الرجوع و انتفع بالكنز الذي أودعه فيها.

بيد أن أمانيه تلك غدت سرابا فقد كان خروجه مع قبيلته من مكة خروجا بلا عودة ذلك أن بكر و غبشان من خزاعة أجمعوا لحربهم و إخراجهم من مكة فآذنوهم بالحرب فاقتتلوا فغلبتهم بنو بكر و غبشان فنفوا الجراهمة من هذه البقعة الشريفة .[1]

آل أمر مكة بعد ذلك إلي الخز اعيين الذين ظلوا بها زهاء خمسمائة سنه استأثر بحكم البيت منهم بنو غبشان .
و قد اختلفت الرواة فيما بينهم حول أول من تولي الحكم بمكة من بني غبشان الخز اعيين ، فمنهم من قال إنه عمرو بن لحي ربيعة بني حارثة بن عامر ، ومنهم من قال إنه أبو ربيعة ، وفي بعضها أنه عمرو بن الحارث الغبشاني .

و علي آية حال فإن البيت الحرام ظل بين أيدي الخزاعيين إلي زمن حليل بن حبش بن سلول كعب بن عمرو الخزاعي ، و هو آخر حكامهم بمكة الذي آل البيت بعده إلي قصي بن كلاب الذي أحل قريشا محل خزاعة في هذه البقعة المشرفة " [2]

١- ابن هشام / سيرة النبي / ج ١ ص ١٢٥
٢- ابن هشام / سيرة النبي / ج١ ص ١٣٠، ١٣١ ،، الفاسي / العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين / ج١ ص ١٤٣ ،، عبد المنعم ماجد // ص ٧٨

قريش في مكة :

يعزى الفضل في دخول قريش إلي مكة إلي قصي بن كلاب الذي استطاع بعـد جهد جهيد إخراج خزاعة من مكة و أيلولة كل ما كان في يدها إلي قريـش ، ورجل هذا شأنه و تلك أعماله الجدير أن نلمع بكلمات موجزة إلي ماكان مـن أمره منذ نعومة أظافره حتى فعل ما فعل ليس بسبب ما قام به من عمل فحسب بل لأنه أحد أجداد النبي محمد – صلي الله عليه وسلم –

تذكر المصادر القديمة أن كلاب بن مرة قد بني بفاطمة بنت سعد بن سـيل فأنجب منها زيدا ، فكان ثاني الأبناء بعد زهرة بن كلاب .

لما توفي كلاب قدم ربيعة بن حرام ابن خنتمة بن زيد ، أحد القضاعيين فبـني بها ، و حملها إلي بلادة من أرض عذرة ، من أشراف الشام و معها قصي لصغـر سنه .

فلما شب في تلك الديار شجر بينه و بين أحد أقرابه من قضاعة خلافا فلمـا وصل أمر هذا الخلاف إلي مداه قال له أحد القضـاعيين : ألا تلحـق ببلـدك وقومك فإنك لست منا فرجع قصي إلي أمه فقال : من أبي [illegible] فقالت أبوك ربيعة فقال : لو كنت ابنه ما نفيت له قالت ..أوقد قال هذا ؟ فـو الله ما أحسن الجوار و لا حفظ الحق ، أنت و الله بابني أكرم منه نفسا ووالـدا و نسبا وأشرف منزلا : أبوك كلاب بن مرة كنافة القرش و قومك بمكة عنـد البيت الحرام فما حوله قال : فلو الله لا أقيم هنا أبدا: قالت : فأقم حتى تجـي أيام الحج فتخرج في حجيج العرب فإني أخشى عليك أن يصيبك بعض الناس بمكروه [1].

١- ابن سعد / الطبقات الكبرى / ج١ ص ٦٦ ، ٦٧ ،، الطبرى / تاريخ الأمم و الملوك / ج٢ ص٢٥٥

أمتثل زيد الذي عرف بقصي لبعده عن قومه لنصيحة أمه وسار إلي مكة مع جماعات الحجيج من قضاعة ، وتمكن من العيش في هذه البقعة المشرفة ، وغدا معروفا بين قاطنيها بالجد و حسن الرأي إلي حد أنه تمكن من الإصهار إلي سيد خزاعة في ذلك الوقت خليل بن حبشية الذي أعطاه ابنته حبي " [١]

فلما بني قصي بها و أنجب منها عبد الدار و عبد مناف و عبد العزي و غيرهم أخذ نجمة يرتفع يوما بعد آخر حتي هلك خليل الخزاعي "[٢]

و قد اختلف الرواة فيما بينهم حول ما فعلة خليل بمفتاح البيت قبيل احتضاره ، فمنهم من يقول إنه أسلمه لإ بنته قائلا لها إنك الحق به دون غيرك و منهم من يرى خلاف ذلك فيقول إن خليلا أعطاه ا لأبي غبشان الخزاعي الذي لم يستطع الاحتفاظ به لإدمانه الشراب .

فيقول المؤرخون إنه لما أعوزته الحاجة إلي زق خمر عرض مفتاح الكعبة لقصي مقابل هذا فأخذة قصي و أعطي أبا غبشان زق الخمر" [٣]

و الذي أراه راجحا هنا أن خليل بن حبشية ما كان ليعطي مفتاح الكعبة لغير أبنائه إلا إذا كان لم يعقب بذكر و هذا ما لم تفصح عنه الرواية التي بين

١- ابن سعد/ الطبقات الكبرى / ج١ ص٦٧ ،، رفاعة الطهطاوي / نهاية الإيجار في سيرة المساكن الحجاز / ج١ ص ١٤٩ ، عبد الرازق الطظاوي / تاريخ العرب و صدر الإسلام / ص ٢٧

٢-أبو عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيري (نسب قريش ص ١٤)

٣- ابن سعد / الطبقات الكبرى / ج ١ ص ٦٨ ، عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب / مختصر السيرة الرسول ص ١٠ ، هيكل حياة محمد ص ١١

أيدينا ، وحتى هذا التعليل فإنه مدفوع بوجود قصي زوج ابنته الـــذي أنجـــب الذكور إلي جواره عند وفاته و من ثم كان هو أو زوجة حـــتى أولي بمفتـــاح الكعبة من غيرهما و علي هذا فإني كادا ميل إلي أن مفتاح الكعبـــة قـــد آل إلي قصي بن كلاب كما أشارت إلي ذلك الرواية الأولي التي أوردناها.

و من ثم أرسل قصي إلي أخيه لأمه زواج بن ربيعه مستجيرا به وفعل مثل ذلـــك مع قومه من قريش فأتته جموع الأتباع شارعه الرماح شاهرة السـيوف و دارت إثر انقضاء الأشهر الحرم رحى معركة كبيرة بين الفريقين أريقت فيها الدمـــــاء الغزيرة فلما وجد الفريقان كثرة القتلى بينهم تداعوا الصلـــــح واتفقـــا علـــي الاحتكام إلي يعمر بن عوف بن كعب ابن كنانة فقضى بينهم ." بأن قصي بـــن كلاب أولي بالبيت و أمر مكة من خزاعة ، وأن كل دم أصابه قص بن خزاعـــه وبني بكر موضوع يشدخه تحت قدميه وأن ما أصابت خزاعة وبنو بكر مـــــن قريش وبني كنانة ففيه الدية وأن يخلى بين قصي وبين البيت وأمر مكة فســـمى يومئذ بعمر الشداخ لما شدخ من الدماء .[1]

غدت مكه بعد هذا الحكم مملوكة لقوم قصي الذين عرفوا باسم قريـــــش ، وقد اختلفت الروايات القديمة فيما بينها حول سبب التسمية فمنهم من يعزوهـــا إلى أحد الأولاد الذي كان يتقدم العيرة لبني النضير أثناء رحلة التجـــارة وقـــد جرت العادة أن يتقدم العير عند قدومها إلى القوم من رحلتها فكلما رأوه قـــالوا

١- الطبري / تاريخ الأمم والملوك / ج ٢ ص ٢٥٦ ؛ الفاسي / العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين / ج ١ ص ١٤٦ ، عبد الله بن محمد ابن عبد الوهاب / مختصر سيرة الرسول ص ١٠

جاءت عير قريش ولأن قوم قصي من التجار . فقد غلبت عليهم هذه التسمية فعرفوا بالقرشيين نسبة إلى الدليل الذي كان يسمى بهذا الاسم .[١]

ومنهم من يقول إن هذه التسمية تعني التجمع وقد حقت عليهم بعد جمع قصي لهم في مكة بعد تفرق طال زمانه عليهم .

وآخرون يرون أن هذه التسمية أطلقت عليهم نسبة إلى سمك القرش كناية إلى أن هؤلاء الناس سيبتلعون كل من حولهم وتكون لهم السيادة .[٢]

و هناك روايات أخرى أضر بنا عنها صفحا لضيق المقام هنا ، أو لأن ، الذي أوردناه هو الراجح و ما تركناه مرجوح .

و لما صار قصي صاحب الحول و الطول في مكة أبقى على ما كان للعربي من وظائف فيها ، كتلك التي كانت لبني صفوان و بني عرف اعتقادا منه أن ذلك الأمر دينا في عنقه لا يجوز له عدم الوفاء به "[٣]

و قسم مكه أرباعا بين عشائر قومه لما ضاقت بهم الأرض فقام بقطع الأشجار حول البيت الحرام و أسكنهم و قد كانوا من قبل يهابون ذلك .[٤]

٢- الطبري / تاريخ الأمم والملوك / ج ٢ ص ٢٦٣ ، ٢٦٤

١- ابن هشام / سيرة النبي / ج ١ ص ١٠٣ ، ابن سعد / الطبقات الكبرى / ج١ ص ٦٩ ، الشامي / تاريخ العرب والإسلام ص ١٠٠

٢- ابن هشام / سيرة النبي / ج ١ ص ١٣٧ ، ابن عبد الوهاب / مختصر سيرة الرسول ص ١٠ .

٣- ابن عبد الوهاب / مختصر سيرة الرسول / ص ١٠ ، الطهطاوي / نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز / ج ١ ص ١٥٠ .

و من أهم أعمال قصي بمكة إنشاؤه لقومه دار الندوة و جعل بابها إلي الكعبة و كانت هذه الدار مقرا لاجتماعات أولي الأمر من قريش ، فمنها كانت تخرج القوافل ، وبها كان يحتفل بختان الغلام ، و دروع الجواري اللائى بلغن ، وفيها كان يعقد لواء الحرب ، والجملة كانت هذه الدار مكانا للحكم يجلس فيه قصي فإذا ما قال قولا كان فيهم دينا واجب الطاعة " [١]

و قد سميت هذه الدار بهذا الاسم لكونها ملتقى القوم و مجمعهم ؛ إذا الندى مجمع القوم و إذا اجتمعوا في المكان ثم عادوا منه "[٢]

و لم يكن اجتماع القوم بهذه الدار يخلو عن شرط يجب توافره في المجتمعين فقد حذر علي كل من هو دون الأربعين من العمر الاجتماع بها للنظر في أحوال قومه الأمر الذي يد لنا بلا ريب علي ما كان لهذه الدار من شأن في ذلك الوقت. [٣]

و قد ذكر أحد الباحثين المحدثين أن هذه الدار التي أنشأها قصي و جعلها أبرز معالم النظام و الحكم في المجتمع القرشي الجديد لم تكن بدعه ابتدعها قصي فإن لها نظيرا في المجتمع الآثيني نرى ذلك جليا في قولة (و دار الندوة في مكة تشبه

١- ابن هشام / سيرة النبي / ج ١ - ص ١٣٧ ، عبد الحليم محمود / دلائل معجزات النبوة / ص ٥٦ ، أحمد إبراهيم الشريف / دور الحجاز في الحياة السياسية العامة / ص ١٨ ، ١٩

٢-ابن سعد " الطبقات الكبرى ج ١ ص ٧:

عبد الحليم محمود " دلائل النبوة ومعجزات الرسول " ص ٥٧

٣- عبد العزيز غنيم / فلسفة السيرة ص ٢٩ .

الإكليزيا في أثينا إلا أن الملأ المكي كان أكثر تعقلا و شعورا بالمسئولية من الإكليزيا اليونانية و أقل تأثيرا بالانفعالات العاطفية ذلك لأن الملأ يتكون من رؤساء العشائر و أولي الرأي و الحكمة فيها، و علي حين كان الآثنيون في الإكليزيا كل رجل أمين مستقيم كان أهل مكة حريصين علي أن يكون للشخص مهارته العملية و قدرته علي القيادة . و إنشاء دار الندوة و تخصيصها لهذه الوظيفة يعتبر بداية لمرحلة جديدة تبلورت فيا النظم القبلية القديمة) [1]

علي الرغم من وجود الشبه المذكور الإكليزيا و دار الندوة فإن الذي لا سبيل إلي الشك في رأينا هو أن قصي بن كلاب عندما أنشأ لقومه دار الندوة لم يكن علي علم بالاكليزيا و نظامها و أن هذه الدار أنشأت لجميع شمل العشائر فيها بقصد التشاور في الأمور الهامة و اجتماعهم فيها عند الملمات لا يجعل فضلا لأحد علي أحد إذ هي بهذه الصورة تعد ملكا للجميع و من ثم فإن أحد المشاجرين لا يجد في إتيالها شيئا يشينه أو يوحي إليه بنصرة خصمه عليه .

و علي أية حال فإن دار الندوة بقيت إلي زمن معاوية [2] فصارت هذه الدار " من لبني عبد الدار بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى ابن قصي فباعها

١- أحمد إبراهيم الشريف / دور الحجاز في الحياة السياسية العامة ص ١٩ .

٢- صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس القرشي الأموي ، أبو عبد الرحمن أمه هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، أسلم هو وأبوه يوم فتح مكةة ، قربه الرسول وضمه إلى كتاب الوحي ، استخلفه أبو بكر على دمشق بعد موت يزيد بن أبي سفيان ، توفي في دمشق ودفن بها في رجب سنة ٦٠ هـ .

في الإسلام بمائة ألف درهم و ذلك في زمن معاوية فلامة معاوية علي ذلك و قال : بعت مكرمة آبائك فقال حكيم : ذهبت المكارم إلا التقوى ، و الله لقد اشتريتها في الجاهلية بزق خمر و بعتها بمائه ألف درهم و أشهدكم أن ثمنها في سبيل الله فأينا المغبون ؟[1]

و قد اهتم قصي بن كلاب بكل ما من شأنه تخفيف عناء الحياة عن قومه فحفر لهم الآبار و عشر التجار من غير أهل مكة إذا مروا بها فجني من ذلك أموالا طائلة .[2]

علي أن قص صرف جل عنايته للنهوض بالرفادة و السقاية لارتباطهما بجماعات الحجيج الوافدة في كل عام .

أما الرفادة فقد كانت معروفة من قبل قصي ذلك أن عمرو بن لحي الخزاعي كان يقوم بهذا الواجب الإنساني في يومي عرفات و مني علي أساس الحجاج ضيوف الله في بيته المحرم ، وربما وصلت ذبائح عمرو ابن لحي في بعض الأيام عشرة آلاف بدنه ، ليطعم بها العرب ، و يحيس لهم الحيس بالسمن و العسل و يلت لهم السويق .[3]

فلما جاء قصي عمد إلي ضمان استمرارها فسن سنه مشاركة القوم لرئيسهم فيها فوقف في قومه قائلا لهم (يا معشر قريش إنكم جيران الله و أهل بيته وهم أحق الضيف بالكرامة فاجعلوا لهم طعاما و شرابا أيام الحج حتى يصدروا

- الطبري / تاريخ الأمم والملوك / ج ١ ص ١٨٠ ، المسعودي / مروج الذهب / ج ٢ ص ٤٢ .

١- عبد الله بن عبد الوهاب / مختصر سيرة الرسول ص ١١

٢- ابن سعد / الطبقات الكبرى / ج ١ ص ٧ ، الشامي / تاريخ العرب والإسلام / ص ١٠٢ .

٣- الشامي / تاريخ العرب والإسلام / ص ١٠٣ .

عنكم) ففعلوا فكانوا يخرجون ذلك كل عام من أموالهم خرجا يترافدون ذلك فيدفعونه إليه فيصنع الطعام للناس أيام منى بمكة .[١]
و ظلت الرفادة قائمة حتى جاء الإسلام فعمل علي استمرارها في موسم الحج كل عام .[٢]

أما السقايه فإن قصيا عمد إلي إقامة أحواض عند الكعبة يحمل إليها الماء علي الجمال و يوضع بها ليصيب الحجيج منه كلما أعوزهم الظمأ .[٣]

و يذكر" ابن كثير أن السقاية لما آلت إلي أبي طالب فاتفق أنه لم يستطع القيام بها في بعض السنين لإملاق ألم به فاستدان من أخيه العباس[٤] عشرة آلاف إلي الموسم الآخر و صرفها أبو طالب في الحجيج في عامة فيما يتعلق بالسقاية فلما كان العام المقبل لم يكن مع أبي طالب شئ فقال لأخيه العباس أسلفني أربعة عشرا ألفا أيضا إلي العام المقبل أعطيك جميع ما لك فقال له العباس : بشرط إن لم تعطني تترك السقاية لي اكفكها فقال : نعم فلما جاء العام الآخر لم يكن مع أبي طالب ما يعطي العباس فترك له السقاية فصارت إليه ثم بعده صارت إلي عبد الله ولده ثم إلي عقبه من بعده .[٥]

٤- ابن سعد / الطبقات الكبرى ج ١ ص ٧٣ ، الطبري / تاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ٢٦٠ ، رقاعة الطهطاوي / نهاية الايجاز في سيرة ساكن الحجاز / ج ١ ص ١٥٠

١- ابن هشام / سيرة النبي / ج ١ ص ١٤٢ .

٢- ابن سعد / الطبقات الكبرى / ج ١ ص ٧٣

٣- ابن هشام بن عبد مناف ، أبو الفضل ، من أكابر قريش أسلم قبل الهجرة وكتم إسلامه وأقام بمكة يكتب لرسول الله أخبار المشركين ، شهد وقعة حنين وكان من ثبت حين انهزم الناس ، توفي بالمدينة يوم الجمعة الثاني عشر من رجب سنة ٣٢ هـ (الطبري / تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ، ص ٣٠٧ ، ابن العماد الحنبلي / شذرات الذهب ج ١ ص ٣٨)

٤- البداية والنهاية ج ٢ ص ٢٤٧ ، ٢٤٨

و يعزو بعض الباحثين هذا الإملاق الشديد الذي ألم بأبي طالب إلي الزيـــادة المطردة في عدد الحجيج نتيجة العامل الديني و التجارة معا بعـــد الضعــف و التدهور الاقتصادي و السياسي و الديني الذي أصاب مدن الجنوب .[١]

و قد نالت قريش المكانة الأدبية من بين العرب لعنايتها بالسقاية ناهيك عـــن الربح المادي الذي لا محالة حاصل إذا قام الحجيج مده في مكة و غيرهـــا مـــن مناطق الحج و لن يكون ذلك إلا إذا وجدوا الماء موفرا لهم ، و من ثم حـــرص زعماء قريش كابرا بعد كابر علي استمرار العناية بالسقاية .[٢]

و لكى يسهل علي الحجيج الوصول إلي المزدلفة و الوقوف بها أمـــر قصـــي بإيقاد نار تري من بعيد لارشاد الحجيج إلي المزدلفة بعد إفاضتهم من عرفـــات .[٣]

و كانت بيدى قصي وظائف أخري مثل اللواء و حجابة الكعبة ، ونعني بهـــا الإمساك بمفاتيح البيت بحيث لا يفتح إلا بإذنه في الأيام التي اعتادوا فتحها فيـــه أو عند حدوث مناسبة تقضي ذلك .[٤]

١- الشامي/ تاريخ العرب والإسلام / ص ١٠٣

٢- احمد إبراهيم الشريف / دور الحجاز في الحياة السياسية / ص ٢٨

٣-الفاسي / العقد الثمين في تاريخ الملد الأمين / ج ١ ص ٤٦ ، ١٤٧ .

٤- الشامي/ تاريخ العرب والإسلام / ص ١٠٣ ، ص ١٠٤

و على الرغم من هذه الأعمال الجليلة التي قام بها قصي فقد ذهب بعض المستشرقين إلي إنكار وجود شخصيته وعدوها واحدة من عشرات الأساطير الشائعة عند العرب و بحرروا ذلك بأن ما روي عنه من الاغتراب عن مكة ثم العودة إليها و الإصهار لسيد خزاعة و توطينه لقريش في مكة بعد إخراج خزاعة منها أمر لا يتيسر لفرد واحد تحقيقه في هذا الوقت القصير .

و قد انبرى أ.د/ عبد العزيز غنيم لمناقشة هذه الأدلة فقال: " وواضح أن كلا هذين الدليلين لا يساوي ثمن أوراقه المكتوب عليه فما صنعة قصي بمكة
لا يعدوا المألوف مما يفعله شيوخ القبائل و زعماء البيوتات الكبيرة فيها ، وما روي في أمر اغترابه و عودته إلي بلادة و ديار آبائه و أجداده مما لا تنكره العادة و لا يأباه الإلف و العرف ، وقد روى مثل ذلك عبد المطلب بن هشام ، وهو شخصية ليس إلي الشك فيها من سبيل .
لست أدري كيف صاغ لهؤلاء الكتاب أن ينكروا شخصية قصي . و قد أجمعت الروايات العربية علي وجودها و ليس العهد بينها و بين الإسلام من البعد بحيث يمكن التشكيك فيها . أضف إلي هذا و ذلك ما للعرب من العناية بحفظ أنسابهم ثم إلي من ينتسب عبد مناف إذا لم يعز إلي قصي و إلي من تضاف دار الندوة التي بقيت في مكة حتى أواخر العصر العباسي الأول ؟» [١]

قريش بعد قصي :

ظل قصي في مكة حتى طعن في السن ورق عظمة و لما أحس بدنو أجله فكر أول ما فكر فيما سيكون في مكة من بعده و هنا تختلف الروايات التي ذكرتها المصادر القديمة . فمنها من يقول إن قصيا عهد إلي كبير أبنائه عبد الدار الذي

---

١ - فلسفة السيرة / ص ٢٣ .

كان ضعيفا بكل الوظائف التي دان له بها القوم فيروي الطبري أن قصيا استدعي عبد الدار و قال له (أما و الله لألحقنك بالقوم ، و إن كان قد شرفوا عليك ، لا يدخل رجل منهم حتى تكون أنت تفتحها ، و لا يعقد لقريش لواء حربهم إلا أنت بيدك ، و لا يشرب رجل بمكة ماء إلا ما سقيتك ، و لا يأكل أحد من أهل الموسم إلا طعاما من طعامك ، و لا تقطع قريش أمورها إلا في دراك) .[1] و منها من يقول إن قصيا قسم الوظائف بين بنيه فأعطي ابنه عبد مناف السقاية و الندوة و أعطي عبد الدار الحجابة و اللواء و أعطي عبد العزى الرفادة و أيام منى .[2]..

و الذى تكاد النفس تسكن إليه أن الرواية الأولي راجحة و الثانية مرجوحة ، ذلك أن قصيا رأي أن ابنيه الآخرين يملكان من الوسائل ما يحقق لهما ما يريد إن الوصول إليه لما تميز ا به من الهمة و العمل في التجارة ، و هذا لم يتوفر لعبد الدار ، الذي كأنه كما تقول الروايات ضعيفا لا يمكنه العمل كأخويه .

و سواء صح هذا لم يصح فإن بني عبد مناف نازعوا بني عبد الدار في الوظائف التي تركها لهم قصي و راح كل فريق منها يعقد الأحلاف[3] فتقول المصادر إن بني عبد مناف أتوا بإناء فيه طيب ووضعوا هم و حلفائهم الأيدي ثم مسحوها في الكعبة ؛ توكيدا للميثاق الذي أبرموه ، و القاضي بالدفاع عن حقهم في الوظائف مهما تكلف ذلك من دماء تراق في هذا السبيل .

١- تاريخ الأمم والملوك / ج ٢ ص ٢٥٩ ، ٢٦٠

٢- الفاسي / العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين / ج ١ ص ١٤٨ .

١- ابن سعد / الطبقات الكبرى / ج ١ ص ٧٧

و علي غرار ذلك فعل بنو عبد الدار مع حلفائهم فأتوا بجفنه ممتلئة بالدمـــاء ووضعوا فيها الأيدي مع حلفائهم ، وأقسموا علي الوفاء بحلفهم ما داموا أحياء ، و أن عليهم الذب عن الإرث الذي تركه أبوهم لهـــم ، و غـــدت الرمـــاح مشرعة ، والسيوف مشهرة ، حتى كادت المعركة تنشب بين الفريقين ، ولـــولا سعي الساعيين بالخير بينهما فاتفقوا علي أن يعطوا بني عبد مناف الســـقاية و الرفادة ، وأن تبقي الحجابة و اللواء و الندوة لبني عبد الدار ، و رضي الفريقـان بذلك وظل الأمر عليه إلي أن جاء الإسلام " [١]

هاشم في قريش :

بعد أن فرغنا من الحديث عن قصي بوصفة أحد أجداد النبي محمد -صلـــي الله عليه و سلم – نولي وجهنا شطر الحديث عن جد آخر كان له علـــي قريـــش الأيادي البيضاء ، إنه عمرو العلي بن عبد مناف الذي اهتم بحياة قومه فوثق لهم العري بالملوك المجاورين ، بقصد تأمين قوافلهم التجارية لتجني قريش منها الربح الكبير ، فيقال إنه اتصل بصاحب أنقرة [٢]، و قيصر الروم ، و كسري فـــارس ، و أمراء الغساسنة ، و المناذرة ، وحصل منهم على اتفاقيات تســـمح بدخـــول تجارة قريش إلي أراضيهم ، محملة بالبضائع لبيعها ، ثم حمل بضائع تلك البـــلاد إلي مكة و غيرها من المناطق التي تحتاج إليها .

١- ابن هشام / سيرة النبي ج ١ ص ١٤٤ ، هيكل / حياة محمد / ص ١١٢ ، عبد الرازق الطنطاوي / تاريخ العرب وصدر الإسلام / ص ٤١

٢- تعرف في المصادر العربية باسم أنقورية ، تقع على نهر ساقرية في موقع متوسط على هضبة الأناضول ، فتحها المعتصم وهي عاصمة الجمهورية التركية .(أحمد عطية الله " القاموس الإسلامي " ج ١ ص ٢٠٣ ، عبد السلام الترياني / أزمنة التاريخ الإسلامي / م ٢ ق ٤ ص ١٠٢١

و عمرو هو صاحب إيلاف قريش و مؤمن الرحلتين رحلة الشتاء و الصيف .[١]

و قد عم كرم عمرو الظاعن إلي مكة للحجيج ، و المقيم بها علي حد سـواء ، فيقال إنه اهتم بالسقاية اهتماما كبيرا فقد ذاد من حياض الأدم الممتلئة بالماء ، لسد حاجة الحجيج ، و كان كل واحد من القرشيين ذوي اليسار يعطيه مائـة مثقال هرقلية، و كان يطعم الحجيج قبل التروية بيوم في مكة و كذلك في عرفـة و منى .

و أما إكرامه للمقيمين بها فتذكر المصادر القديمة عنه أنه لما حلـت بقريـش مجاعة شديدة في أحد أعوامها توجه عمرو إلي الشام ، و أحضر منها إلي مكـة عيرا محملة بغرائر الخبز فقام بتهشيمه و غمره بحساء للحم فسمي حينئذ بهاشـم [٢]

و قد مدحه الشعراء علي ذلك فقال وهب بن عبد قصي :

تحمل هاشم ماضأق عنه **** و أعيا أنة يقوم به ابن أبيض

أتاهم بالغرائز متأقات [٣] **** من ارض الشام بالبر النفيض

فأوسع أهل مكة من هشيم **** و شاب الخبز باللحم الغريض [٤]

١- الطبري / تاريخ الأمم والملوك / ج ٢ ص ٢٥٢ ، عبد الحليم محمود / دلائل النبوة ومعجزات الرسول / ص ٥٩ ، خليل ياسين / محمد عند علماء الغرب / ص ١٢ .

٢- ابن سعد / الطبقات الكبرى / ج ١ ص ٧٥ ، ٧٦

٣- بمعنى شبه التباكي إليه لطول غيبة الشيء ، يقول قدم فلان علينا فامتأقنا إليه – ابن منظور / لسان العرب / مادة مأق ص ٤١٢٠ .

٤- الطري من اللحم والماء واللبن والتمر يقال أطعمنا لحما غريضا أي طريا

فظل القوم بين مكللات من **** الشيزى[1] حائرها يفيض[2]

(الوافر)

و من الروايات التي ذكرها المؤرخون القدامى عن هاشم أنه كـــان و عبـــد شمس توأمين ، و أنهما ولدا و أصبع أحدهما ملتصق بجبهة الآخر ، و لم ينفصـــل إلا بجراحة سال فيها الدم من التوأمين ، فتطير الناس من ذلك ، وزعمت الرواية أن هذا يفسر ما كان بين الفرعين من التنافس .

ثم تذكر الرواية أن أميه طلب من هاشم التنافر ، فأبي الأخير ذلك لكبر ســنة إلا أن القوم ظلوا به حتى جعلوه يقبل ، فقال لعبد شمس : " أنا فـــرك علـــي خمسين ناقة سوء الحدق ، تنحرها ببطن مكة ، و الجلاء عن مكة عشر ســنين ، فرضي بذلك أمية و جعلا بينهما الكاهن الخزاعي فنصر هاشما علي عبد شمس ، فأخذ هاشم الإبل فنحرها و أطعمها من حضرة ، وخرج أمية إلي الشام ، فأقـام بها عشر سنين فكانت هذه أول عداوة وقعت بين هاشم و أمية .[3]

لم ترتض أحد المؤرخين الأخذ بهذه الرواية فانبري لإبطالها و إظهار انتحـــال الرواة لها فقال : نحن لا نستريح إلي هذه الرواية لا لوهن سندها و إغفال بعـض كتاب السير لها و حسب ؛ و لكن لأمور أخري منها أن هاشما قد مات و هـــو

- ابن منظور / لسان العرب / مادة غرض / ص ٣٢٤١ .

١ - شجر تعمل منه القصاع والجفان وقيل هو شجر الجور والقصاع المصنعة منه تسود من الدسم .

- ابن منظور / لسان العرب / مادة شيز / ص ٢٣٧٥

٢ - الطبري / تاريخ الأمم والملوك / ج ٢ ص ٢٥٣ .

٣ - ابن سعد / الطبقات الكبرى / ج ١ ص ٧٦ ، الطبري / تاريخ الأمم والملوك / ج ١ ص ٢٥٢ .

بين العشرين و الخامسة و العشرين من عمره ، و قد كان أبوة و عبـــد شمـــس توأمين ففي أيّ سن إذا نازعة ابن أخيه) إنه مهما تســـامحنا في تقديـــر ســـنه فسوف لا يزيد عن إثني عشرا عاما و ليس مما تسمح به التقاليد أن ينافر طفـــل في هذه السن المبكرة عمه ..

و منها أن الحكم قد قضي بتغريب المغلوب عن وطنه عشر سنين ، و ليـــس من المعقول أن يخرج أميه و هو في هذا السن ليعيش وحيدا في هذه المدة الطويلة بأرض الشام ، و لو فرض و أن أمية دعي عمة إلي المنافرة لكان العقل و العرف يقضيان بتأديبه لا بمنافراته ."[1]

و الذي نراه أن هذه الأدلة التي ساقها الأستاذ الكبير / تقضي بـــلا ريـــب ببطلان هذه الرواية ، و يلوح لنا أن الطبري و هو المؤرخ الكبير قد تشـــكك في صحتها فذكر عند بداية حديثة عنها : (و قيل إن عبد شمس و هاشما توأمـــان) فعبارته تلك تشير إلي وهن سند تلك الرواية ، لذا لم ينسبها لقائلها علي الرغـــم من إسناد ابن سعد إياها لوهب بن قصي .

و علي أية حال فإن هاشما ظل بين قريش ، يقدم لها ما وسعة من الجـــهد إلي أن توفي بغزة ، فآلت الوظائف التي كانت بيده إلي أخيه المطلب بن عبد منـــاف و كان أصغر من عبد شمس و هاشم بن ، و كان ذا شرف في قومـــه و فضـــل ، وكانت قريش إنما تسمية الفيض لسماحته و فضله [2].

عبد المطلب في قريش :

١- أ .د عبد العزيز غنيم / فلسفة السيرة / ص ٣٣ ، ٣٤

٢- ابن هشام / سيرة النبي / ج١ ص ١٤٧ –١٤٨ عبد السلام القرياتني / أزمنة التاريخ الإسلامي م١ ج٤ /ص ١٠٦٨

ذكرت المصادر القديمة أن هاشم بن عبد مناف أثناء إحدى رحلاته التجارية إلي الشام عرج علي المدينة المنورة ، و نزل علي عمرو بن زيد بن البيد بن الحرام ابن خداش ابن جندب بن عدي بن النجار فرأي ابنته سلمي التي كانت من قبل زوجا لاحيحة بن الجلاح [1] ، فولدت له عمرو بن أحيحة ، فتقدم هاشم لخطبتها من أبيها الذي أجابه إلي هذا علي ألا تضع مولودا لها خارج قومها ، ثم مضي هاشم إلي الشام ، فلما آب منها أناخ رحالة بالمدينة ، و بني بزوجة سلمي التي سارت معه إلي مكة فلما ثقلت عادت إلي قومها ، فولدت فيهم شيبة الحد ، المعروف بعبد المطلب ، و قيل إنه ما سمي بهذا الاسم إلا لشيب ولد به في رأسه .

ظل شيبة في بني النجار بعد وفاة أبيه هاشم حتى بلغ من العمر زهاء سبعة أعوام أو ثمانية [2] عاد بعدها إلي مكة .

و هنا تختلف الروايات فيما بينما فمنها ما يقول عبد المطلب ما توجه إلي المدينة لأخذ ابن أخيه إلا بعد ما علمه من نجابته و فتوته و قرب شبهة بأخيه هاشم

١- سيد الأوس في الجاهلية ، كثير المال شحيحا على زوجه ، يبيع مبيع الربا بالمدينة حتى كان يحيط بأموالهم وكانت له تسعة وتسعون بئرا كلها ينضح عليها

- أبو الفرج الأصفهاني / الأغاني / ج ١٥ ص ٤٩ ، على محمد البجاوي وآخران / أيام العرب في الجاهلية / ص ٢٤٦ ، حاشية رقم (٣)

٢- البلاذري / انساب الأشراف / ج١ ص ٦٤ ، أبو الفرج الأصفهاني / الأغاني / ج ١٥ ص ٤٩ ، ابن كثير / البداية والنهاية / ج ٢ ص ٢٥٣

و فيها ما يقول عبد المطلب اشتاق إلي رؤية ابن أخيه فتوجه إلي المدينة و سـر به حين رآه فطلب منه القدوم إلي مكة فاستجاب لمشيبة .
و تختلف كذلك الروايات فيما بينهما حول موقف سلمي من مجيء المطلب إلي المدينة . لأخذ ابن أخيه فبعضها يقول إن المطلب أردف شيبة خلفه و سار بـه خفية دون علم أمه و لم يتعرض له أحد من بني النجار لعلمهم أنه عم له .

و بعضها يقول : إن سلمي حين علمت بمجيء المطلب في المدينة طالبا أخذ ابن أخيه ، أبت إجابته إلي ما طلب فقال لها " لا تفعلي فإني غير منصرف حتى أخرج به معي ، ابن أخي قد بلغ ، و هو غريب في غير قومه ، ونحن أهل بيت شرف ، قومنا، و المقام ببلدة خير له من المقام هنا ، و هو ابنك حيث كان) [1]

و مهما يكن من أمر فإن الروايات تجمع علي أخذ المطلب لشيبة من المدينة ، و التوجه به إلي مكة ، وأن الناس لما رأوا شيبة راكبا خلفه سألوا المطلب عنه ،فقال هذا عبدي ، و ألبسه المطلب حلة من عنده ، و توجه بها إلي بني عبد مناف فعرفه بينهم منذ ذاك الوقت بعبد المطلب " [2]

و إن كان لنا أن نرجح رواية علي أخري فإننا نكاد نميل إلي صحة الرواية التي تقول بعلم المطلب بما عليه شيبه من صفات بذبها أقرانه من بني النجار ، و من ثم تاق لرؤياه و إحضاره إلي مكة ، وكذلك ما قالته بعض الروايات من محاورة المطلب لسلمي ، ذلك أن الرواية التي تقول بأخذ المطلب لابن أخيه

١- ابن سعد / الطبقات الكبرى / ج١ ص ٨٢ ، البلاذري / أنساب الأشراف ج ١ ص ٩٤ ، ٩٥ ، الطبري / تاريخ الأمم / ج ٢ ص ٢٤٧ .
٢- ابن سعد / الطبقات الكبرى / ج ١ ص ٨٢ ، ابن كثير / البداية والنهاية / ج ٢ ص ٢٥٣ .

خفية ، تنبؤنا أنه سار ليلا من مكة ، و ما إن وصل إلي المدينة حتي عاد من توه بابن أخيه إلي مكة ، فوصلها في وقت الضحى .

و المرء لا يكاد يتصور ذهاب الرجل و إيابه في ليلة واحدة دون أن ينال قسطا من الراحة ، ناهيك عن كون الرواية لم تذكر لنا عما إذا كان قد سار آخرون معه أم لا .

و أمر آخر لا سبيل إلي إغفاله هو أن المصادر القديمة قد أجمعت علي ما كانت عليه سلمي من الشرف ، إلي حد أن بعضها قال إنها ترفعت عن نكاح الرجا ل ، و أنها ما قبلت ذلك منهم إلا علي اشتراط العصمة لها ، فأمراه هذا شأنها في قومها ، وعشيرتها ، لا يتصور أخذ المطلب لابن أخيه خفيه منهم ، أو علي سبيل موافقه بعض رجال العشيرة له دون علم سلمي ؛ لأن هذا يتنافي مع القوة التي عرفت عن تلك المرأة و عن أبيها .

ومهما يكن من أمر فإن عبد المطلب ورث عن عمه المطلب الوظائف التي كانت بيده إثر وفاته بردمان[1] في اليمن[2] . فغدا صاحب السقاية و الرفادة .
و تجمع المصادر القديمة علي أن عبد المطلب قد أفاض من كرمة الكثير و الكثير علي قومه ، و أن هذا قد تعدي الإنسان إلي الوحوش و الطير. كما عرف بين قومه بسماحة الأخلاق ، وعفة النفس ، و كرة الزنا ، و مخالطة القتلة ، و شرب الخمر ، و عبادة الأصنام ، و نذكر عنه أنه كلما جاء شهر رمضان لجأ

١- لم نقف على تحديد دقيق لهذا الموضع من خلال كتب البلدان وكل ما ذكره ابن عبد الحق – أن هذه البلدة موضع باليمن – مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع / ج ٢ ص ٦١٢ .
٢- ابن هشام / سيرة النبي / ج ١ ص ١٤٩ .

إلى غار حراء متحنثا فيه ، و أنه كان يكثر من إطعامه للمساكين في هذا الشهر حتى لقبه قومه بإبراهيم الثاني ." [1]

و على أن أهم أعمال عبد المطلب بعثه بئر زمزم إلى الوجود بعدما فعله بها زعيم الجراهمة كما أسلفت .

و ذكر البلاذري أن عبد المطلب لما هم بحفر زمزم كان يبلغ من العمر أربعين عاما [2] و عزت المصادر القديمة فعل عبد المطلب إلى رؤيا رآها في نومة أمر فيها بحفر هذا البئر من قبل هاتف هتف به قائلا له (احفر طيبة قال: قلت: ما طيبة ؟ قال : ثم ذهب عني فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه فجاءني فقال: احفر برة قال : فقلت: و ما برة ؟ قال ثم ذهب عني ، فلما كان الغد ذهب رجعت إلى مضجعي فنمت فيه فجاءني ، فقال : احفر المضمونة ، قال فقلت : و ما المضنونة ؟ ثم ذهب عني ، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه فجاءني ، فقال : احفر زمزم : قلت و ما زمزم ؟ قال لا تنزف أبدا و لا تذم ، تسقي الحجيج الأعظم بين الفرث و الدم عند نقره الغراب الأعصم عند قرية النمل " [3]

غدا عبد المطلب بعد هذه الرؤيا التي تكررت عليه إلى المكان الذي ذكر له في رؤياه ، فطفق يحفر هو وابنه الحارث فأنكرت قريش عليه ذلك ، وكادوا

١ - عبد الله بن عبد الوهاب / مختصر سيرة الرسول / ص ٧ ، ١٣

عبد الرازق الطنطاوي / تاريخ العرب وصدر الإسلام / خليل ياسين / محمد عند علماء الغرب / ص ١١ ، ١٢

٢ - البلاذري / أنساب الأشراف / ج١ ص ٧٨

٣ - ابن هشام / سيرة النبي / ج ١ ص ١٥٤ ، ١٥٥

يمنعوهما ، إلا أن عبد المطلب تمكن بعد رأى من إقناع القوم بأن يجعلوه يواصل الحفر هو وابنه عليهما يجدا هذا الماء .

فلما تراءت لعبد المطلب تباشير وجود المياه كبر لما رأى وصار أمـــر زمـــزم واقعا بعد ما كان الحصول عليه بالأمس ضربا من الخيال، ومن ثم هم قومه إليه، ونازعوه ملكيتها، وأرادوا مقاسمته فى الغز التين الذهبيتين اللتين وجدهما فيـــها، وكذا السيوف والدروع فلما أبى إجابتهم إلى ما طلبوه منه حكم بعض عقـــلاء القوم بتوجه الجميع إلى كاهن يحكم بينهم فى هذه القضية [1]

فساروا إليه وكانوا نحوا من أربعين رجلا، وبينما هم يقطعون الصحراء إذا بماء القوم ينفذ ويذكر ابن سعد أن الجميع أيقنوا أن الموت لا محالة نازل بهم حـــتى أنهم أعدوا حفرة لأنفسهم يلقى فيها الحي من يموت ، واحدا إثر آخر، حـــتى يموت أخرهم ، فدعاهم عبد المطلب إلى مواصلة السير دون استسلام لليـــأس و بينما هم يسيرون إذا بالماء يتفجر من تحت راحلة عبد المطلـــب، فدعـــاهم إلى الشرب منه فشربوا وسقوا إبلهم ثم قالوا له (قد قضى لك علينا، الذى ســـقاك هذا الماء بهذه الفلاة هو الذى سقاك زمزم، فوالله لا نخـــاصمك أبـــدا فرجـــع ورجعوا معه و لم يصلوا إلى الكاهن ، وخلوا بينه وبين زمزم)[2]

ولسنا نشك فى صحة الرواية التى ذكرها ابن سعد، لأنها لم تخرج من دائـــرة الإمكان إلى الاستحالة بل إننا نجزم بأن ما حدث لعبد المطلب مـــن كرامـــة لا يعدوا عن كونه أحد الإرهاصات التى أخذت تطرأ قبيل مجئ النبي محمد صلـــى الله عليه و سلم

١- ابن كثير / البداية والنهاية / ج ٢ ص ٢٤٥ ، التاجي / سيرة النبي العربي ج١ ص ٤٠ عبد الحليم محمود / دلائل النبوة ومعجزات الرسول / ص ٦٦

٢- الطبقات الكبرى / ج ١ ص ٨٤

وعلى أية حال فإن عبد المطلب لما عاد إلى مكــة عمــد إلى أبــواب الكعبــة فصفحها بصفائح الذهب الذى وجده فى زمزم، وقد من الله عليه بعشـرة أولاد، من بينهم عبد الله – والد النبي – الذي نتناوله بالحديث.

عبد الله فى قريش

ذكر البلاذرى أن عبد المطلب هم إلى الوفاء بنذره بعد أن بلغ من العمر سبعين عاما.[1]

و لم يكن عبد الله معينا للوفاء بالنذر فإن هذا الأمر يشــمل جميــع الأبنــاء وتحقيقا للعدالة فإن عبد المطلب عمد إلى اقتراع بين الأبناء فإذا مــا أصــابت القرعة أحدهم كان عليه الامتثال لفعل أبيه حتى يوفى نذره .

ولما أصابت القرعة عبد الله جزع عبد المطلب جزعا شديدا ، ففوق أنه كـان أصغر الاخوة فإنه كان يمتاز بوجه وضاء ، وخلق طيب ، حتى غــدا محبوبــا للكافة .

ولما هم عبد المطلب بعبد الله ليذبحه وفاء بنذره ، تجمعت قريش وحالوا بينــه وبين ما أراد .[2]

---

١ – أنساب الأشراف / ج ١ ص ٧٨ .

٢ – الطبري / تاريخ الأمم والملوك / ج ٢ ص ٢٣٤ . التاجي / سيرة النبي العربي / ج ١ ص ٤٥

وهنا تذكر بعض الروايات أن الرجل الذى اجتذب عبد الله من بين يدي عبد المطلب العباس ، فيذكر يونس بن بكير عن ابن إسحاق أن العباس هو الذى اجتذب عبد الله من تحت رجل أبيه حين وضعها عليه ليذبحه ، فيقال أنه شج وجهه شجا لم يزل فيه إلى أن مات .[1]

وقد اختلفت الروايات فيما بينها حول ما إذا كان عبد المطلب قد توجه إلى الكاهنة لتحكم فى أمر نذره هذا أم لا . فمنها من يقول إن قريشا أشارت عليه إرجاء ذبح ابنه حتى يتوجه إلى كاهنة عينوها له فسار إليها .فلما وصل خيبر[2] حيث تقيم الكاهنة أرجأتهم يوما ثم قالت لهم فى اليوم التالي (كم الدية فيكم ؟ قالوا عشرة من الإبل) فقالت لهم أخرجوا عشرة من الإبل واضربوا القداح عليها هى وعبد الله فكلما أصابت القداح ابنكم فزيدوا عشرة.

رجع عبد المطلب إلى مكة وقال ما أشارت به الكاهنة حتى أصابت القداح الإبل بعد أن بلغت مائة وعشرة وتقول الرواية ، إن عبد المطلب أعاد ضرب القداح مرات ثلاث إثر ذلك فلم تصب عبد الله ونحر عبد المطلب الإبل وجعلها طعاما للإنسان والوحش والطير .[3] ومنها ما يخالف تلك الرواية فقد ذكر ابن سعد أن بنات عبد المطلب هن اللواتي أشرن عليه بضرب القداح على إبله التى بالحرم وعبد الله ، فقال إن إحداهن قالت لأبيها وهو يهم بذبح عبد

١- ابن كثير / البداية والنهاية / ج ٢ ص ٢٤٨

٢- موضع يقع على خط طول ٤٠ شرقا ، يشتمل سبعة حصون ، ومعنى خيبر : الغفران ، بينهما وبين المدينة ٦٠ ميلا ، أحمد عطية الله / القاموس الإسلامي / ج٢ ص ٣٠٨ ، عبد السلام الترياني / أزمنة التاريخ الإسلامي / م ٢ ق ٤ ص ١٠٤٣ .

٣- ابن هشام / سيرة النبي / ج ١ ص ١٦٦ ، ١٦٧ ، الطهطاوي / نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز / ج ١ ص ٢٢ ، ٢٣ ،، التاجي / سيرة النبي العربي / ج١ ص ٤٢ .

الله (أعذر فيه بأن تضرب في إبلك السوائم التي في الحرم فقال للسادن : أضرب عليه بالقداح وعلى عشر من الإبل، وكانت الدية يومئذ عشرا مـــن الإبـــل ، فضرب فخرج القداح على عبد الله فجعل يزيد عشرا عشرا كل ذلك يخـــرج القداح على عبد الله حتى كملت المائة فضرب بالقداح فخرج على الإبل فكـــبر عبد المطلب والناس معه واحتمل بنات عبد المطلب أخاهن عبد الله وقدم عبـــد المطلب الإبل فنحرها بين الصفا والمروة .[1]

وذكر ابن سعد رواية ثالثة تفيد أن بني زهرة هم الذين أشاروا على عبد المطلب بإطلاق القداح على الإبل[2]

ورواية رابعة تزيد على ما تقدم قولها إن القداح لم تصب الإبـــل إلا بعـــد أن كملت ثلاثمائة وقد ضعف ابن كثير هذه الرواية ومال إلى ترجيح الروايـة الأولى التي ذكرناها في أمر الكاهنة والإبل "[3]

و نحن نرجح الأخذ بالرواية الثانية أو الثالثة دون غيرهما ، لأنها تتوافق مع الواقع الذي عاشه عبد المطلب في إجراء أمور كلها لله ثم ما الذي يمنع من إسناد أمـــر ضرب القداح علي الإبل لواحدة ما بناته بل علي العكس من ذلك فإن صـــدور الرأي من بينهن أكثر واقعية ذلك أن ما ألم بهن جعلهن يفكرن في أمر يؤدي إلي نجاة عبد الله ، و كما قالوا إن الحاجة تولد الحيلة .

١- الطبقات الكبرى / ج١ ص ٨٩ .

٢- الطبقات الكبرى / ج١ ص ٨٤ .

٣- البداية و النهاية / ج٢ صـ ٢٤٩

و من ثم تفتق ذهن إحداهن فأبرزت للقوم هذا الحل الذي ارتضوه و رغبوا عبد المطلب في الأخذ به .

و لعل بني زهرة من الذين قاموا بدور كبير في هذا الترغيب ، مما يفسر ذكـــو الراوي لهم أنهم الذين أشاروا علي عبد المطلب ضرب القداح علي إبلـــه الـــتي بالحرم و عبد الله .

و قد انبرى بعد الباحثين بعد عرضة لقصة النذر لمناقشة قضية هامة و هـــــي هل كان عبد المطلب من أولئك الذين عبدوا الأصنام و سجدوا لها ؟ فأجـــاب علي كل هذا التساؤل قائلا ، إن ذلك لا يقدم في تبرئة عبد المطلب من عبـــادة الأصنام (فهذه الحركات الصادرة من قبيل العوائد لا العقائد بدليـــــل قـــول " اللهم، إني نذرت لك نحر أحدهم و إني أقرع بينهم فأصب بذلك من شئت) هذا أول دليل علي اعترافه بالألوهية مع ما ينقل عنه أنه كان مجاب الدعـــــوة ، محرم الخمر علي نفسه ، و أنه أول من تحنث بحراء ، و كـــــان إذا اســـتهل ر مضان صعده و أطعم المساكين و كان يدفع من مائدته للطـــير و الوحـــوش في رؤوس الجبال). [1]

وواضح مما سبق أن الباحث الكبير ينفي عن عبد المطلب عبادة الأصنام كغـــيرة في الجاهلية و هذا ما لا سبيل إلي الشك في صحته ، فإنه قد بذ قومــــه بســـنن وصفات سلفت الحديث عنها ، مما يدل علي أن الله -- سبحانه و تعالي -- قـــد كلف العناية لنبيه منذ أن كان في أصلاب أجداده فطهرهم من الشرك و برأهـــم من كل رذيلة .

١- رفاعة الطهطاوي / نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز / ج ١ ص ٢٤ .

و قد عقب بعض المؤرخين المحدثين علي قصة النذر هذه قائلا : (إن العنايـــة الإلهية كان لها في ذلك أثر كبير ، و كما حمى الله البيت الحرام مـــن عـــدوان الأحباش حينما كان مثابة للوثنية و الأوثان ليشرق فيه التوحيد بعد حين مـــن الزمان فقد أذن القداح أن تخرج علي الإبل ، لا لأن الآلهة المزعومة قد رضيـــت ، بل لأن الإله العليم قد قدر لعبد الله البقاء ليكون منه بعد حين من الزمان سيد الرسل و خاتم الأنبياء ".[١]

و علي أية حال فإن عبد المطلب قد أنعم قلبه بالسرور لنجاة ابنه مـــن الذبـــح فطفق بشخص ببصرة يمينه و يسرة ، باحثا لفلذة كبده عن زوج يسكن إليها و يهنأ معها لتنسيه ما كان قد عاشه من لحظات قاتلة لأعتى البشر إلا من تثبـــت بإيمان الله .

فتذكر المصادر القديمة أن عبد المطلب وقع اختياره علي آمنة بنت وهـــب ؛ لتكون زوجا لعبد الله ، وأما لسيد الأولين و الآخرين ، و هي من أعظم نســـاء قريش شرفا و أطهرهن نسبا، فلما أجيب عبد المطلب إلي ما طلب ، بنى عبـــد الله بزوجه ثلاثة أيام في بيتها جريا علي سنه قومه في ذلك الوقت ، آب بعدهـــا إلي بيته و معه زوجه يظلهما الحب و الوئام " [٢]

١- محمد الطيب النجار / السيرة النبوية / ص ٣٠ ، ٣١.

١- ابن سيد الناس فتح الدين أبو الفتح محمد بن محمد / عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير / ج ١ ص ٢٣ ،، التاجي / سيرة النبي العربي / ج١ ص ٥٠ ، ٥١ ،، عبد العزيز محمد عزام / محمد الرسول الأعظم / ص ٢٩ .

و تكاد المصادر القديمة تجمع علي أن إمرأة اختلفوا في تسـميتها عرضـت نفسها علي عبد الله كي يواقعها علي أن تعطيه مائه من الإبل فأعرض عن ذلـك و قال : أما الحرام فالممات دونه

و الحل لا حل فأستبينه .

فكيف بالأمر الذي تنوينه ؟ [1]

و تقول الرواية إن عبد الله ترك المرأة ، ووقع علي زوجة آمنة ، ثم عـاد إليـها عارضا إجابتها لما طلبته منه ، فقالت له ضاع منك الذي كنت أوده لنفسـي فقد كان في وجهك نور فارقه الآن " [2] و لست أرتاب في شيء قدر ارتيـابي في صحة عودة عبد الله إلي المرأة بعد إعراضه عنها ، فإن الرواية كشـفت لنـا في جلاء أن إعراضه كان ترفعا منه عن ارتكاب أمر رأى أنه حـرام ، فكيـف و الحالة هذه يعود لفعلة يضاف إلي هذا أمر ثان و هو أن المصادر أجمعت علـي أن عبد الله قد شغف زوجة حبا و أنها بادلته مثل ذلك ، فكيف يفعل أمرا فيه مـا يسي إليهما معا ، و الراجح عندي أن ظاهرة الوضع بينه في هذه الرواية ، وممـا يزيد في وهنا عدم اتفاق الرواة فيما بينهم علي إسم تلك المرأة .الأمـر الـذي يجعل المؤرخ المدقق لا يرى فيها حقيقة يعول عليها . لم تذكر لنا المصادر القديمـة شيئا عن المدة التي مكثها عبد الله مع زوجة آمنة قبل مغادرته مكة ، و إن كنـا نلمع من استقرائنا للمصادر و إمعان النظر فيها أن المدة كانت يسيرة .

١- البلاذري / أنساب الأشراف / ج١ ص ٨٠ ،، ابن سيد الناس / عيون الأثر / ج١ ص ٢٤ .

٢- ابن هشام / سيرة النبي / ج١ ص ١٦٩ ، ١٧٠ ،، ابن سعد / الطبقات الكبرى / ج١ ص ٦٩ .

و سواء صح أم لا يصح فإن الروايات اختلفت في الوجهة التي توجه إليـــها عبد الله من مكة ، فمنها من يقول إنه توجه مع قافلة لقريش إلي الشام، و إنـــه عرج علي أخواله من بني النجار أثناء عودته القافلة من الشام إلي مكـــة لعلـــة يستريح من وعثاء السفر ، و يبرأ من المرض الذي ألم به، و منها من يقـــول إن عبد الله توجه من مكة إلي المدينة ليختار منها تمرا لأبيه و هناك ألم بـــه مـــرض الوفاة .[١]

و ذهب جمهور المؤرخين إلي أن الرواية الأولي راجحة و الثانية مرجوحة كمـــا قال الواقدى :

كما لم يتفق الرواة فيما بينهما حول العمر الذي توفي عنه عبـــد الله و هـــل كان محمد ما يزال جنينا أم خرج إلي الحياة .

فبعض الروايات تذكر أنه توفي عن خمس و عشرين سنه ، وبعضها يقول إنـــه توفي عن ثمان و عشرين في الوقت الذي كان النبي محمد حملا في بطن أمة

هذا هو الراجح . و بعض الرواة يقولون إن عبد الله توفي و النبي محمد صلـــي الله عليه و سلم – قد مضت علي ولادته بضعة أشهر ، وقيل سنه أو سنتان ".[٢]

و يحسن بنا قبل الحديث عن مولد النبي – محمد صلي الله عليـــه و ســـلم – وذكر صورة موجزة لأحوال بلاد العرب من الناحية الاجتماعية و الدينية حـــتى يسهل علينا إدراك مدى الأثر الضخم الذي أحدث ظهور هـــذا النـــبي علـــي مختلف مجالات الحياة في بلاد العرب و غيرهم .

١- الطبري / تاريخ الأمم والملوك / ج٢ ص ١٦٥ ، ٢٤٦ ،، الحافظ الذهبي / السيرة النبوية / ص ٤٢ ،، ابن سيد الناس / عيون الأثر / ج١ ص ٢٥

٢- ابن سعد / الطبقات الكبرى / ج١ ص ١٠٠ ،، ابن سيد الناس / عيون الأثر / ج١ ص ٢٥ ،، تقي الدين المقريزي / إمتاع الأسماع / ج١ ص ٣٢ .

أولا : حالة بلاد العرب الاجتماعية قبل الإسلام :

من نافلة القول الإشارة إلي أن حياة كل مجتمع هي انعكاس حقيقي لأحـــــوال الهيئة التي يعيش فيها ، فإذا كانت صحراوية عمل السواد الأعظم منهم بـــالرعي ، و إن كانت زراعية انصرف جل سكانه للاشتغال بالزراعة .

و من ثم فإن بلاد العرب التي غلب عليها الطابع الصحـــــراوي – باســـتثناء بعض المناطق التي تعرف بالحضر – جمعت بين عنصرين هامين من الســـــكان ، البدو و الحضر ضمتهم جميعا تلك المنطقة التي يحدها شمالا بحر القلزم و اليمـــــن حتى بلاد الشام ، فهذه البلاد تتكون في الداخل من جبال شديدة الانحـــدار ، و هضاب الصحاري و نجود ليس فيها أنهار ، و لكن بها بعض العيون أو الآبــــار التي يجري فيها الماء ، و العكس تتكون أطراف الجزيرة من "التهائم" التي يسـقط بها المطر [١]

و سكان الصحراء الذين يعرفون بالبدو لا يعرفون الاستقرار، فهم يتنقلـــون في الصحراء بحثا عن الكلأ الذي ترعي عليه الماشية عماد الحياة عندهم ؛ و قـــد ألفوا قسوة الطبيعة إلي حد أكلهم الفئران و الخنافس و العظم ، بل إن منهم من كان يعمد علي حجر يربطه علي بطنه ليساعده علي تحمل آلام الجوع !!

أما لحوم الماشية فإن أفواههم لم تعرف لها طعمــــا إلا إذا أصيـــب ببعـــض الأمراض ، أو عجزت عن در الألبان التي يتخذون منها غذاء رئيسا مضافـــا إلي

٢- عبد المنعم ماجد / التاريخ السياسي للدولة العربية / ج ١ ص٤٤ .

التمر، ما أراد هؤلاء شراء حاجات من البيئات المجاورة لجـــأوا إلى مقايضتـــها بالماشية .[1]

و مع ذلك فإن حياتهم لم تخل عن حروب كانت تدور في الفنية بعد الفنيــة ، بين القبيلة و جيرانها ، أو بينها و بين الحواضر المجاورة لها .
و يمكننا إجمال الأنساب التي كانت تدفعهم إلى هذه الحروب فيما يلي :

١- الجدب الذي يعيشون فيه، ذلك أن بيئتهم تميزت بقله مياهها ، ونـــدرة محاصيلها ، و بالتالي فإنها لم تجذب أهل المناطق المجاورة للقدوم إليـــــها حتى يستفيد السكان من خيرات القادمين .
٢- الثأر ، و من العادات السائدة عند العرب البدو تصميمهم علي أخـــذ الثأر للفرد من أفراد قبيلتهم إذا ما نزل به ما يشينه أو يزهق روحـــة ، فإنهم يتضامنون حتى ينالوا و ترهم من الذي اعتدى علي فـــــرد مـــن أفرادهم ، و حتى يدركوا ذلك يظلون ممتنعين عن أكل اللحم و شــرب الخمر .[2]

و إذا ما واتتهم الفرصة الأخذ الثأر في الشهر الحرام لجأوا إلى النســـيئة ، و هي عبارة عن تأخير شهر من الأشهر الحرام إحدى عشر يوما و استبدال صفــر بالمحرم .[3] و قد عاب القرآن الكريم تلك عليهم فقال عز من قـــائل : (إنمـــا

١- عبد المنعم ماجد / التاريخ السياسي / ج١ ص٦١ / ٦٢
٢- عبد المنعم ماجد / التاريخ السياسي للدولة العربية / ج١ ص ٥٢
٣- الفاسي / العقد الثمين / ج١ ص ١٤٠ ،، أحمد شلبي / موسوعة التاريخ الإسلامي / ج١ ص ١٥١ .

النسى زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما و يحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله زين له سوء أعمالهم و الله لا يهدي القـــوم الكافرين)[1]

٣- و قد تنشأ الحرب بين القبيلة و جارتها ، نتيجة النزاع علـــي المنـــاطق الغنية بالكلأ اللازم لرعي الماشية .

٤- أما غاراتهم علي الحضر .فإنها كانت في الأغلب الأعم تعزي إلي أسباب مادية ، فكلما أعوزت الحاجة سكان البوادي إلي المال شنوا الغـــارات علي الحواضر ، من أجل سلب الأموال و الاستيلاء علي الأمتعـــة ، ثم يوبون بها إلي البادية ، فيتقوون بها علي مواجهة الطبيعة القاسية الـــتي يعيشون فيها .[2]

و مهما يكن أمر فإن الحرب إذا ما نشبت لأي سبب من الأسباب و طـــال أمدها لجأ المتحاربون بفضل سعي الساعين بالخير بينهم إلي الاحتكام ، فإذا مـــا حكم الحكم بينهم حكما يحظى برضائهم ، محي ذلك الآحـــن الـــتي كـــانت بينهم ، و إذا ما فعل خلاف ذلك ، و نصر فريقا علي فريق دون سبب قـــوي ، زاد من البغضاء بين المتحاربين "[3]

١- سورة التوبة / آية رقم ٣٧ .

٢- حسن إبراهيم حسن / تاريخ الإسلام السياسي والديني / ج١ ص ٦٦ ،، الشامي / تاريخ العرب والإسلام / ص ٣٨ .

٣- عبد الرازق الطنطاوي / تاريخ العرب وصدر الإسلام / ص ١٥٤ .

و إذا كانت الطبيعة في البادية بهذه القسوة ، فإنها قدمت لسـكانها الخـير الكثير ، فقد حفظت لهم نسبهم من الاختلاط بدماء أخرى ، ناهيك عن اللغـة العربية التي ظلت سليمة قوية ، نظرا للعزلة التي فرضتها الطبيعة عليهم .[١]

و علي الرغم من هذه العزلة فإن المجتمع العربي بدوا كان أم حضرا قد عـرف التقسيمات الطبقية بين أفراده بشكل دقيق يقوم علي أسس النسب و الـثروة و الحرية ، و القوة. و سوف نفصل ذلك فيما يلي :

١- **طبقة الصرحاء :**

و نعني بها الأفراد الذين يضربون بنسبهم إلي الجذور الأولي للقبيلـة ، و هؤلاء الناس كانوا من ذوي الثروة ، و منهم كان يختار شيخ القبيلـة ، فـهم الذين يذبون عن محارمها ، و يحفظون لها هيبتها بين القبائل المجاورة .[٢]

٢- **طبقة الموالي :**

و يطلق هذا الاسم علي جماعات المستضعفين التي تقيم إلي جوار القبيلـة و تخشى من سطوة المغيرين عليها ، و لكي تقي نفسها هذا الشر الذي كان شائعا في ذلك الوقت ، تلجأ إلي قبيلة كبيرة تطلب منها الحمايـة ، وتعـرف هـذه الجماعات باسم الأحلاف و الموالي.

١- أحمد شلبي / موسوعة التاريخ الإسلامي / ج١ ص ١٤٩ ، ١٥٠ .

٢- عبد العزيز غنيم / فلسفة السيرة / ص ٤٦ ،، الشامي / تاريخ العرب والإسلام / ص ٤٤ .

و كذلك يطلق هذا الاسم علي كل فرد ضعيف يأوي إلي هـــذه القبيلـــة ، طالبا الجوار ، فإنه إذا ما أجارته القبيلة ار فردا من أفرادها ، و له مالهم مـــن الحماية

و ينسحب إسم الموالي علي أولئك الأفراد الذين كانوا بالأمس رقيقا و نـالوا العتق من أسيادهم ، و من البديهي أن تلي هذه الطبقة سابقتها في الحقـــوق ، فالفرد الذي ينتمي إلي طبقة الصرحاء يري غيرة من طبقة الموالي أدني منه درجة إلي حد أنهم كانوا يعدون وصف الموالي منبئا عن الذل و النقيصة .

و من ثم فإن عمر بن الخطاب منع العرب عن اتخاذ موالي ن بينهم و قصـــر ذلك علي العجم .[١]

و الموالي نوعان : مولي يرث و يورث ، فهؤلاء ذو الأرحام و مولي يورث و لا يرث فهؤلاء العتاقة ، و مولي الحكم فيكتسب الولاء بالزواج من موالي بعض القبائل ، فينسب إلي القبيلة التي تزوج من مواليها .[٢]

٣- طبقة الرقيق :

و هي تضم جماعة السود أو البيض الذين نالهم الرق ، و هذه الطبقة محرومة من معظم الحقوق ، و ليس لها من دنياها إلا لقيمات تقيم بها أودها ، يقـــابل هذا تكليفها بالأعمال الشاقة .[١]

١- مصطفى أبو ضيف أحمد / دراسات في تاريخ العرب / ص ٦٨ ،، الشامي / تاريخ العرب والإسلام / ص ٤٥ ،، عبد الرازق الطنطاوي / تاريخ العرب وصدر الإسلام / ص ١٠٦ .

٢ - مصطفى أبو ضيف / دراسات في تاريخ العرب / ص ٦٨ .

و لم يكن عدد الرقيق في القبائل العربية علي درجة واحـــدة ، فإنـــه كـــان يتراوح بين الزيادة و النقصان حسب قوة القبيلة و الأعمال التي تقوم بها .

و كان عرب الحضر يلجأون إلي منادمة الإماء ذوات الجمـــال ، و هـــذا لا يكون إلا عند توافر الثراء ، و كان علي رأس هذا المجتمع العـــربي في البـــدو و الحضر شيخ القبيلة ، الذي كان يختار من طبقة الصرحاء كلما أسلفت .

لكي يصل أحد أفراد هذه الطبقة إلي ذلك المنصب لابد و أن يكون متصفـــا بالحلم و السماحة و الشجاعة في الحروب ، قوي الحسب .

و كانت له خيمه حمراء تنقاد إلي جوارها النار ، ليراهـــا النـــاس ، أو تربـــط بسواريها الكلاب التي ترشد الوافدين إلي مكانه .[٢]

و من أهم الأمور التي كانت علي شيخ القبيلة النهوض بها حماية أرضيها مـــن إغارات المغيرين ، فلم يكن يمر بها أحد من غير أفراد القبيلة إلا في حماية فرد من أفرادها .

أما القوافل التجارية فلم تكن تمر بأرض القبيلة إلا بعد أن يدفع أصحابها الشـــيخ القبيلة ما يعرف بإسم الإتاوة ، حينئذ يسمح لهم بالمرور بأرض القبيلة و تحـــت حمايته .[٣]

١- الشامي / تاريخ العرب والإسلام / ص ٤٦ ، ٤٧

٢-عبد المنعم ماجد / التاريخ السياسي للدولة العربية / ص ٤٨ إلى ٥٠ ،، الشامي / تاريخ العرب والإسلام / ص ٤٤ .

٣- مصطفى ابو ضيف / دراسات في تاريخ العرب / ص ٦٧ .

أما عن مميزات هذا المنصب ، فإنه كان يجلب لشاغله مميزات مادية ، إضافة إلي الميزة الأدبية ، فكانت له الصفايه و هي أن يصطفي من الغنيمة التي غنمتها قبيلته ما شاء قبل توزيعها .

ثم الربع بعد ذلك ، و كل ما تبقي من الغنيمة ، و هو غير قابل للتوزيع ، آل إليه ، و علاوة علي ذلك ، فإنه كان له أخذ مال الخصم الذي تستولي عليه قبيلته قبل الدخول في الحرب ، و يعرف المال باسم " النشطة " [1]

المرأة في المجتمع العربي قبل الإسلام :

من الأمور التي لا سبيل إلي الشك فيها أن المرأة نصف المجتمع و أنها كانت تحظى من العربي بعناية كبيرة ، فالعربي كان يغار علي عرضة و هي ملهمة الشعراء ، و إذا ما أراد العرب الاستبسال في معركة أخذوا معهم نساءهم و جعلوهن في مؤخرة الجيش .

و من الجفاء رجم العربي بظلم المرأة و إهماله في حقوقها ؛ لأن ذلك يتنافي مع ما ذكرناه من كونها ملهمة الشعراء ، ودواوين العرب مليئة بأشعار لكبار رجالهم

،افتخروا بشجاعتهم في قصائد لمحبوبتهم " [2]

١- الشامي / تاريخ العرب والإسلام / ص ٥٠ .

٢- أحمد شلبي / موسوعة التاريخ الإسلامي / ج١ ص ١٧٦ ،، عبد الرازق الطنطاوي / تاريخ العرب وصدر الإسلام / ص ٧٢ .

و لا يقدح في هذا ما قيل عن أودهم البنات ، فإن هذه العادة لم تكن شـائعة إلا في قبلتين من بين ثلاثمائة قبيلة حفظ لنا التاريخ أعمالهم الطيبة .

و قد اختلف الباحثون فيما بينهم حول عادة و أد البنـــات ، فمنـــهم مـــن يعزوها إلي الفقراء الذي كان لهم بالمرصاد ، و منهم من يعزوها إلي الخوف مـن العار الذي قد يترل بهم إن وقعت المرأة في الأسر أو ارتكبت ما يدنس شــــرفها .[1]

و قد أشار القرآن الكريم إلي هذه العادة إشارة تعلم منها ألها لم تكـــن مـــن العادات الشائعة فقال عز من قائل : يتواري من القوم من سوء ما بشـــــر بـــه أيمسكه علي هون يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون .) [2]

أما ما يتصل بمعاشرة الرجل للمرأة : فإلها كانت في أول أمرها فطرية غـــير محدودة بقوانين ، فالرجل يأوي إليها بلا مهر ، ثم تطورت هذه العلاقة قبيــــل الإسلام ، وظهر مفهوم النكاح بين المجتمع العربي في الجاهلية .[3]

و قد عرف هذا المجتمع أربعة أنواع من الأنكحة :

١- محمد الطيب النجار / السيرة النبوية / ص ٣٣ ، ٣٤ ،، الشامي / تاريخ العرب والإسلام / ص ٥٤ ، ٥٥

٢- سورة النحل / آية رقم ٥٨ ، ٥٩ .

٤- عبد المنعم ماجد / التاريخ السياسي للدولة العربية / ج١ ص ٥٣ .

أولها : النكاح الذي توفر له الإيجاب و القبول ، و هذا هو أكثر الأنواع شيوعا ، فكان العربي لا يبني بمخطوبته إلا إذا تقدم لأبيها ، طالبا منه الاقتران بها، و كثيرا ما كان والدا المخطوبة يلجأ إلي أخذ رأيها في الشخص الذي يريد الزواج منها ، و يبدو أن رأيها هذا كان موضع اعتبار دون إهمال له.[١]

و آية ذلك هذه القصة التي حفظها لنا التاريخ : " فيروي أن الحارث بن عوف المر قال لخارجة بن سنان – إبان حرب عبس و ذبيان – أتراني أخطب إلي أحد فيردني قال نعم : أوس بن حارثة بن لأم الطائي فقال الحارث لغلامه : هيي لي مركبا ، ثم ركب هو و غلامه . و معهم خارجة ، حتى أتيا أوسا فوجداه في دارة ، فلما رأى الحارث رحب به و سأله عن مجيئنا ، فقال جئتك خاطبا : فقال أوس: لست هناك فانصرف و لم يكلمه ، ثم دخل أوس علي امرأته مغضبا فقالت : من رجل وقف عليك فلم تظل و لم تكلمه ، قال : ذلك سيد العرب ، الحارث بن عوف ، قالت فما لك لم تستمع له قال : إنه استحمق جاءني خاطبا ، قالت : أفتريد أن تزوج بناتك ؟ قال نعم : قالت: فإذا لم تزوج سيد العرب ، فمن ؟ قد كان ذلك. قالت : فتدارك ما كان منك فألحقه ، و قل له إنك لقيتني مغضبا بأمر لم تقدم مني فيه قولا فلم يكن عندي من الجواب إلا ما سمعت فانصرف و لك عندي كل ما أجبت ، فإن سيفعل ففعل ذلك أوس ورد حارثة فلما وصلوا إلي بيت أوس قال لزوجة أدعي فلانة ، لكبرى بناته فأتته فقال: يابنيه ، هذا الحارث بن عوف سيد من سادات العرب و قد جاءني طالبا خاطبا، و قد أردت أن أزوجك منه .فقالت : لا تفعل لأني

١- حسن إبراهيم حسن/ تاريخ الإسلام السياسي / ج١ ص ٦٤ ، الشامي ، تاريخ العرب و الإسلام / ص ٥٧

امرأة في وجهي ردة في خلقي بعض العنهمة و لست بابنه عمة فيرمي رحمي ، و ليس بجارك في البلد فيستحي منك ، ولا آمن أن يري مني ما يكره فيطلقني ، فيكون علي في ذلك ما فيه . قال : قومي ، بارك الله فيك، ثم دعي الوسطى فأجابته بمثل جوابها ، و قالت إني خرقاء ، و لست بيدي صناعة ، و لا آمن أن يري مني ما يكره فيطلقني ، فيكون علي في ذلك ما تعلم .ثم دعا الثالثة ، و هي صغراهن ، فلما عرض عليها الأمر فالت : أنت و ذاك فأخبرها بإباء أختيها ، فقالت : لكني و الله الجميلة وجها، الصناع يدا ، الرفيعة خلقا، الحسيبة أبا، فإن طلقني فلا أخلف عليه بخير، فزوجها الحارث و هيئت إليه في بيت أبيها فلما خلا بها ، و أراد أن يمد يده إليها قالت له: ما عند أبي و إخوتي، هذا و الله مالا يكون أبدا فارتحل بها حتى إذا كان ببعض الطريق و أراد قربانها، قالت له: أكما يفعل بالأمة الجليبه أو السبيه الأخيذة ، لا و الله حتى تنحر الجزر و تذبح الغنم و تدعوا العرب ، و تعمل ما يعمل لمثلي ، فرحل حتى إذا وصل ديار قومه أعد لها ما يعد لمثلها ، فلما أراد قربانها قالت له : أتفرغ لنكاح النساء و العرب تقتل بعضها ، أخرج إلي هؤلاء القوم فأصلح بينهم ثم ارجع إلي أهلك فلما يفوتك فخرج الحارث مع خارجة بن سنان فأصلحنا بين القوم و حملا الديات ثلاثة آلاف بعير في ثلاث سنين ."[1]

ثانيهما: نكاح البغايا و كانت فيه المرأة مملوكة من الرجال معينين لها يأتونها واحد إثر واحد فإذا أنجبت طفلا من هذا النكاح و أرادوا معرفة أبيه كي

١- عبد الرازق الطنطاوي / تاريخ العرب وصدر الإسلام / ص ١١٢ ، ١١٣ .

ينسب إلية حاء القائف و جميع الأزواج كلهم و نظرا إلي أقدامهم قارنها بـأقدام الطفل الوليد فيعرف الوالد و ينسب إليه .[1]

ثالثها : نكاح الاستبضاع : و هو عبارة عن إرسال الرجل لزوجـة عقـب ظهرها من الحيض رجل قويا متميزا بصفات بذلها أقرانه ، و يطلب منـها أن تبقي معه ؛ حتى يظهر ثقلها ، ثم إن شاء اقترب منها زوجها أم يظـل علـي اعتزاله لها ، حتى تخرج له ذلك المولود الذي تمني فيه الصفات التي حرم منـها في أبنائه الأوائل "[2]

رابعها : نكاح السبايا : و ينشأ عن اغتصاب رجلا لا مـرأة معـه أثنـاء مرورهما في الصحراء ، و يقدم بها إلي مضارب قبيلته ، و يرغمها علي قبـول نكاحه لها، علي أن أشراف العرب كانوا يترفعون عن فعل مثل ذلك حـتى لا يثمر هذا الزواج أبناء يعيرون بهذا ، فإن العربي كثيرا ما كان يفتخر بكونه ابـن حرة لم يعرف السبي لها طريقا "[3]

١- رفاعة الطهطاوي / نهاية الإيجاز / ج١ ص ١٢ ، ١٣ ،، محمد الطيب النجار / السيرة النبوية / ص ٣٥.

٢- رفاعة الطهطاوي / نهاية الإيجاز / ج١ ص ١٢ ،، عبد العزيز محمد / محمد الرسول الأعظم / ص ١٨ .

٣- عبد الرازق الطنطاوي / تاريخ العرب وصدر الإسلام / ص ١١٧ .

٤-أحمد شلبي / موسوعة التاريخ الإسلامي / ج١ ص ١٦٥ .

و هناك أنواع أخرى من الأنكحه غير التي ذكرت، كنكاح امـــرأة الأب و الجمع و ما إليهما من دروب النكاح الأخرى التي أضربت عنها ذكر الضيـــق المقام .[١]

أما الطلاق ؛ فإن العرب عرفوه كما عرفوا النكاح و كانوا فيه علي دربين :
أولهما : كانت فيه العصمة بيد الرجل إن شاء أمسك المرأة و إن شاء سرحها.
ثانيهما : كانت فيه العصمة بيد المرأة ، و هذا كان غير شائع بين نسوة العـرب إلا من كانت منهن ذات شرف رفيع تأبت به علي مناكحة الرجال [٢]، علـــي غرار سلمي أم عبد المطلب التي أسلفت الحديث عنها .

و مما تجدر الإشارة إلية هنا أن قبيلة قريش كانت من أفضل القبائل العربيــــة تمسكا بالعادات الطيبة في النكاح و الطلاق ، و أن المرأة عندهم كانت تسير في الطريق العام بلا خمار دون أن يتعرض لها لأحد ، و هذا يدل بلا ريـــب علـــي وجود الضباط الاجتماعي الذي كان يضع علاقة الرجل بالمرأة في إطـــار مـــن الشريعة القبلية .[٣]

- العادات الاجتماعية :

أما العادات الاجتماعية التي كانت سائدة لدي العرب قبل الإسلام فإنها إمـــا حميد أبقي عليه الإسلام وزاده حسنا، و منها ما هو خبيث فتصدي له الإســـلام و استأصل شأفة المتمسكين به، فمن الأولي الكرم و الإباء و النجدة و حمايـــة

١- حسن إبراهيم حسن / تاريخ الإسلام السياسي والديني /ج١ ص ٦٥ ،،
أحمد شلبي / موسوعة التاريخ الإسلامي / ج١ ص ١٧٧، ١٧٨ .
٢- الشامي / تاريخ العرب والإسلام / ص ٦٠

الجار و الذب عن الأعراض و نصرة المظلوم ، ومن الثاني الزنا، و إتيان الذكـور دون النساء ، و التشاؤم ، و الكهانة ، و شرب الخمر ، الذي حرمه الإسـلام ، و لعب الميسر و رمي البعرة على الزوجة التي يموت زوجها .[1]

و خلاصة القول أن المجتمع العربي كان بالنسبة لغيرة من المجتمعات التي عاشـت في مثل بيئته متمسكا بأهداب الفضيلة و الفطرة السليمة .

و باستثناء تلك العادات السيئة التي أسلفت الحديث عنها ، و هي إن قيسـت بغيرها من العادات الذميمة المتفشية في بعض المناطق المجاورة كالهند تعد هينـة ، و إن الإسلام حين جاء تصدي لكل ذميم فقضي عليه و أبقي على كل صالح و ما أكثره "[2]

الحالة الدينية عند العرب قبل البعثة المحمدية :

تفرق العرب شيعا بالنسبة للديانة التي دانوا بها ، فكان منهم عبدة الأصنام ، و آخرون عبدوا الكواكب و النجوم ، و فريقا ثالث عبدوا النـار ، و جماعـة رابعة دانت باليهودية و النصرانية ، وسلة خامسة أعملت العقـل بحثـا عـن الأساس الأول لدين إبراهيم و عرفت هذه الجماعة باسم الحنفاء .

إلا أنه لما كانت عبادة الأصنام من أكثر العبادات شيوعا في هـذه المنطقـة فسوف نبدأ الحديث عنها ثم نتبع ذلك الحديث بكلمة عن كـل عبـادة مـن العبادات المذكورة على حدا.

١- عبد العزيز غنيم / فلسفة السيرة / ص ٥١ ،٥٢ .

٢- الشامي / تاريخ العرب والإسلام / ص ٤١ .

١– عبادة الأصنام :

بادئ ذي بدء نقول إن الصنم و النصب و الوثن يختلف كل واحد منهم عن الآخر ، فقد اصطلح كتاب التاريخ علي أن الصنم هو ما كان علي شكل الآدمي ، سواء صنع من معدن أو خشب و النصب : هو كل حجر صخري يحظى بتقديس قبيلة ماله ، أما الوثن : فكل حجر منحوت علي شكل معين .[١]

و ذهب بعض الباحثين إلي أن عبادة الأصنام موغلة في القدم منذ العرب البائدة ، و استدل علي هذا بما رواه القرآن الكريم في حديثة عن عاد و ثمود .[٢]

و ما ذكر كذلك عن دعوة نوح لقومه الذين راح كل واحد منهم يحص رفيقه علي التمسك بالآلهة التي ورثوها علي آبائهم ضار بين عرض الحائط بدعوة نوح لهم لكي يعبدوا الواحد الأحد[٣] ، فقال عز من قائل : (و قالوا لا تذرن آلهتكم و لا تذرن ودا و لا سواعا و لا يغوث و يعوق و نسرا و قد أضلوا كثيرا و لا تزد الظالمين إلا ضلالا)[٤]

١– هيكل / حياة محمد ص ٩٩ / ،، عبد المنعم ماجد / التاريخ السياسي للدولة العربية / ج١ ص ٥٦ .

٢– الشامي / تاريخ العرب والإسلام / ص ٧٣

٣– عبد الله بن عبد الوهاب / مختصر سيرة الرسول / ص ١٨

٤– سورة نوح آية رقم ٢٣،٢٤

أما عن الأسباب التي دعت العرب إلي عبادة الأصنام فهي عديدة .

أ- أن العرب وجدوا أثناء حياتهم أن أقوي شيء في الأجرام التي تلمســـها أيدهم هو الحجارة ، فالتمسوا منها المتفرد بظواهر ميزته عـــن ســـائر الأحجار الموجودة علي الأرض ، ذلك أنهم لما وجدوه ســـاقطا مـــن الكواكب زعموا أنه نزل عليهم ليعبد في الأرض ، فعبدوه و كـــانت هذه الأحجار أكثر ما تكون شيوعا في بلاد اليمن . و من ثم نشـــأت عبادة الأصنام عند العربي .[1]

ب- و من الباحثين من يري أن العرب لجأوا إلي عبادة الأحجـــار اعتقـــادا منهم أنها ترمز لقوي غيبية خفية ، و من ثم وجب عليهم تقديســـها ، ومما حببهم في ذلك كون هذه الحجارة متفقة مع مزاحة البدائي .[2]

ج- و من المؤرخين من يري أن الذي قاد العرب إلي عبادة الأصنام تقديسهم الشديد لمكة ، فإنه لم يكن يظعن ظاعن منها إلا و يحمل معه حجرا من حجارتها علي سبيل التبرك ، و إذا ما دعاة داع إلي الإقامة بعيدا عنها احتفظ بها الحجر احتفاظا شديدا وورثه أبناؤه الذين نسوا السبب الحقيقـــي وراء ذلك ، و من ثم انتشرت عبادة الأصنام بين العرب .[3]

١- أحمد شلبي / موسوعة التاريخ الإسلامي / ج١ ص ١٧٠
٢- عبد المنعم ماجد / التاريخ السياسي للدولة العربية / ج١ ص ٥٦
٣- الفاسي / العقد الثمين / ج١ ص ١٣٦

د- نسب بعض المؤرخين اتجاه العرب لعبادة الأصنام إلي عمرو بن لحي الخزاعي ، فقالوا إنه لما توجه إلي الشام وجد قوما من العماليق يقومون بعبادة الأصنـام ، فسألهم عن الغاية التي يرجون تحقيقها من هذه العبادة فأجابوه قـائلين : إننـا نعبدها فتستجيب لنا ، فإذا ، استمطرناها أمطرتنا ، و إنها تسـاعد في إبـراء المريض من مرضه ، فقال عمرو : و هل لأعطيتموني واحد منها أسير بـه إلي قومي ؟ فأجابوه إلي ما طلب و أعطوه هبل و قدم به إلي مكة : و نصبه عنـد الكعبة في موسم الحج .[1]

و علي أن هناك رواية أخري تقول إن هاتفا من الجن جاء عمرو بـن لحـي الخزاعي و هو نائم ، فقال له : عجل السير و الظعن مـن تهامـة بالسـعد و السلامة ، أنت جده تجد فيها أصناما معدة فأوردها تهامة و حضر الحج فدعـا العرب إلي عبادتها تجب ، فأتي خبرة فاستنارها ثم حملها حتي أوراها تهامة حضر الحج فدعا العرب إلي عبادتها فأجابوه " [2]

و لنا أن نتساءل عن الأسباب التي دعت العرب إلي إجابة عمرو بـن لحـي بهذه السرعة في دعوته لهم إلي عبادة الأصنام .

١- ابن هشام / سيرة النبي /ج١ ص ٨١ ، ٨٢ ،، الطيب النجار / السيرة النبوية / ص ١٨ .

٢-عبد الله بن عبد الوهاب /مختصر سيرة الرسول / ص ١٩ ،، عبد الرازق الطنطاوي / تاريخ العرب وصدر الإسلام / ص ٩٣ .

و الجواب ما قاله السهيلي (كان عمرو بن لحي حين غلبت خزاعـــة علـــي البيت ، ونفت جرهم عن مكة جعلته للعرب و بألا يبتدع لهم بدعة إلا اتخذوها شرعة لأنه كان يعظم للناس ، ويكسو في الموسم ، فربما نحر في الموسم ، عشـــر آلاف بدنه ، و كسا عشرة آلاف حلة ، حتى أن اللات الذي كان يليت لهـــم السويق في موسم الحاج علي صخرة معروفة سموها باسم اللات ، الذي كـــان يلت عن ثقيف فلما مات قال لهم : إنه لم يمت ، و لكن دخل في الصخـــوة ! ثم أمرهم بعبادها !! و أن يبني عليها بيت يسمي اللات ، و ذكـــر أبـــو الوليـــد الأزرق في أخبار مكة أن عمرو بن الحي فقا عين العشرين بعـــيرا ، و كـــانوا يفقأون عين النمل إذا بلغت ألفا فإذا بلغت ألفين فقأوا عينه الأخرى .[1]

و علي الرغم من استبدال العرب الوثنية بدين إسماعيل ، إلا أنهم لم يتفقـــوا علي معبود وثني واحد ، فقد كان لإفراد القبيلة آلهة صغيرة ، و للقبائل بيـــوت كبيرة عرفت باسم الطواغيت ، و الكل يحج إلي البيـــت الكبـــير في الكعبـــة الموجودة حولها مئات الأصنام .

فيقول ابن إسحاق (إذا أراد الرجل منهم سفرا تمسح به حين يركب فكـــان ذلك آخر ما يصنع حين يتوجه إلي سفرة و إذا قدم من سفرة تمسح به فكـــان ذلك أول ما يبدأ به قبل أن يدخل علي أهلة)[2]

١- عبد الله بن عبد الوهاب / مختصر سيرة الرسول / ص ١٩،٢٠

٢- ابن هشام / سيرة النبي / ج ١ ص ٨٦ .

و قد حفظت لنا المصادر القديمة الشي القليل عن بيوت الآلهة لدي القبـــائل ذلك أنها لم تسهب في ذكر أصول طقوس العبادة الدينية في هذه الأماكن .

و من أشهر هذه البيوت بيت اللات ، و كان لصخرة مربعـــة بالطـــائف [1] قدمتها قبيلة ثقيف ، وظلت موجودة حتى أرسل إليها النبي محمد لما أســــلمت ثقيف المغيرة . [2] ابن شعبه و أبا سفيان بن حرب [3] فهدماها و حرقاها بالنار . [4] و من بيوت الأصنام العزي و قد بني لهما بيت في مكان يقال له حراض بـوادي نخلة و قدستها

١- عرفت قديما باسم سج – وتقع في شرقي مكة إلى الجنوب وتبعد عنها ما يقرب بنحو ٥٠ ميلا ، وتقوم على هضبة يبلغ متوسط ارتفاعها ٥٠٠٠ قدم عن سطح البحر ، وتكثر بهما الآبار والعيون التي تسقى الحقول وبساتين الفاكهة ، كان يربط بينها وبين مكة طريقان رئيسان أولهما الأقصر وثانيهما دائري وهو أقل مشقة من سابقه

٢- ابن أبي عامر بن مسعود الثقفي – أبو عبد الله ، عرف بالشجاعة والدهاء واعتنق الاسلام يوم الخندق ، شهد مع النبي الحديبية والرضوان ، ثم شارك بعد وفاة النبي في فتح الشام وموقعة اليرموك ، تولى البصرة ثم الكوفة توفي بها سنة ٥٠ هـ / ابن الأثير / اسد الغابة ج ٤ / ص ٤٠٦

٣- هو صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، قاد قريشا في وجهة النبي يوم أحد ، أسلم يوم فتح مكة ، شهد حنينا والطائف ففقئت إحدى عينيه ، وفقد الثانية في موقعة اليرموك ، توفي بالشام أو المدينة سنة ٣٠ هـ وقيل سنة ٣٣ هـ .

– ابن العماد الحنبلي / شذرات الذهب / ج ١ ص ٣٧ ،، عبد السلام الترياني / أزمنة التاريخ الإسلامي / م ٢ ق ٣ ص ٦٦٨ .

٤- ابن عبد الوهاب / مختصر سيرة الرسول / ص ٢١ ، ٢٢ .

قريش و كنانة ، و كانت سدنتها ... حجبة ... بني شيبان ، من سليم ، حلفـــاء بني هاشم ، و ظلت موجودة ... ... بـــن الوليـــد في الخـــامس و العشرين من رمضان سنه ثمان من الهجرة ... ما أمره رسول الله بذلك .[1]

و أما مناه التي كانت صحره فقد بني ... ست في ناحية المشلل بقدير ، بـــين مكة و المدينة ، و قد نالت تعظيما من جمهرة العـــرب ، و لا ســـيما الأوس و الخزرج فكان عبادها يأتون إليها بتقديم القرابين .

و كانت الأوس و من جاورها من عرب يثرب و غيرها يحجون فيقفون مـــع الناس المواقف كلها و لا يحلقون رؤوسهم ، فإذا نفروا أتوه فحلقوا رؤوســـهم و أقاموا عندها لا يرون لحجهم تماما إلا بذلك "[2]

و قد أشار القرآن الكريم إلي آلهة البيوت الثلاثة المذكورة فقال عزمن قائل (أفرأ يتم اللات و العزى و مناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر و له الأنثى تلـك إذن قسمة ضيزى)[3]

و من بيوت الآلهة المذكورة عند العرب ... ذو الخلصة ، و هو عبـــارة عن مروة بيضاء منقوش عليها كهيئة التاج ... قا سته دوس و خثعم و بجيله .

---

١ - ابن هشام / سيرة ال...

١ - ابن عبد الوهاب / مختصر السير

الحجاز في الحياة السياسية ص ٥

٢ - سورة النجم / آية رقم ١٩ ، ٢٠

... شامي / تاريخ العرب والإسلام ص ١٤٣

... أحمد إبراهيم الشريف / دور

... ب والإسلام / ص ٧٦ .

قال "سهيلي ارسل رسول الله صلي الله عليه و سلم- إلي ذي الخلصة (جرير عبد الله البجلي) [1]لهدمها و ذلك قبل وفاة النبي صلي الله عليه و سلم – بشهرين . قال جرير (فانطلقت في خمسين و مائة من أحمس إلي ذي الخلصة ، و كانوا أصحاب حيل فقلت يا رسول الله ، إني لا أثبت علي الخيل ، فضرب بيده علي صدري حتى رأيت أثر أصابعه في صدري ، و قال " اللهم ثبته و اجعله هاديا مهديا) فانطلق إليها فكسرها و حرقها ، فأرسل إلي النبي – صلي الله عليه و سلم بالبشرى فقال رسول جرير : و الذي بعثك بالحق ما جئتك حتى تركتها كأنها جمل أجرب فبارك علي خيل أحمس ورجالها خمس مرات "[2]

و إذا ما ولينا وجهنا شطر الكعبة وجدنا حولها في الحقبة التي نتناولها بالدراسة مئات الآلهة ، و لسنا هنا بصدد إحصاء أسماء لتلك الآلهة و القبائل التي كانت تعبدها ؛ لأن ذلك يخرج بنا من الغاية التي تنشدها و هي التأريخ للنبي محمد صلي الله عليه و سلم – بيد أننا نلقي شيئا من الضوء علي أشهر تلك الآلهة .

الموجودة عند الكعبة و التي منها إساف و نائلة .

١- سيد بجيلة أبو عمرو ، أسلم في العام الذي توفي فيه رسول الله ، فيه قال الرسول (حين أقبل وافدا عليه : يطلع عليكم خير ذي عين ، وكأن على وجهه مسحة ملك) فنزل بالكوفة ثم قرقيسيا فتوفي بها سنة ٥١ وقيل ٥٤

٢- ابن قتيبة / المعارف / ص ٢٩٥ .

٣- ابن عبد الوهاب / مختصر سيرة الرسول / ص ٢٣ ، ٢٤ .

تكاد المصادر العربية القديمة تجمع علي أسطورة يعزي إليها وجـود الإلهـين المزعومين ، وخلاصتها أنهما يرمزان إلي رجل و امرأة ارتكبا جريمة الزنا بالكعبة ، فأنزل الله العقاب بهما و جعلها حجرين .[1]
علي أنني لا أميل إلي هذه الأسطورة التي وضعها القصاصون ، ففوق أنها لم تعـز إلي راوي بعينه ، فإنها تتناقض مع ما أشارت إليه أمهات المصادر في شأن عمـرو بن لحي الخزاعي من إدخاله عبادة الأصنام ، فلو كان لإساف ونائلة وجود منـذ عهد الجراهمة – كما يقول بن هشام – لاتجهت العرب بالعبادة إليـهما منـذ عهد جرهم بعد إخراجهم أبناء إسماعيل من مكة .

و الذي نكاد نجزم به أن هذه الأسطورة وضعها الخزاعيون من أتباع عمـرو بن لحي ؛ لتبرير فعلهم مع الجراهمة من ناحية ، و للترويج للعبادة الجديدة الـتي أدخلوها من ناحية أخري ، و أنها أخذت تتناقل من جيل إلي جيل حتي وصلت إلينا عبر مصادر التاريخ الأصلية.

و آية ذلك ما قالت السيدة عائشة رضي الله عنها :
(ما زلنا نسمع أن إساف و نائلة كانا رجلا و امرأة مـن جرهـم أحدثـا في الكعبة فمسخهما الله تعالي حجرين و الله أعلم) .[2]

فعبارتها تلك تدل في جلاء علي أنها لم تركن إلي صحة الرواية كما أن النـبي محمدا – صلي الله عليه و سلم – لم يتحدث عن هذه الأسطورة بشـي علـي الرغم من حديثة صلوات الله و سلامة سلامه عليه عن عمرو بن لحي ، فقـال

١- ابن هشام / سيرة النبي / ج١ ص ٨٦ ،، التاجي / سيرة النبي العربي / ج ١ ص ١١٤
٢- ابن هشام / سيرة النبي / ج١ ص ٨٦ .

أبو هريرة (سمعت رسول الله – صلى الله عليه و سلم – يقول لأكثـــم بـــن الجون الخزاعي : يا أكثم ، رأيت عمرو بن لحي بن قمعه بن خندق يجر قصبـة[١] في النار فما رأيت رجلا أشبه برجل منك به ولا بك فيه ، فقال أكثم : عســى أن يضرني شبيه يا رسول الله ، قال : لا إنك مؤمن و هو كافر ، إنه أول مـــن غير دين إسماعيل فنصب الأوثان ، و بحر البحيرة[٢]، و سبب السائبة[٣] . ووصل الوصيلة[٤] و حمي الحامي .[٥]

و علي أية حال فإن إسافا و نائلة قد وضع إحداهما علي الصفا و الآخر علي المروة كي يراهما الناس ، أثناء تأديتهم فريضة الحج حيث كان الناس يتمســحون بهما بقصد التبرك .[٦]

١- قبل : القصب اسم للأمعاء كلها وقيل هو ما كان أسفل البطن من الأمعاء

٢-بن منظور / لسان العرب / مادة قصب / ص ٣٦٤١

٣- الناقة تشق أذنها فلا يركب ظهرها ولا يجزو برها ولا يشرب لبنها إلا ضيف أو يتصدق به وتحمل لآلهتهم .

٤- التي ينذر الرجل أن يسيبها إن بريء من مرضه أو إن أصاب أمرا يطلبه فإذا كان ذلك أساب ناقة من إبله أو جملا لبعض آلهتهم فسابت فرعت لا ينتفع بما .

٥- التي تلد أمها اثنين في كل بطن فيجعل صاحبها لآلهته الإناث منها ولنفسه الذكور فتلدها أمها ومعها ذكر في بطن فيقولون " وصلت أخاها " فيسبب أخوها معها فلا ينتفع بها ، وردت هذه المصطلحات الثلاث في ابن هشام / سيرة النبي / ج ١ ص ٩٦ ، ٩٧ .

٥- ابن هشام / سيرة النبي / ج ١ ص ٨١ ،، ابن عبد الوهاب / مختصر سيرة النبي (الرسول) ص ٢٠ .

٦- التاجي / سيرة النبي العربي / ج١ ص ١١٤ ،، الشامي / تاريخ العرب والإسلام / ص ٧٦ .

و من الأصنام المشهورة التي وضعت حول الكعبة : هبل ، و كان تمثالا مـــن عقيق أحمر مبتور اليد . اليمني ، فصنعت له قريش يدا من ذهب ، عوضا عنـــها و نصبوه عند بئر الهداية في الكعبة " [١]

و قد بلغ من تقديس العرب لهذا الصنم جعلهم ضرب القداح عنده كما جـرت بذلك العادة قبل القدوم علي فعل شيء هام .

و القداح المذكورة كانت قدحا فيه العقل إذا اختلفوا في العقل مـــن يحملـــه منهم ضربوا بالقداح السبعة ، فإن خرج العقل فعلي من خرج حملة و قدح فيـه نعم للأمر إذا أرادوه يضرب به في القداح ، فإن خرج قدح نعم عملوا بـــه ، و قدح فيه لا إن أرادوا أمر ضربوا به في القداح ، فإذا خرج ذلـــك القـــدح لم يفعلوا ذلك الأمر ، وقدح فيه منكم ، و قدح فيه ملصق ، و قدح فيـــه مـــن غيركم ، و قدح فيه المياه ، فإذا أرادوا أن يحفروا للماء ضربوا القداح ، و فيـــها ذلك القداح ، فحيثما خرج عملوا به — و كانوا إذا أرادوا أن يختنوا غلامـــا أو ينكحوا منكحا أو يدفنوا ميتا أو شكوا في نسب أحدهم ، ذهبوا به إلي هبـــل ، و بمائة درهم ، و جزروا ، فأعطوها صاحب القداح الذي يضرب بها ، ثم قربوا صاحبهم الذي يريديه ما يريدون ، ثم قالوا : يا الهنا ، هذا فلان لم بن فلان قـــد أرادنا به كذا و كذا فأخرج لنا فيه الحق.[٢]

١- ابن عبد الوهاب / مختصر سيرة الرسول / ص ٢٣ ،، رفاعة الطهطاوي نهاية الإيجاز / ج١ ص ٢٥ .

٢- ابن هشام / سيرة النبي / ج١ ص ٨٦ ،، رفاعة الطهطاوي / نهاية الإيجاز ج١ ص ٢٥ . حسن إبراهيم حسن / تاريخ الإسلام السياسي والديني ج . ص ٩٦ ، ٧٠

فيعملوا بما خرجت به القداح ، و من دعائهم المشهور عند هبل :

إنا اختلفنا فهب السراحا *** ثلاثة يا هبل فصـــاحا

الميت و العذرة و النكاحا *** و البرء في المرض السماحا

إن لم نقله فمر القداحـــــا[١] (الرجز)

- موقف العرب من تقديس الأصنام و مظاهر ذلك :

و مما تجدر الإشارة إليه هنا أن العرب قد اقتســـموا إلى قســـمين بالنســـبة لموقفهم من الأصنام ، قسم يرى فيها النفع و الضرر و هم الجهلاء ، و قســـم يرى فيها أنها و سيله تقربهم إلى الله .

و كثيرا ما كانت تتعرض هذه الأصنام لثورة العربي أو نقضه لها ، فـيروي أن رجلا توجه بإبله إلي صنم يقال له سعد ، بقصد التبرك ، فلما رأته الإبل و كان عليه آثار دماء القرابين نفرت من صاحبها الذي طفق يجري وراءها حتى تمكـــن من جمعها بعد لأي فأنشد قائلا :

أتينا إلي سعد ليجمع شملنا *** ففرقنا سعد فلا نحن من سعد

و هل سعد إلا صخرة بتنوفه[٢] *** من الأرض لا تدعوا لغي و لا رشد[٢] (الطويل)

و مما يدلنا أيضا علي تبرم العرب منها ما ورد في شعرهم من أسف و لـــوم شديدين لعمرو بن لحي الخزاعي الذي أشاع هذه البدعة الذميمة في بلاد العرب و صرفهم بها من عبادة الواحد الأحد و مما قالوه في ذلك :

١- الشامي / تاريخ العرب والإسلام / ص ٧٦ .

٢- الفقر من الأرض وأحمل بنائها التنف وهي المغازة والجمع تنائف .

- ابن منظور / لسان العرب / مادة تنف / ص ٤٥١

يا عمرو إنك قد أحدثت آلهة شتى *** بمكة حول البيت أنصابا
و كان للبيت ربا واحدا أبدا *** فقد جعلت له في الناس أربابا
لتعرفن بأن الله في مهل *** سيصطفي دونك للبيت حجابا[1]

و يذهب بعض الباحثين إلي أن وضع العرب للأصنام حول الكعبة لا يدل علي ألها كانت تحظى بالتقديس المنفرد ، و إنما يدل علي أنهم كانو يعرفون وجود آلهة أعظم من هذه الآلهة المزعومة ، و هي حقيقة لا يعتريها الشك ، و آيه ذلك أنهم عندما يلبون يقولون " لبيك اللهم لبيك " ، و لا يدعوا أحد من الأصنام رب البيت ، فإذا قالوا " رب البيت أرادوا به ربا فوق الأرباب ، و هذه الحقيقة هي التي كتبت لبيت مكة التفوق علي البيوت كلها في الجزيرة العربية ، فإنها بيوت الأصنام و كان بيت مكة بيتا لله الذي يعبد فيه العرب الإله الخالق المبدع ، و إنما عبادة الأصنام تقربهم إلي الله زلفى "[2]

و هذا التقديس الذي أشرنا إليه يعزوه أحد الباحثين إلي تأثر العرب بمذهب الطوطمية ، و الطوطم كائنات تحترمها بعض القبائل المتوحشة ، و يعتقد كل فرد من أفراد القبيلة بعلاقة نسب بينه و بين واحد منها يسميه طوطمة ، وقد يكون الطوطم حيونا أو نباتا يحمي صاحبه و يدافع عنه و لذلك احترمه صاحبة و قدسه ، فإذا كان حيونا أبقي عليه ، و إذا كان نباتا لم يتجرأ علي قطعة أو أكله إلا في أوقات الشدة ، و لذلك كان العرب يتسمون بأسماء الحيوانات ، مثل بنو أسد و بنو كلب و أسماء حيوانات مائية مثل قريش ، أو بأسماء نباتات

١-عبد الرازق الطنطاوي / تاريخ العرب و صدر الإسلام / ص ٩٦
٢- أحمد إبراهيم الشريف / دور الحجاز في السياسة / ص ٢٧

ثم إن العرب كانوا يقدسون الحيوان و يعبدونه كما يقدسه و يعبده أهل الطوطم " [١]

و هذا ما لم يرض به العديد من الباحثين المحدثين الذين انبرى بعضهم لمناقشة هذه الأدلة علي غرار أ.د / عبد العزيز غنيم الذي قال : و لا جدال في وهن هذه الحجة ، لأن هذه الأسماء أسماء حقيقية لرجال من هذه القبائل و لأن العرب قد كانوا ينتهون بأنسابهم إلي الرجال معروفين للتاريخ كعدنان و قحطان و إبراهيم و إسماعيل ، وحجة أخرى لا سبيل إلي إغفالها ، و هي أن العرب قد كانوا يصفون كل من هجر الأوثان و عبد الله الواحد بأنه قد تحنف و اعتنق مله إبراهيم ، و لا جدال فيما لهذا الوصف من الدلالة علي أن الوثنية قد كانت دخيلة علي العرب و أن الحقيقة هي ديانتهم الأولي ." [٢]

و العرب الذين عكفوا علي عبادة الأصنام جعلوا لأشهرها أعيادا ،، فيروي أن قريشا كانت تقيم عيدا سنويا لصنم عندها يقال له " بوانة " و كانت تجتمع عنده فتذبح له الذبائح ، وتحلق عنده الرؤوس و تشرب الخمر و تلهو فلول الليل ، و كان أبو طالب يحضر هذا العيد مع قومه ، و كان يكلم محمدا ليحضر ذلك العيد معهم فيأبى محمد ذلك حتى قيل (إنا أبا طالب غضب عليه مرة و شاطرنه في ذلك الأمر عمات النبي اللواتي قلن له : أما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيدا و لا تكثر لهم جمعا) و ما زلن حتى حضر معهم ثم غاب عنهم برهة ، ورجع إليهن فزعا ، فقالت له عماته لا تخف ، فلا يصيبك الله

١-مصطفى أبو ضيف / دراسات في تاريخ العرب / ص ٧٣
٢- فلسفة السيرة / ص ٥٠ .

بالشيطان و فيك من وصفات الخير ما فيك ، فماذا رأيت ؟ قال إني كلما دنوت من صنم تمثل لي رجل أبيض الثياب يصيح بي ابتعد يا محمد لا تمسنه).[1]

و من أهم الأعياد التي يتجمع فيا السواد الأعظم من العرب هذا الإجماع السنوي للحج الذي توارثوه من دين إبراهيم و شوهوه كما شوهوا العبادة التي أتي بها هذا النبي فإن وفود العرب كانت تؤم مكة في ذي الحجة من كل عام لتأدية هذه الشعيرة " .[2]

و كان العرب أثناء تأديتهم لمناسك الحج يتمسكون بفعل أشياء أتي بها دين إبراهيم و أخرى ابتدعوها فمن الأولي تعظيمهم للبيت الحرام بصفة أول بيت وضع للناس و إلقائهم السلام و اعتزالهم النساء أثناء إقامتهم عند البيت و الطواف حوله ".[3]

و من الثانية إنشاد الأناشيد عند الطواف و التمسح بالأصنام و ذبح بعض الآدميين علي سبيل القربان و قولهم في التلبية ، لبيك اللهم لبيك لا شريك لك إلا شريك حولك تملكه و ما ملك ، فيوحدون بالقلبية ، ثم يدخلون معه أصنامهم و يجعلون ملكها بيده ، يقول الله تبارك و تعالي لمحمد – صلي الله

١- التاجي / سيرة النبي العربي / ج ١ ص ٩١ ، ٩٢

٢- عبد المنعم ماجد / التاريخ السياسي للدولة العربية / ج ١ ص ٨١ .

٣- ابن عبد الوهاب / مختصر سيرة الرسول / ص ٢٠ ،، عبد المنعم ماجد التاريخ السياسي للدولة العربية / ج ١ ص ٨٢ .

عليه و سلم- (و ما يؤمن أكثرهم بالله إلا و هم مشركون) أي مـــا يوحـــدونني لمعرفة حقي إلا جعلوا معي شريكا من خلقي).[١]

و من بدعهم عدم وقوف قريش بعرفات و جعل ذلك لسائر القبائل علـــي الرغم من كون هذه الوقوف ركنا أساسيا في مناسك الحج من لدن إبراهيـــم و عدم تزود القبائل بالطعام أثناء تأديتهم الحج فإذا ما أرادوا طعاما أخذوه مـــن قريش .

و أما الإقامة فإنها كانت في العراء فلا يظلمهم بيت من أدم و لا شعر مـــا داموا يؤدون المناسك .

و أهم حدث أحدثوه ما يعرف بالحمس ، و يعني شدة التدين أو نسبة الذيـن دانوا به إلي الحجارة البيضاء التي بنيت بها الكعبة " [٢]

و كان الحمس لقريش وبني عامرين صعصعة و ثقيـــف و خزاعـــة و مـــولج و عدوان ، و الحارث بن عبد مناة " [٣]

و كان علي العرب إذا ما عادوا إلي مكة بعد الوقوف علي عرفـــة لطـــواف الإفاضة شراء ثوب من ذوى الحمس للطواف فيه ، فزعموا أن الطواف لا يحـــل

١- ابن هشام / سيرة النبي / ج١ ص ٨٢- ٨٣ ،، ابن عبد الوهاب / مختصر سيرة الرسول / ص ٢٠- ٢١ .

٢- ابن كثير / البداية والنهاية / ج٢ ص ٣٠٥ ،، الفاسي / العقد الثمين ج١ ص ١٤٠ .

٣- الفاسي / العقد الثمين / ج١ ص ١٤٠ .

بثوب سواء فإذا أعسر الحاج و لم يستطع شراء ثوب الحمس طافا عريانـا و إذا كانت امرأة معسرة فعلت مثل الرجل ، حتى أنه روي عن هاتيك النسوة قـول إحداهن أثناء طوافها عريانة و هي تضع يدها علي فرجها :

اليوم يبدو بعضه أو كله *** و بعد هذا اليوم لا أحله

(الرجز)

أما إذا كان الرجل من أولي اليسار ، و تمكن من شراء ثوب الحمس ، وطـاف فيه فعليه إذا فرغ من الطواف أن يلقيها ، فلا ينتفع بها بعد ذلك ، و ليس له و لا لغيره أن يمسها ، و كانت العرب تسمي تلك الثياب اللقى ، قال بعـض الشعراء .

كفي حزنا كرى عليه كأنه *** لقى بين أيدي الطائفين حريم [١]

(الطويل)

و يرى بعض الباحثين أن قريشا روجت لبدعة الحمس لتجني من ورائها فوائـد مادية ، بالإضافة إلي الناحية الأدبية ، فأثواب الحمس التي يباع يطـاف بهـا ثم تلقي . و كان لها و للأطعمة أسواق خاصة الأمر الذي يؤدي إلي رواج تجـارة قريش في موسم الحج من كل عام .[٢]

١- ابن سعد / الطبقات الكبرى / ج ١ ص ٧٢ ،، ابن كثير / البداية والنهاية / ج٢ ص ٣٠٥ ،، الفاسي / العقد الثمين / ج ١ ص ١٤٠ .

٢- أحمد إبراهيم الشريف / دور الحجاز في الحياة السياسية العامة / ص ٣٣ .

ثانيا عبدة الكواكب و النجوم :

و هذه العبادة انتشرت عند عرب اليمن و غيرهم من عرب جنوب شبه الجزيرة العربية . و يلوح لنا أن العرب اتجهوا إلي هذه الأجرام السماوية بالعبـــادة لمـا لمسوه فيها من قوة باهرة ، فعباد الشمس عبدوها لأنها متعلقة بأحوالهم الزراعيـة ، و كانت في نظرهم زوجة القمر و لذلك كان القمر أسمي مكانة من الشـمس التي كانت لحرارتها في الصيف تعرف باسم ذات حميم أو ذات حمم .

و من شريعتهم في عبادتها أنهم اتخذوا لها صنما بيده جوهر علي لون النار ، و له بيت خاص قد بنوه باسمة و جعلوا له الوقف الكثير .

و عباد الشمس إذا طلعت سجدوا كلهم ، و إذا غربت ، و كذا توســطت الفلك ، و لهذا يقال لها الشيطان في هذه الأوقات الثلاثة لتقع عبادتهم له، و لهذا يقال لها الشيطان في هذه الأوقات الثلاثة لتقع عبادتهم له، و لهذا نهي النـــبي – صلي الله عليه و سلم – عن تحري الصلاة في هذه الأوقات الثلاثة .[1]

و قد ثبت وجود هذه العبادة لدي بعض القبائل العربية من خلال حديــث القرآن الكريم عما كان بين سليمان عليه السلام و بلقيس ملكة سبأ فقال عــز من قال حكاية عن الهدهد (فمكث غير بعيد فقال أحطت مـــا لم تحـــط بـــه وجئتك من سبأ بنبأ يقين ، إني وجدت امرأة تملكهم و أوتيت من كل شـــي و لها عرش عظيم ، و جدتها و قومها يسجدون للشمس من دون الله و زين لهـــم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون) [2]

١- ابن عبد الوهاب / مختصر السيرة للرسول ص ٢٧ ،، مصطفى أبو ضيف / دراسات في تاريخ العرب / ص ٧٤ .

٢- سورة النمل / آية ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ .

و أما عباد القمر فإنهم عبدوه لما له من فضل بين في البيئة التي يعيشـــون فيـــها فعلي نوره ترعي قطعان الماشية ، و هو يرشد القوافل للطريق .

و من ثم جعلوا له في الأرض صنما علي شكل معين ، يجر علـــي عجـــلات أربع تأمه وفود المقدسين ، و معها الأطعمة ، يأكلون عنـــده ، و يلـــهون ، و كانوا يصومون له أياما معلومة من كل شهر .[١]

و لم تكن عبادة الكواكب الأخرى إلا تكرار لهذا النمط الذي أشـــرنا إليـــه أثناء حديثنا عن عبادة الشمس و القمر .

ثالثا المجوسية :

و هذه العبادة كانت قليلة الشيوع في بلاد العرب و قد انتقلت إليهم عن طريـق الفرس المجاورين لهم " [٢]

و لعل السبب في عدم انتشارها راجع إلي أن الفرس لم يجدوا ما يغريهم في التدخل في داخل شبة الجزيرة العربية لنشر هذه العبادة .

و ربما يكون ذلك راجعا إلي أن العرب لم يرق لهم من أمر عبادة النار ؛ لكونهـا غير متفقة مع الفطرة التي نشأوا عليها ، ناهيك عن التكلفة الباهظة التي كـــان علي العربي النهوض بها من أجل أن تبقي هذه النيران مشتعلة .

١- ابن عبد الوهاب / مختصر سيرة الرسول ص ٢٨ ،، مصطفى أبو ضيف / دراسات في تاريخ العرب / ص ٧٤ ،، الشامي / تاريخ العرب والإسلام / ٨٧ .

٢- محمد الطيب النجار / السيرة النبوية ص ٢١ ،، عبد الرازق الطنطاوي / تاريخ العرب وصدر الإسلام ص ١٨ .

رابعا : الديانات السماوية في شبة الجزيرة العربية قبل الإسلام :

و مع شيوع هذه المعتقدات الفاسدة في شبة الجزيرة العربية فــإن ســكالها عرفوا الديانات السماوية التي كانت موجودة في ذلك الوقت ، فتذكر كتــب التاريخ أن اليهودية انتشرت في خيبر وفدك و تيماء[١] و يثرب، و ألها دخلت في صراع مع المسيحية في بلاد اليمن التي تصدي لها ذو نواس ، و كــان ملكــا يهوديا فأمر بحفر أخدود ، وضع فيها عشرات ممن اعتنقوا المسيحية ، و أشــعل فيهم النار ، و غدا المسيحيون في اليمن في جحيم لم ينقذهم منـــه إلا إجابــة نجاشي الحبشة لهم ، فأرسل حملات إلي بلاد اليمن[٢] ، تلــك الحمــلات الــتي جعلت أبرهة يتربع علي أربكه الحكم في منطقة اليمن ثم يقوم بعد ذلك بحملــة الفيل علي مكة – كما سأوضحه فيما بعد .

و أما المسيحية فإلها انتشرت في الحيرة [٣]و نجران[٤] علي الرغم مــن الصــراع المذهبي

١- بالفتح (وسكون التمنية) وهي بلدة تاريخية تقع بالقرب من تبوك في واد كثير المياه والزرع ، بين الأردن وشمال الجزيرة العربية ، جلى عنها اليهود في زمن عمر بن الخطاب .

- ابن عبد الحق / مراصد الاطلاع ج١ ص ٢٨٦ ،، أحمد عطية الله القاموس الإسلامي / ج١ ص ٥٢٢ .

٢- محمد الطيب النجار / السيرة النبوية / ص ٢١ ،، عبد الرازق الطنطاوي / تاريخ العرب وصدر الإسلام / ص ٧٦ .

٣- بالكسر ثم السكون وراء : مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة .

٤-بالفتح ثم السكون وآخره نون ، منها نجران من مخاليف اليمن من ناحية مكة وبها كان خبر الأخدود . – ابن عبد الحق / مراصد الاطلاع / ج٣ ص ١٣٥٩ ،، أحمد عطية الله القاموس الإسلامي ج ٢ ص ١٨٨

الذي كان يدور بين معشقي هذا الدين .[1]

خامسا : الحنفاء :

يصطلح المؤرخون القدامى في إطلاقهم هذا الاسم على جماعة الباحثين عن دين إبراهيم عليه السلام .و لا تستطيع الوقوف علي أعداد هؤلاء الرجال من لدن أولاد إسماعيل حتى بعثته سيد المرسلين محمد – صلي الله عليه و سلم .

و لا نجد كبير عناء في بيان الأسباب التي أدت إلي ظهور تلك الجماعة ، ذلك أن رجالها نظروا بإمعان شديد إلي الظواهر الطبيعية القريبة منهم فجعلوها نبراسا يضي لهم الطريق للوصول إلي المعالم التي حجبتها عبادة الأوثان عن الناس

فهذا كعب بن لؤى ، أحد أجداد النبي محمد –صلي الله عليه و سلم – يقف في قومه خطيبا فيقول (اسمعوا و تعلموا و افهموا و اعلموا أن الليل سـاج ، و النهار صاج ، و الأرض مهاد ، و السماء عماد ، فهل رأيتم من هالك رجع أو ميت نشر ، الدار أمامكم ، و الظن غير ما تقولون) [2]

و أما عامر بن الظرب العدواني ، فنراه هو الآخر يسير علي الدرب ، متخذا من مشاهدته الطبيعية مطية يصل بها إلي ما ينشده في إقناع مستمعيه ببطلان

١- حسن إبراهيم حسن / تاريخ الإسلام السياسي / ج١ ص ٢٣ ،، عبد الرازق الطنطاوي / تاريخ العرب وصدر الإسلام ص ٩٨ .

٢- خليل ياسين / محمد عند علماء الغرب / ص ١٥ .

عبادتهم فمما قاله لهم : (إني ما رأيت شيئاً قط خلق نفســـه ، موضوعـــا إلا مصنوعا .. و لا جثنا إلا ذاهبا .. و لو كان الذي يميت الناس الـــداء ، لكـــان الناس يحييهم الدواء)......

و هذا زهير بن أبي سلمي يقول و هو يتأمل أوراق الأشجار الخضراء الـــتي صارت كذلك بعد يبس .

(لو أن يسبني العرب لآمنت أن الذي أحياني بعد جفاف سيحي العظام و هـــي رميم) ...و هو القائل ..

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم *** ليخفي ، فمهما بليتم الله أعلم .[1]

(الطويل)

و مع وجود هذا الاتجاه الديني إلا أن أصحابه الذين آمنوا به لم يســـتطيعوا التغلب علي العقبات الكأداء التي واجهتهم ، و من أهما التقاليد الموروثة عـــن الآباء ، و حياة الشهوة التي كانت تعني جل أفراد المجتمع .[2]

و لم يخرج علي هذه القاعدة إلا رجال قلائل أو خر درة بمجاهرة قومهم بمـــا هم عليه من فساد العبادة ، و لن يتيسر ذلك لهؤلاء الرجال إلا إذا وقفوا علـــي دين إبراهيم ، و من ثم تفرقوا للبحث عن أناس يظن أنهم ما زالوا علي علم بهذا الدين فيروي ابن هشام : أن قريشا اجتمعت يوما في عيد لهم عند صنـــم مـــن أصنامهم كانوا يعظمونه و يتحرون له و يعكفون عنده ، و يديرون ، فخلـــص

١- للمزيد عن أخبار زهير راجع الأغاني ج١٠ص ٢٨٨ : ٣١٦ ،، خالد محمد خالد / خلفاء الرسول ص ٣٠، ٣١ .

٢- الغزالي / فقه السيرة / ٨٥ .

منهم أربعة نفر نجيا ، ثم قال بعضهم لبعض : تصادقوا و ليكتم بعضكم علـــي بعض قالوا : أجل و هم : ورقة بن نوفل بن أسد ، و عبيد الله بن جحش بـــن رئاب .[١] و عثمان بن الحو يرث بن أسد و زيد بن عمرو بن نفيـــل ، فقـــال بعضهم لبعض (تعلموا و الله ما قومكم علي شي ، لقد أخطئوا ديـــن أبيـــهم إبراهيم ، و ما حجر به لا يسمع و لا يبصر و لا يضر و لا ينفع !!!

يا قوم التمسوا لأنفسكم فإنكم و الله ما أنتم علي شي) فتفرقـــوا في البلـــدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم .[٢]

و من الحنفاء الذين جاهروا بدعوتهم و داع صيتهم بين العرب قـــس بـــن ساعده[٣] بن إياد معد حكيم العرب ذكره النبي محمد صلي الله عليه و ســـلم – لوفد قومه ، عندما جاءوه يعلنون دخولهم في الإسلام ، فقالوا له إنه هلك فقـال النبي ، رحمه الله رآني أنظر إليه بسوق عكاظ علي جمل له أحمر و هو يقـــول : أيها الناس استمعوا وعوا ، من عاش مات ، و من مات فات ، و كل ما هـــو

١- ابن يعمر الأسدي ، صحابي من السابقين إلى الإسلام ،، من مهاجري الحبشة ثم المدينة ، أخو أم المؤمنين زينب بنت جحش .

٢- سيرة النبي / ج ١ ص ٢٤٢ .

٣- هو قس بن ساعدة بن عمرو بن عدي بن مالك بن زيد بن إياد ، خطيب العرب وشاعرها وحليمها وحكيمها في عصره ، يقال إنه أول من علا على شرف ، وخطب عليه وأول من قال في كلامه أما بعد ، وأول من أتكأ عند خطبته على سيف أو عصا ، أدركه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قبل النبوة ورآه بعكاظ فكان أثر عنه كلاما سمعه منه و لم نقف في المصادر التي أطلعنا عليها في عام بعينه ، توفي فيه . وللمزيد عن أخباره راجع الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني / ج ١٥ ص ٢٤٦ : ٢٤٨ .

آت. آت ، ، أما بعد ، فإن في السماء لخبرا ، و إن في الأرض لعبرا ، بحر يفور ، و نجوم تغور ، و سقف مرفوع ، و مهاد موضوع ، أقسم قس بالله قسما : (إن له دينا ارض ، من دين أنت عليه ، ما بال الناس يذهبون و لا يرجعون ؟، أرضوا بالمقام فأقاموا أم تركوا فناموا ؟، سبيل مؤتلف و عمل مختلف "، و قال أبياتا لا أحفظها فقام أبو بكر فقال أنا أحفظها يا رسول الله :

و في الذاهبين الأولين *** من القرون لنا بصائر

لما رأيت مواردا *** للموت ليس لها مصادر

و رأيت قومي نحوها *** يسعى الأكابر و الأصاغر

أيقنت أني لامحا *** له حيث صار القوم صائر

(الكامل)

فقال رسول الله – صلي الله عليه و سلم : رحم الله قسا ، إني لأرجوان يبعثه الله أمه واحدة .

و إذا كانت دعوة الحنيفية لدي السواد الأعظم من الحنفاء ، بعيدة عن كل مأرب يبغون تحقيقه ، فإن التاريخ قد حفظ لنا سيرة واحد اتجه هذا الاتجاه من أجل أن يكون النبي المنتظر ؟ إنه أمية بن عبد الله أبي الصلت .

عاش الرجل وسط قبيلة ثقيف علما من أعلامها و رغب عن اللات معبودها وطفق يدعو قومه إلي نبذ عبادتهم مبشرا إياهم بظهور دين جديد يدعو الناس جميعا إلي التوحيد . و قد أثرت عنه أشعار كثيرة في ذلك فيما قاله ..

إن آيات ربنا باقيات *** ما يماري فيهم إلا كفور

خلق الليل و النهار فكل *** مستبين حسابه مقدور

ثم يجلو النهار رب كريم *** بمهاة شعاعها منشور

حبس الفيل بالمغمس حتى *** ظل يحبو كأنه معقور

لازما حلقة الجر ان كما *** قطرا من صخر كبكب محدور
حوله من ملوك كقوة أبطال

ملا ويث في الحروب صقور
خلقوه ثم ابذعروا جميعا *** كلهم عظم ساقه مكسور
كل دين يوم القيامة عند الله

إلا دين الحنيفة بور

(الخفيف)

و لما علم أمية ببعثه النبي محمد – صلي الله علية و سلم – تأهب للمسير إليه ليعلن إسلامه ، بيد أنه عاد من حيث أتي لما تملك فؤاده من غيره و حسد لكون النبي محمد– صلي الله عليه و سلم – اختصه الله بهذا الأمر دونه .

و ظل أميه يجاهر بعدائه للإسلام حتى توفي و هو يتعاطى الشراب فمات كافرا ، و سئل عنه النبي محمد– صلي الله عليه و سلم – فقال (قد آمن لسانه و كفر قلبه) [1]

و تكشف لنا قصة أمية بن أبي الصلت في جلاء أن رسالة الأنبياء ليست إلا منحة من الله يمنحها من يشاء و يهيء للنبي المصطفي الوسائل التي تجعله أهلا لهذه المنحة .

و يؤيد هذا ما قاله الشيخ / محمد الغزالي في معرض تعقيبه علي قصة أمية و من حذي حذوه) غير أن القدر الأعلى تجاوز أولئك المتطلعين من شعراء و ناثرين

١- أبو الفرج الأصفهاني / الأغاني / ج ٤ ص ١٢٢ ، ابن عبد الوهاب / مختصر سيرة الرسول / ص ٣٧ ،، الناجي / سيرة النبي العربي / ج ١ ص ١٣٨ – عبد الرازق الطنطاوي / تاريخ العرب وصدر الإسلام .

، و ألقي بالأمانة الكبرى إلي رجل لم يتطلع إليها ، و لم يفكر فيـــها (و مـــا كنت ترجو أن يلقي إليك الكتاب إلا رحمة من ربـــك فــلا تكـــون ظـــهيرا للكافرين) " إن الاصطفاء للرسالات العظيمة ليس بالأمل فيها ، و لكن بالطاعة عليها و كم في الحياة من طامعين لا يملكون إلا الجرأة علي الأمل ، و كم مـــن راسخين يطويهم الصمت حتى إذا كلفوا أتوا بالعجب العجـــاب ، و لا يعلـــم أقدار النفوس إلا بارئها ، و الذي يريد هداية العالم أجمع يختار للغاية العظيمـــة نفسا عظيمة) [1]

و إذا كانت هذه هي حالة أمية بن أبي الصلت الذي رأى النبي و لم يؤمـــن ، فإن زيد بن عمرو بن نوفل ، و هو أحد الحنفاء رأى النبي محمد ا قبل بعثتـــه ، وود لو أن الله مدله في العمر ليرى النبي المنتظر فيؤمن به .

و عمرو هذا لقي من قريش شدة ، فقد تصدت له حين طفق يدعوهـــم إلي تحريم عبادة الأصنام ، و ذبح الشاه عنها علي سبيل القرابين ، فمما قاله لهـــم في هذا :

(الشاه خلقها الله ، و أنزل لها من السماء الماء ، و أنبت لها من الأرض الكـــلأ ، تذبحونها علي غير اسم الله).

و لما التقي النبي محمد – صلي الله عليه و سلم به أسفل بلدح [2] دعي عمـــرو كي يأكل لحما مد للقوم فلما رآه النبي لا يأكل سأله عن سبب ذلك ، فقـــال: أنا لا آكل إلا مما ذكر اسم الله عليه . [2]

١- فقه السيرة / ص ٢٧ ، ٢٨ .

٢- أخره حاء مهملة والدال .. واد قبل مكة من جهة المغرب .

لجأت قريش إلي طرد زيد بن عمرو خارج مكة حتى لا تشيع بينهم دعوته هـذه ، ووكلوا بذلك الخطاب بن نفيل عمه ، و أخوة لأمة ، فانبرى له بـالأذى ، و أحاط به خارج مكة ، و علموا الخطاب يأمره حين ينجح في الدخول إليها .

أما زيد بن عمرو فإنه كان في منفاه هذا يتوجه إلي الكعبة رافعا يديه و يقول (لبيك حقا حقا – تعبدا ورقا ، البر أرجو لا [1] الخال، هل مهجر).

و من قوله :

عذت بما عاذ به إبرهم *** مستقبل الكعبة و هو قائم

يقول أنفي لك عان راغم *** مهما تجشمني[2] فإني جاشم

ثم يخر ساجدا .[3]

(الرجز)

و لما وجد زيد بن عمرو أنه لا سبيل له في العودة إلي مكة ، سار إلي الشـام باحثا فيه عن دين إبراهيم ، فألتقي بأحد رجال الدين اليهودي (فسـأله عـن دينهم فقال : لعلي أدين بدينكم ، فقال زيد ما أقرأ إلا من غضـب الله ، و لا أحمل من غضب الله شيئا أستطيعه ، فهل تدلني علي غيرة ؟ قال :ما أعملـه إلا

١-السحاب الذي إذا رأيته حسبته ما طرأ ولا مطر فيه .

– ابن منظور / لسان العرب / مادة خيل ٣٥ .

٢- تجشم على تجشيني : التكليف الأمر على المشقة

– ابن منظور / لسان العرب / مادة جشم / ص ٢٢٩

٣- البلاذري / أنساب الأشراف / ج١ ص ١١٧ ،، الحافظ الذهبي / السيرة النبوية / ص ٤٨ ،، ابن عبد الوهاب / مختصر سيرة الرسول /ص ٣٠ .

أن تكون حنيفا قال زيد و ما الحنيف ؟ قال : دين إبراهيم لم يكن يـهوديا و لا نصرانيا و لا يعبد إلا الله).

فلما لم يجد زيد بغيته عند رجل الدين اليهودي سار إلي راهب نصراني قـال له مثل ما قال اليهودي ، فرفع زيد يديه إلي الله داعيا اللهم أني أشهدك أني على دين إبراهيم)

و قد أفادت هذه الرحلة زيد بن عمرو فزادته قناعة بأن دين إبراهيم سـيبعث من جديد علي يدي نبي وقف علي حليته من كتب اليهود و النصارى فيذكـر ابن سعد عن محمد بن عمر قال : سمعت زيد بن عمرو بن نفيل يقـول (أنـا أنتظر نبيا من ولد إسماعيل ثم من بني عبد المطلب ، و لا أراني أدركه ، و أنـا أو من به و أصدقه ، و أشهد أنه نبي ، فإن طالت بك مرة فرأيته فأقرئه مني السلام ، و سأخبرك ما نعته حتى لا يخفي عليك ، قلت : هلم : قال هو رجل ليـس بالطول أو بالقصير و لا بكثير الشعر ، و لا بقليلة ، و ليس تغار من عينيه حمـرة وخاتم النبوة بين كتفية ، و اسمه أحمد ، و هذا البلد مولدة و مبعثه ، ثم يخرجـه قومه منه و يذكرون ما جاء به ، حتى يهاجر إلي يثرب ، فيظهر أمره ، فإيـاك أن تخدع عنه ، فإني طفت البلاد كلها أطلب دين إبراهيم ، فكل من أسأل مـن اليهود و النصارى و المجوس يقولون هذا الدين وراءك ، و ينعتونه مثل ما نعتـه لك و يقولون لم يبقي نبي غيره).[2]

١- ابن عبد الوهاب / مختصر سيرة الرسول / ص ٣٣ ،٣٤ ، ٣٥ .
٢-الطبقات الكبرى / ج١ ص ١٦٢ ، ١٦٣ .

و علي أية حال فإن زيد بن عمرو قتل في لخم إثر عودته من الشام [١]، و لما ذكر عامر بن ربيعه للنبي صلي الله عليه و سلم – و أقرئه من زيد السلام قال رسول الله- صلي الله عليه و سلم – قد رأيته في الجنة يسحب ذيولا . [٢]

و لنا أن نتساءل عن الأسباب التي حالت بين قس بن ساعدة و زيد بن عمرو و بين دخولهما في أحد الديانتين اليهودية أو النصرانية ؟ و الجواب هو أن (اليهود يشعرون بأنهم مطاردون في الأرض منبوذون من أقطارها فعلي الداخل في دينهم أن يحمل وزرا من المقت المكتوب عليم . و النصارى وقع بينهم شقاق رهيب في طبيعة المسيح ، ووضعه ووضع أمه من الإله الكبير ، و قد آثلو هذا الخلاف بينهم الحروب المهلكة ، و قسمهم فرقا يلعن بعضها بعضا . و كان نصارى الشام الذين سألهم زيد " يعاقبه" يخالفون المذهب الرسمي لكنيسة الرومان ، فلا غرابه إذا أشعروا زيدا بما يقع عليه من عذاب ، لو دان بدينهم أو لعل هذه اللعنة الرهبة هي تبعات الخطيئة التي اقترفها آدم و استحقها من بعده بنوه ، كما يدعي ذلك النصارى ، و هم يرون صلب المسيح) [٣]

و نحن نرى أن هذا صحيح ؛ بيد أننا نضيف إلي ما تقدم أن زيدا ربما ، أمتنع من الدخول في ديانة من الديانتين لما وجده في كتب اليهود و النصارى من إرهاصات وصفات تنبي عن كون الزمان الذي يعيش فيه هو زمن ظهور هذا

١- الحافظ الذهبي / السيرة النبوية / ص ٤٨ .

٢- ابن سعد / الطبقات الكبرى / ج ١ ص ١٦٢ .

٣- الغزالي / فقه السيرة / ص ٨٥، ٨٦، ٨٧ .

النبي و من ثم رجع دون اعتناق ديانة منهما ، و لم يمهله القدر كي يري النـــبي بعد بعثته حيث مات زيد قبلها بقليل كما أسلفت .

و الذي يدعم ما ذهبت إليه الرواية التي ذكرها عن ابن سعد في الطبقـــات ، و التي في حليلة النبي فإنها تنبيء بلا ريب عن إيمان يقيني لزيد بأن بعثه النبي المنتظـر قد تطلع علي الناس بين عشية أو ضحايا ، و إلا فيما نفسر قول زيد لعـــامر (أقرأ هذا النبي مني السلام) ؟؟ .

إذا فالمانع لزيد من دخول أحد الديانتين أمران :
أولهما : الخلافات الدينية .
ثانيهما : رغبة زيد في أن يكون أول من يؤمن بهذا النبي الذي يعيد دين إبراهيـم إلى الوجود في بلاد العرب وغيرها .

ومجمل القول هنا أن ظهور الحنفاء كان بمثابة تمهيد لتغيير كبير يخرج هـــذا المجتمع من ظلمات الجهل الديني والاجتماعي في بعض عاداته إلى نـــور العلـــم الشامل لكل شيء وقد كان هذا فعلا على يد النبي محمد ، الذي كان ميـــلاده بداية لبعث العالم من سبات كان يحجب عنهم نور الحقيقة ، وهذا ما نتناوله في الفصل الثاني من هذا السفر ، والفصول التي تليه .

الفصل الثاني
محمد من ميلاده إلى بعثته

الفصل الثاني
محمد من ميلاده إلى بعثته

يجدر بنا ونحن نؤرخ للحقبة الزمنية التي عاشها النبي محمد من لدن ولادته حتى بعثته ، ذكر حادثة الفيل بوصفها أهم حدث سبق ميلاد النبي بأيام أو شهور أو أعوام كما سأبينه في حينه ، ثم الوقوف حيال عدة قضايا مهمة شغلت الباحثين المحدثين ، فذهبوا في الحكم عليها مذاهب شتى ، مثل الإرهاصات التي سبقت ميلاده (صلوات الله وسلامه عليه) وتلك التي حدثت مع الميلاد ، وما قيل في إعراض المراضع عنه ليتمه وشق صدره وغيرها من القضايا التي نعرض لها في حينه .

ومن ثم وجدت لزاما علي الإلمام — ما وسعني – بهذه الآراء المتباينة لمناقشتها والإدلاء برأي فيها لعلني أضيف جديدا يسهم فيما بعد للوصول إلى رأي قاطع في هذه القضايا .

حادثة الفيل :

لما آلت بلاد اليمن إلى الأحباش عهد نجاشي الحبشة بحكمها إلى أرباط الذي لم يهنأ بحكمه إلا يسيرا من الزمن ثم انقلب عليه أبرهة الأشرم[1] وأزاله عن حكم اليمن .

١- عرف بهذا اللقب لضربة قوية سددها له أرباط شرمت وجهه وأنفه ومكنته من الإجهاز عليه .

- أبو الفرج الأصفهاني / الأغاني / ج ١٧ ص ٣٠٧ .

وقد اختلف المؤرخون فيما بينهم حول السبب الذي بنى أبرهة كنيسته من أجله فمنهم من عزاه إلى رغبة أبرهة ترضية ملكه بعدما فعله مع أرياط فكتب أبرهة إلى النجاشي يعده ويمنيه بتحويل عرب اليمن ومن جاورهم إلى دين النصرانية وأخبره بأنه أنشأ من أجل ذلك كنيسة هي آية في الجمال وزودها بالسدنة والخدام ودعى العرب إلى الحج إليها .[1]

ومنهم من نسب ذلك إلى الحسد الذي تملك أبرهة من الثروة التي تجنيها مكة نتيجة وفود جماعات الحجيج إليها في كل عام ومن ثم أزمع أمره على بناء بيت ينافس بيت مكة ، وبيوت الأصنام التي دونه في المكانة والرفعة لصرف الحجاج عن مكة وتوجيههم إلى صنعاء[2] حيث توجد هذه الكنيسة .

وأخذ أبرهة يسأل العرب عن البيت الذي يتوجهون إليه فقال لهم ما هو ؟ قالوا من حجارة قال : وما كسوته ؟ قالوا : ما يأتي من ههنا الوصائل قال والمسيح لأبنين لكم خيرا منه . فبنى لهم بيتا عمله بالرخام الأبيض والأحمر والأصفر والأسود وحلاه بالذهب ومسامير الذهب وفصل بينهما بالجوهر

١- ابن هشام / سيرة النبي / ج ١ ص ٤٣ ،، أبو الفرج الأصفهاني / الأغاني ج ١٧ ص ٣٠٤ ،، أحمد شلبي / موسوعة التاريخ الإسلامي / ج ١ ص ١١٩ .
محمد الطيب النجار / السيرة النبوية / ص ٢٣ ،، محمد رضا / محمد رسول الله / ص ١٧.

٢- تقع على هضبة منبسطة للجنوب الغربي بإقليم اليمن يبلغ متوسط ارتفاعها ٧٢٥٠ قدما ، وتبعد المدينة على ساحل البحر الأحمر بنحو ٧٠ كم . ويبلغ عدد سكانها حسب إحصاء ١٩٧٠ ، ١٧٠ ألف نسمة - أحمد عطية الله / القاموس الإسلامي / ج٤ص ٣٤٢

وجعل فيها ياقوته حمراء عظيمة وجعل له حجابا وكان يوقد فيه بالمندلى ويلطخ بالمسك فيسود حتى يغيب الجوهر .[1]

وعلى أية حال فإن أبرهة تمكن من صرف العديد من العرب عن بيت مكة فتألم لذلك أحد[2] الكنانيين فأحدث في الكنيسة ولطخ جدرانها بالقاذورات ، وقد تمكن من ذلك إثر مغافلته السدنة والخدام المقيمين بها .

فلما علم أبرهة بما حدث ثارت ثائرته ، وصمم على قصد مكة لهدم الكعبة التي يقدسها العرب الذين فزعوا لما سمعوه من تأهب أبرهة للمسير إلى مكة لهدم البيت الحرام !!

ويذكر الحافظ أبو نعيم أن السبب الذي دفع الأحباش إلى إرساله حملة الفيل لا يرجع إلى إحداث أحد الكنانيين بالكنيسة المبنية في صنعاء كما ذكرت معظم المصادر إنما يرجع إلي (أن ابن ابنته أكثوم بن الصباح الحميرى خرج حاجا فلما انصرف من مكة نزل بكنيسته بنجران فغدا عليها أناس من أهل مكة فأخذوا ما فيها من الحلي ، و أخذوا متاع أكثوم فانصرف إلي جده الحبشي مغضبا ، فلما ذكر له ما لقي بمكة من أهلها تالي بيمني أن يهدم البيت ، فبعث

١- ابن سعد / الطبقات الكبرى ج١ ص ٩١ ،، هيكل / حياة محمد / ص ١١٨ محمد رضا (محمد رسول الله) ص ١٧ .

٢- الرجل الذي أحدث في كنيسة أبرهه من نساء الأشهر الحرم وهو من بني فقيم بن عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيجة بن مدركه بن إلياس بن نصر بن سعد " الطبقات الكبرى ج١ ص ٩٢ – محمد رضا / محمد رسول الله / ص ١٧

رجلا من أصحابه يقال له شمر بن مضفود علي عشرين ألفا من حولان و نفـــر من الأشعريين فساروا حتى نزلوا أرض خثعم فتنحت خثعم عن طريقهم)[١]
و أن الذل دل الأحباش علي البيت الحرام بمكة إنما هم فرسان ثلاثة التقـــوا و جيش الأحباش بالطائف فأرادوا منعهم من دخولها و أغزوهـــم بالذهـــاب إلي الكعبة .

و نحن نكاد نشك في هذه الرواية لمخالفتها الإجماع الذي كاد ينعقد من قبـــل روات الحادثة علي أن أبرهة الحبشي لم يغادر صنعاء إلا وهو يعلم المكان الـــذي يقصده و الهدف الذي يبتغي تحقيقه ، و هو هدم البيت الحرام للأسباب ســـالفة الذكر ، و لا يقال إن الأحباش أرادوا من حملتهم الثار من العرب الذين اعتدوا علي إخوانهم في الدين اثناء تأديتهم الحج علي حد قول الرواية ، و أن المكييـــن هم المعينون لأخذ الثأر منهم ؛ لأن هذا لو صح لكانت الرواية متناقضـــة مـــع نفسها ؛ لأنها أشارت في جلاء إلي أن قصد الأحباش البيت الحرام جاء نتيجـــة تزيين بعض الفرسان لهم قصد حين أموا الطائف الأمر الـــذي يجعلنـــا نقـــول بتضعيفها ، سواء أصح هذا أم لم يصح فإن "ذونفر" أخفق في التصدي لجيـــش أبرهة فنالته هزيمة ووقع في الأسر فلما هم أبرهة بقتله قال لذونفر : أيها الملـــك لا تقتلني فإنه عسي أن يكون بقائي معك خيرا لك من قتلي فأعفاه من القتـــل ، و حبسة عنده في وثاق . و كان أبرهة رجلا حليما – ثم مضي علـــى أبرهـــة وجهة يريد ما خرج له حتى إذا كان بأرض خثعم عرض له نفيل بـــن حبيـــب الخثعمي في قبيلة خثعم : شهران ، و ناهض من تبعة من قبائل العرب فقاتلـــة

١- دلائل النبوة / ٤٣ .

فهزمه أبرهة ، و أخذ نفيلا أسيرا فأتي به فلما هم بقتله ، قال له نفيل : أيـــها الملك لا تقتلني فإني دليلك بأرض العرب "[1]

و مهما يكن من أمر فإن أبرهة سار بجيشه تحت مشارف مكة ، فأرسل الأسود بن مقصود علي خيل فدخلها و أصاب منها إبلا لعبد المطلب و لما أرسل أبرهـة رسولا إلي مكة يطلب من أهلها مقابلة زعيمهم له، خرج إليه عبد المطلـــب في بضعة من رجالة و عندما رآه أبرهة أكرمه و أحسن و فادته ، فقال لـــه عبـــد المطلب (أردد علي إبلي) فقال أبرهة (قد أعجبتني حـــين رأيتـــك) ثم قـــد زهدت فيك حين كلمتني أتكلمني في مائتي بعيرا صبتها لك و تترك بيتـــا هـــو دينك و دين آبائك فقد جئت لهدمه لا تكلمني فيه ؟ قال له عبد المطلـــب : إني أنارب الإبل و إن للبيت ربا سيمنعه قال : ما كان ليمتنع مني قال:- أنـــت و ذاك)[2]

رجع عبد المطلب إلي مكة طالبا من أهلها ترك ديارهم و اللجوء إلي جبالها و أنشأ يقول :

لا هم إن المرء يمنع رحله ** فامنع حلا لك

لا يغلبن صليبهم و محالهم ** عزوا محا لك

إن كنت تاركهم و قبلتنا ** فأمر ما بدالك[3]

١-ابن هشام / سيرة النبي / ج١ ص ٤٧ .

٢-ابن هشام / سيرة النبي ج١ ص ٥٠ ، محمد رضا (محمد رسول الله ص ١٧ ، ١٨ ابن سعد / الطبقات الكبرى ج١ ص ٩٢ .

٣- أبو نعيم الأصفهاني (دلائل النبوة) ص ٤٣ ، ابن سعد / الطبقات الكبرى ج ١ ص ٩٢ ، محمد رضا (محمد رسول الله) ص ١٨ .

فلما وصل أبرهة بجيشه إلي المغمس [١] لم يتمكن من مواصلة سيرة إلي الكعبة و لقي هناك هزيمة من الله سبحانه و تعالي ، فقد أرسل عليه هو أتباعه طيرا أبابيل رمتهم بحجارة من سجيل أهلكت السواد الأعظم منهم فآبوا إلي اليمن مدحورين و لقي أبرهة حتفه لما نزل به الطير الآبابيل .

و هذه الحادثة ثابتة في الكتاب و السنة و الشعر العربي ، فمن الكتاب قوله تعالي : (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم في تضليل و أرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول)

و من السنة ما روي عن النبي محمد – صلي الله عليه و سلم – إنه لما كان يوم الحديبية بركت ناقته القصواء دون مكة ، فقالوا : خلأت القصواء " أي حزنت فقال رسول الله – صلي الله عليه و سلم – (ما خلأت القصواء و ما ذاك لها بخلق و لكن حسبها حابس الفيل) [٢].

١- بالضم ، ثم الفتح ، وتشديد الميم ، وفتحها ، موضع قرب مكة في طريق الطائف – ابن عبد الحق / مراصد الأطلاع ج ٣ ، ص ١٢٩٣ .

٢-أخرجه البخاري وأبو داود في سننه وهو جزء من حديث مطول رواه المسور بن مخرمه ومروان / ط.مكتبة زهران – القاهرة .

- ابن حجر / فتح الباري / باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب / كتاب الشروط / ج ١١ ص ١٥٩ / سنن أبو داود / كتاب الجهاد .

و في الصحيحين بأن رسول الله صلي الله عليه و سلم قال يوم فتح مكة (إن الله حبس عن مكة الفيل و سلط عليها رسوله و المؤمنين و أنــه قــد عــادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ألا فليبلغ الشاهد الغائب).[١]

و من الشعر ما قاله الفرزدق أثناء مدحه لسليمان بن عبد الله و هجائه للحجاج :

رمي الله في جثمانه مثل ما رمي *** عن القبلة البيضاء ذات المحارم [٢]

جنودا تسوق الفيل حتى أعادهم *** هباء و كانوا مطر حمي الطراخم [٣]

نصرت كنصر البيت إذا ساق فيله *** إليه عظم المشركين الأعاجم [٤]

(الطويل) .

و علي الرغم من النص الصريح للقرآن الكريم علي أن الطيور الأبابيل هــي التي أهلكت أبرهة و جيشه فقد وجد العديد من المفسرين من يزعمون أن الريح هي التي أهلكت أبرهة و جيشه بحملها ميكروب الجدري .

١-أخرجه الشيخان في صحيحهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (وهو جزء من حديث مطول)

- ابن حجر / فتح الباري /ج١ / باب كتاب العلم / ص ٣٠٩ ،، مسلم ج٩ / كتاب الحج / باب تحريم مكة وتحريم صيدها وخلاها وشجرها ولفظتها / ص ١٢٧ / ط . محمود توفيق بشارع جوهر القائد / القاهرة .

٢- هي ما يحل لك انتهاكه أو استحلاله / ابن منظور / لسان العرب / مادة حرم / ص ٨٤٦ .

٣- المطرخم المتتلى كبرا وغضبا والطراخم جمعة – ابن هشام / سيرة النبي / ص ٦٥ / حاشية / رقم ١ .

٤- ابن هشام / سيرة النبي / ج١ ص ٦٤ .

و قد أجاب عليهم أ.د / محمد الطيب فقال : " لم يعهد في لغة العرب أن يقال عن الرياح : أنها طير الأبابيل ، أي جماعات من الطير و لا ينبغي أن يقال ذلك إلا لطريق مجازي بعيد و لا يصح أن يلجأ إلي مثل هذا المجاز ما دامت الحقيقة غير مستحيلة علي قدرة الله ، و لا يقبل أن يقال أيضا علي ذرات التراب أنها حجارة من سجيل ، أي من طين مطبوخ و هو الأحجر ، و إذا كانت الريح قد حملت مكروب الجدري ، فلماذا هلك الأحباش وحدهم و لم يهلك معهم العرب ؟ و إذا كان حادث الفيل قد وقع عام ميلاد الرسول – صلي الله عليه و سلم – فمن المعقول أن سورة الفيل قد نزلت علي الرسول في وقت كان يعيش فيه من أهل مكة أناس رأوا حادث الفيل بأعينهم ، و بعضهم من أعداء الرسول فلو لم تكن الطيور طيورا حقيقة ، و الحجارة حجارة حقيقية ، لظهر من العرب من يسارع إلي تكذيب هذه السورة ، و يعلن ذلك علي رؤوس الأشهاد و يعدها فرصة للكيد لمحمد و الطعن عليه) [1]

و هذا صحيح ، و نضيف إليه أن ما ورد في المصادر التاريخية القديمة و أمهات المؤلفات في التفسير الإسلامي من وصف لهذه الطيور [2] أمر لا ينبغي التسليم به لأن القرآن الكريم لم يصفه لنا و كذا النبي محمد – صلي الله عليه و سلم فالقول بأنها طيور سوداء أو خضراء أو بيضاء مع كل طائر حجر في منقاره و حجران في رجليه أكبر من العدسة و أصغر من الحمصة أقوال ظنية لا ينبغي التعويل عليها لأن القرآن الكريم قال (ترميهم بحجارة) دون تخصيص ثلاثة منها لكل طائر كما جاء في المصادر القديمة كما أن الاختلاف في صفة الطيور يزيد من ضعف الرواية التي يصفها لأنها لو كانت منقولة عن شهود

١- السيرة النبوية / ص ٢٦ ، ٢٧

٢- الطيور

رأوها لأجمعوا رأيهم على لون واحد لها على الأقل يقولون إنها ذات ألوان متعددة .

و من ثم فإن الذي نسلم به أن جيش أبرهة أهلك بطيور ألقت عليه حجارة من سجيل ، دون تطرق إلى تفصيل لم يفصله القرآن .

و أضعف من هذا ما ذكره جورج زيدان أن أبرهة الحبشي قد هزم أمام مكة نتيجة اتحاد أهل مكة و دفاعهم عنها و الوباء الذي أصاب جند أبرهة ؛ لأن ذلك الذي ذهب إليه يشكك في الإجماع الذي انعقدت عليه الروايات من أن أهل مكة تركوها لأبرهة ، و أن الله هو الذي ردهم عنها .

و لم تذكر رواية واحدة من بين هذه الروايات أن رجال مكة تصدوا لأبرهة و التقوا معه في معركة دارت فيها الدائرة عليه بفضل الوباء الذي نزل بجنوده .

و على هذا تعد حادثة الفيل في رأينا و ما نتج عنها من هزيمة أبرهة و حماية البيت الحرام ، بمثابة إرهاصة من الإرهاصات التي سبقت ظهور النبي محمد – صلى الله عليه و سلم –

إرهاصات أذنت بميلاد النبي :

ذكرت المصادر القديمة روايات عدة عن إرهاصات سبقت ميلاد النبي بزمن و أخرى عن إرهاصات صاحبته و هو جنين في بطن أمه و عند ولادته

فمن الأولي ما ذكر عن عبد المطلب أنه لما نزل اليمن عند عظيم من عظماء حمير ، التقى به هناك واحد من أحبار اليهود فتفرس فيه مليا ثم بادرة بقولة (يا عبد المطلب تأذن لي أن أنظر إلي بعضك ؟ قال نعم إذا لم يكن عورة قال : ففتح إحدي منخري ينظر فيه ثم ينظر إلي الآخر ، فقال: أشهد أنا في إحدي يديك ملكا و في الأخرى نبوه و إنا نجد ذلك في بني زهرة ، فكيف ذلك ؟ قلت لا أدري قال هل لك من شاغة ؟ قلت و ما الشاغة ؟ قال زوجة قلت أما اليوم فلا ؛ قال: فإذا رجعت فتزوج فيهم ، فرجع عبد المطلب فتزوج هالة بنت وهب بن زهرة فولدت حمزة وصفية ، ثم تزوج عبد الله بن عبد المطلب آمنة بنت وهب فولدت رسول الله – صلي الله عليه و سلم – فقالت قريش حين تزوج عبد الله بآمنة فلح أي فاز و غلب عبد الله علي أبيه عبد المطلب .[1]

و نحن لا نري التسليم بكل ما في هذه الرواية ، و إنما نسلم ببعض دون البعض الآخر فإن النفس تكاد لا تسكن لما تضمنته الرواية من السبب الذي جعل عبد المطلب يقصد بني زهرة كي يتزوج منهم حتى يكون من صلبة هذا النبي ، و يختار لابنه من ذاك الوقت زوجة أخري من بينهم ، لأن هذا يتناقص مع أشارت إليه الروايات التي أسلفتها أثناء الحديث غن النذر و الوفاء به فإنها أجمعت علي حقيقة مهمة و هي أن عبد المطلب بعد أن فرح بنجاة ابنه و الوفاء بنذره طفق من فوره يجول ببصرة بين عشائر قومه ليختار من بينهم زوجا لابنه عبد الله .

---

١ - ابن سعد / الطبقات الكبرى / ج١ ص ٨٦ ،، ابن كثير / البداية والنهاية ج٢ ص ٢٥١ .

فكيف و الحالة هذه يتوجه إلي بلاد اليمن ثم يعود إلي مكة ، و يتمم أمر هذا الزواج ، إلا أن يكون ذلك الأمر قد علم به عبد المطلب في إحدى رحلاتـه إلي اليمن قبل وفائه بنذره بزمن و يكون توجهه إلي بني زهرة بنـاء علـي هـذه البشارة، و هو ما لم تفصح عنه الروايات في زواج عبد الله بآمنة .

و من الإرهاصات التي سبقت ميلاده – صلوات الله و سلامة – عليـه مـا جاء في الصحيح من التواره عن صفاته – صلوات الله و سلامة عليه .

فقد سأل عطاء بن يسار[1] عبد الله بن عمرو بن العاص[2] عن صفات النـبي في التوراة فأجابه قائلا : أجل و الله إنه لموصوف في التوراة بصفتـه في القـرآن (يأيها النبي إنا أرسلناك شاهدا و مبشرا و نذيرا) و حرزا للأميين ، أنت عبـدي و رسولي ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ و لا غليظ و لا سخاب بالأسـواق ، و

١– مولى ميمونة زوج النبي – صلى الله عليه وسلم – أبو محمد ، تابعي من فقهاء المدينة ومن الذين تولوا القضاء بها – روى عن أم المؤمنين ميمونة أحاديث كثيرة ، توفى رضوان الله عليه بالمدينة ،سنه ثلاث ومائة

– ابن العماد / شذرات الذهب / ج١ ص ١٢٥ .

٢– ولد بمكة سنة سبع من الهجرة ، دخل الإسلام قبل أبيه ، كان على علم بالكتابة الجاهلية ، عارفا بالغة السيريانية ، أفرط في العبادة حتى قال له الرسول (إن لجسدك عليك حقا وإن لزوجك عليك حقا وإن لعينك عليك حقا ، فأعطي كل ذي حق حقه) له في البخاري سبعمائة حديث ، شهد له أبو هريرة بالأمانة في الرواية ، اختلف في سنة وفاته والمشهور أنه توفى سنة خمس وستين من الهجرة بمكة أو الطائف أو مصر

ابن عبد البر / الإستيعاب / ج٣ ص ٩٥٦ ،، ابن حجر / الإصابة / ج٢ ص ٣٤٢ ،، أحمد عطية الله / القاموس الإسلامي / ج ٥ ص ١٨٩ .

لا يدفع السيئة بالسيئة ، و لكن يعفو و يغفر ، و لن يقبضه الله حتى يقيم بـــه الملة العوجاء ، بأن يقول لا إله إلا الله ، فيفتح بها أعيانا عميا ، و أذنا صما و قلوبا غلفاء قال عطاء : ثم لقيت كعب الأحبار فسألته فما اختلفنا في حرف إلا أن كعبا يقول بلغته . (أعينا عموما و آذنا صموما و قلوبا غلوفا) أخرجه البخاري عن العوفي عن مليح . [1]

و قد حفلت مصادر التاريخ الإسلامي بروايات كثيرة لإرهاصات حدثـــت قبل الميلاد بزمن مثل قصه سواد بن قارب و الرؤيا التي رآها قبل ميلاد النبي مـا كان يقول به اليهود . في المدينة قبل و لادته و غيرها ممن أضربت عنه ذكـــرا ؛ لكون ما أوردته كافيا للوفاء بالغرض الذي أعد من أجله هذا المؤلف .

و من الثانية ما ذكرته المصادر القديمة من أن آمنة لم تشعر بإعياء جســـدي أثناء حملها بالنبي محمد- صلي الله عليه و سلم – و أنها كانت ترى النور يخـرج منها ليضيئ ما بين المشرق و المغرب ، و تري مع ذلك كله من يبشـــرها بخـــير ينتظر هذا المولود العظيم [2]

و أن آمنة لما ولدت النبي صلي الله عليه و سلم خرج منها نور أضاء لها قصـور بصري و أن صلوات الله و سلامة عليه نزل إلي الأرض مسرورا مختونا نظيفـا ، وليس به شيئ مما يخرج مع الطفل عند ولادته !!

١- الحافظ الذهبي / السيرة النبوية / ص ٤٩ .

٢- ابن الأثير / الكامل / ج١ ص ٤٥٩ ،، مروان محمد وآخر / السيرة النبوية / ص ٦٥ ،، عبد العزيز غنيم / فلسفة السيرة / ص ٥٩ .

و قد روي عن النبي محمد – صلي الله عليه و سلم – ما يصـــدق خـــروج النور عند ولادته فذكر أحمد و غيره عن العرباض بن سارية عن النبي محمــد – صلي الله عليه و سلم – قال: (إني عند الله في أم الكتاب لخاتم النبيين و إن آدم لمنجدل في طينية و سوف أنبئكم بتأويل ذلك ، دعوة أبي إبراهيـــم و بشـــارة عيسي قومه ورؤيا أمي التي رأت أنه خرج منها نور أضاءت لها قصور الشام)[١]

و ذكروا عن النبي محمد –صلي الله عليه و سلم – أنه لما ولد قبـــض بيـــده حفنة من تراب الأرض ، و أنهم عرضوا ذلك علي بعض الرجال فتنبأ بأن هـــذا المولود سيكون له شأن عظيم "[٢]

و من الإرهاصات التي حدثت ليله مولودة ما ذكرته المصادر القديمـــة مـــن إرتجاس إيوان كسري و سقوط أربع عشرة شرفة منه و خمود نيران فـــارس و لم تخمد قبل ذلك بألف عام ، و فاضت بحيرة ساوة ، و رأى الموبذان إبلا صحابـا تقود خيلا عرابا قد قطعت دجله و انتشرت في بلادها ، فلما أصبح كســـري أفزعه ذلك ، فلما قص كسري ما رأي علي مرازبنه قال له الموبـــذان : و أنـــا أصلح الله الملك قد رأيت في هذه الليلة رؤياه ثم قص عليه رؤيا في الإبل .
فقال : أي شيْ يكون هذا يا مولود ان قال : حدث يكون من ناحية العـــرب .
فكتب كسري إلي النعمان بن المنذر رسالة يطلب فيها منه إرسال مـــن يـــراه

١- ابن كثير / البداية والنهاية / ج٢ ص ٢٦٥ ،، ابن عبد الوهاب / مختصر سيرة الرسول ص ٥ ،، الناجي / سيرة النبي العربي / ج١ ص ٦٠ .
٢- ابن سعد / الطبقات الكبرى / ج١ ص ١٥٠ ،، مروان محمد وآخر / السيرة النبوية / ص ٦٥ .

جديرا بتفسير الرؤيا التي رآها ، فأرسل النعمان عبد المسيح بن عمرو الغساني الذي قال لكسري فارس ، إنه يوجد من هو علي علم أكثر مني بتعبير رؤياك

و سار عبد المسيح إلي سطيح طالبا منه تعبير رؤيا كسري فارس حتى يعود إليه بتفسير ما رأى فقال سطيح طالبا يا عبد المسيح بعثك ملك ساسان لارتجاس الإيوان و خمود النيران و رؤيا الموبذان ، - رأى إبلا صعابا تقود خيلا عرابا قد قطعت دجله و انتشرت في بلادها يا عبد المسيح إذا كسرت التلاوة و ظهر صاحب الهرواة و فاض وادي السماوة و غاضت بحيرة سارة و خمدت نلو فارس فليس الشام لسطيح شاما يملك منهم ملوك و ملكات علي عدد الشرفات و كل ما هو هو آت آت " [١]

الباحثون المحدثون و الإرهاصات :

بعد أن عرضنا بإيجاز إلي أبرز الإرهاصات . التي قيل إنها حدثت قبل الميلاد و أثناءه للنبي محمد صلي الله عليه و سلم – يحسن بنا أن نعرض لآراء ، الباحثين في هذه الإرهاصات فمنهم من رفضها ، و منهم من قبل البعض دون البعض و فريق ثالث آمن بها كلية .

أما الفريق الأول فيمثله الغزالي الذي قال في معرض تعقيبه علي هذه الإرهاصات (و هذا الكلام تعبير غلط عن فكرة صحيحة فإن ميلاد محمد كان

١- أبو نعيم الأصبهاني / دلائل النبوة / ص ٤٢ ، ابن سيد الناس / عيون الأثر / ج١ ص ٢٨ ،، الذهبي / السيرة النبوية / ص ١١ ، ١٢ ،، مروان محمد وآخر / السيرة النبوية ص ٦٥ .

حقا إيذانا بزوال الظلم و اندثار عهده و انفكاك معالمه و كذلك كان ميـــلاد موسى ، ألا تري أن الله لما وصف جبروت فرعون و استكانة الناس إلي بغيـة ثم أعلن عن إرادته في تحرير العبيد و استنقاذ المستضعفين قص علينا قصة البطـــل الذي سيقوم بهذه الأعمال فقال : " و أوحينا إلي أم موســى أن أرضعيـه ... و قد كانت رسالة محمد بن عبد الله أخطر ثورة عرفـها العـالم لتحرر العقلي ، و كان جند القرآن أعدل رجال و عاهم التـاريخ و أحصـي فعالهم في تدويخ المستبدين و كسر شوكتهم . ... ، فلما أحب الناس بعـد انطلاقهم من قيود العسف تصوير هذه الحقيقة تخيلوا هذه الإرهاصات و أحـد ثوا لها الروايات الواهية، و محمد غني عن هذا كله فإن نصيبه الضخم من الواقـع المشرف يزهدنا في هذه الروايات و أشباهها) [1]

و من الذين انتصروا لهذا الرأي أ.د/ محمد الطيب النجار الذي قال: (و نحـن نزيد علي ما قاله الشيخ الغزالي أن معظم الكتب الأصلية في التاريخ و السـيرة و كتب السنة الصحيحة لم تذكر هذه الإرهاصات فيما ذكـرت مـن سـائر الإرهاصات و المعجزات التي رويت عن الرسول صلي الله عليه و سلم – ومثـل هذه الحوادث الخطيرة لا يمكن إغفالها إذا وقعت ، و لو أن أعداء الإسلام رأوها لما أنكروها بل كانوا يسجلونها في كتبهم التي أرخوا فيها لتلك الفترة و يقولـون عنها إنها ترجع إلي أسباب كونية و عوامل طبيعية و يحاولون أن يلتمسوا لهـذا أي تعليل يخرج بها عن إثبات الفضل لمحمد ولدينه ، و لكن شيئا من ذلك لم يكـن و بهذا يصبح واضحا أن مثل هذه الروايات لا تحمل من أسباب القوة ما يجعلنـا نطمئن إليها و نرجح و قوعها " [2]

١- فقه السيرة / ص ٦٠

٢- السيرة النبوية / ص ٣٩ .

فإذا ما ولينا وجهنا شطر المستشرقين وجدنا منهم من ينتصر لـــرأي هـــذا الفريق مثل " بودلي " الذي قال عن الإرهاصات التي حدثت لآمنة أثناء حملـــها ووضعها للنبي (لا يوجد أسرار تحيط بمولد النبي إذا استثنينا عدة خرافـــات لا يقبلها عقل : فما كان هناك بتأثير علي أنه المصطفي من الله و لا زارت الملائكة أمة قبل مولدة و لا بشرتها بقدومه و إنما حملته أمة ووضعته كما تحمل كل أنثي و تضع)[١]

و نحن نري أن هذا الفريق قد بني رأيه علي أساس أن هذه الإرهاصـــات لم يرد لها ذكر في الكتاب و السنة ، و أنها لو حدثت لشاعت بين الناس ، وأنهـــا اختلقت لتزيد من مكانة النبي محمد بين المسلمين مع عدم حاجاته إلي ذلـك ، و هذا صحيح إلا أني لا أستطيع الجزم بعدم وقوع ما يتعلق منها بآمنة أثناء حملـها بالنبي محمد — صلي الله عليه و سلم .

فالرؤيا التي رأتها لا تعدو عن كونها انعكاسا نفسيا للحالة التي عاشتها إثـــر وفاة زوجها ثم ما العجب في ذلك ، و الله سبحانه و تعالي قد كفل العنايـــة و الرعاية لهذا النبي منذ أن كان في أصلاب أجداده و علي هذا فإن رؤياها للنـــور و الملائكة تكون بمثابة طمأنة من الله لها حتي تضع مولودها في أحســـن حالـــة تعيشها امرأة لم يتوف عنها زوجها و لم تعدم رعايته لها .

و قد انبري أحد الباحثين للرد علي إنكار هذا المستشرق و من دار في فلكـه للإرهاصات التي حدثت لآمنة فقال : (إن المستشرقين يعرفون جيدا أن النبـــوة لا تقاس بالعقل أبدا و لذلك قبلوا المعجزات و الخوارق في حق أنبيائهم ، أمـــا

١- عبد العزيز محمد عزام / محمد الرسول الأعظم / ص ٣٣ .

عند الحديث عن نبي الإسلام ، فإنهم لم يقبلوا ذلك ليس احتكاما إلي المنهج العقلي –كما خدع البعض منا – و لكن لأنهم ينكرون نبوته أصلا .

أيهما أصعب في ميزان العلم و العقل ، أن تلد أنثي بغير معاشرة مع رجل ، أو أنثي لا تشتكي ألما في حملها أو رضعها لقد حدث الشيء الأول ، لسيدة نساء العالمين و أطهرهن السيدة مريم البتول الطاهرة فأنجبت سيدنا عيسي من غير أب و آمنا بذلك إيمانا مطلقا ؛ لأن الله تعالي أسند الفعل لنفسه ، و إذا أسند الفعل إلي الله – سبحانه فقد بطلت كل الحجج و البراهين للعقلين و العلميين معا ، و المستشرقون آمنوا أيضا بذلك إيمانا مطلقا المسيحيون منهم خاصة بل إن تلك المعجزة كانت مفتحا لهم لكي يقولوا في حق سيدنا عيسي –عليه السلام –ما لم يقله الله عنه من أنه ابن الله أو هو الله علي اختلاف بينهم ، وتشككوا حينما قالوا علي السيدة آمنة أم رسولنا–عليه الصلاة و السلام – أنها لم تحس بالآم الوضع و الحمل لرسول الله ، فأي الأمرين أقرب إلي العقل و العلم ، إن القضية كما هي واضحة و كما كررنا ذلك مرارا ليست منهجا علميا أو عقليا احتكموا إليه ، و إنما الأمر يتعلق بإيمانهم بالنبوة نفسها فلو أنهم آمنوا برسالة سيدنا محمد ، لقبلوا كل ما قيل عن إرهاصات مولده).[١]

أما الفريق الثاني فيمثله د. عبد الرازق الذي وقف محللا و مدققا في كل خبر تضمن واحدة من الإرهاصات التي أومأت إلي العديد ، منها ، فقبل البعض ورفض البعض فنراه لا يرى غضاضة في قبول ما وقع منها لآمنة أثناء حملها بالنبي محمد وولادته نظيفا فيقول : إن النبوة كلها طهره و نظافة مادية و نفسية معا ، و محمد خاتم الأنبياء و قد خصه الله بالكمالات كلها و أذهب عنه

١– مروان شاهين وآخر / السيرة النبوية / ص ٧٤ ، ٧٥

الرجس .و الخبث ، و بجئ ميلاده – صلي الله عليه و سلم – علي تلك الصفة هو بعض ما ينبغي أن يكون له في مولدة و من المتوقع كثيرا أن تري آمنة رؤى و أحلاما تملأ قلبها سعادة ورضى بما في بطنها ، و قد احتوي الخير كله و اشتمل عليه ، بل إنه لمن المحقق أن تجد ريح النبوة تملأ عليها حياتها طمأنينة و رضي ، و يفيض عليها الروح و الراحة في يقظتها و نومها ؛ فالأنبياء أكمل خلق الله ، و محمد خاتمهم و أفضلهم ؛ فهو أولي عند الله بكل فضل و كمال. و ينبغي أن يفوح عبير النبوة و هم أجنة في بطون أمهاتهم ، أو مواليد في مهد الطفولة ، ومحمد منهم فلا تستغرب العقول مما وقع ، و ليس لأحد أن يدفع النفحات الطيبة التي يجدها أولئك الذين اتصلوا بالأنبياء اتصال حياة كالأباء و الأمهات ، أو اتصال مخالطة كالزوجات ، أو اتصال مصاحبة كالأتباع .

أما الإرهاصات التي وقف منها موقف الرافض فهي رؤيا آمنة لنور يخرج منها ، ليضئ قصور بصري ، فطفق يتساءل عن سبب اتجاه النور إلي بصري بالذات .

و لما لم تكن الرؤيا في دائرة متكاملة علي جميع الجهات ، أو إذا كانت وجهه النور هي الشمال إلي بصري فلما لم ينكشف لها بيت المقدس ؟ و هو أولى القبلتين ، و فيه المسجد الأقصى ؟)[1]

و نحن نميل إلي الأخذ بما ذهب إليه الأستاذ الكبير في تعليله قبول بعض الإرهاصات ، و نختلف معه في إثارته الشكوك حول النور الذي رأته آمنة و اتجاهه إلي بصري من أرض الشام دون غيرها .

١- تاريخ العرب وصدر الإسلام ص ١٢٦ ، ١٢٧

فإن التساؤلات التي طرحها أجابت عليها العديد من المراجع ، من ذلــك مــا ذكره ابن عبد الوهاب (أن خروج النور عند وضعه إشارة لما يجئ به .
النور الذي اهتدي به أهل الأرض و زالت به ظلمة الشرك ، قال تعالي : (لقــد جاءكم من الله نور و كتاب مبين ، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام) [١]

و أما إضاءة بصري بالنور الذي خرج منها فهو إشارة إلي ما خص الشــام من نور نبوته ، فإلها دار ملكة كما ذكر كعب : أن في الكتب السالفة محمــد رسول الله مولدة بمكة و مهاجرة يثرب و ملكة الشام .

و لهذا أسري به إلي الشام إلي بيت المقدس كما هاجر إبراهيم عليه الســلام- إلي الشام . و بها يترل عيسي بن مريم – عليه السلام –و هي أرض المحشــر و المنشر) [٢]

و أما الفريق الثالث الذي دعا إلي الإيمان بحدوث هذا الإرهاصات ؛ إذا ليـس من داع يدعونا إلي رفضها فيمثله أ.د / عبد العزيز غنيم الذي انبرى لمناقشــة أدلة الفريق الأول فقال (و ظاهر من هذه الأدلة ألها واهية و غير وافيه بــالغرض الذي سقيت من أجله فقد سجل الطبري و غيرة أن كسري و عمالة قد شـغلوا بهذه الآيات ، و أن النعمان بن المنذر قد بعث إليه من الحيرة من يفتيه في شـألها . و أن سطيح و عبد المسيح و غيرهما من كهان العرب و عرافهم قد تنبؤا بمــا تشير إليه من ظهور النبي و زوال الملك الفارسي و حجة ثانيه و هي أن الحـافظ

١- سورة المائدة / آية رقم ١٥، ١٦

٢- مختصر سيرة الرسول / ص ٥

ابن كثير قد صحت لديه هذه الآيات و اعتبرها ضمن دلائل النبوة ، و ذكر في البداية و النهاية من صحيح أسانيدها من أئمة الحديث و حفاظ السنة ، و يبقى استغناؤه (عليه الصلاة و السلام) بماله من المزايا و المناقب ،و هذا حق ؛ و لكن هذه الآيات أدلة تضاف إلي براهين صدقة و تنبئه من قبل ربه ، و قد جرت السنن الإلهية بالإرهاصات إلي الرسل و الأنبياء من لدن خروجهم إلي الحياة ، و أنت تري هذا واضحا فيما سجله التاريخ حول ميلاد إبراهيم و موسى و عيسى ، فلما يكون ما سجل حول ميلاد هؤلاء . الأنبياء حقا و صدقا ، و يكون ما سجل حول ميلاد محمد – عليه الصلاة و السلام – زورا و إفكا ؟!) [1]

و الرأي الذي نرتضيه لأنفسنا هو أن الحكم علي حدوث واحدة من الإرهاصات دون غيرها ، أو نفيها كلها ، أو الأخذ بها علي سبيل اليقين أمر ينبغي أن يكون له ضابط متفق عليه بين الباحثين المحدثين ، فلا يكفي في نظرنا ورود الإرهاصة في مصدر من مصادر التاريخ الإسلامي دليلا للإيمان بها ، و إنما الذي ينبغي التعويل عليه هو معاملة رجال السنة الخاص بالخبر عن كل إرهاصة ، معاملة رواة الحديث لنقف علي ذوي الثقة منهم ، أولئك الذين جرحوا أو حامت حولهم هذه الشبهة.

و من ثم فإن النفي أو الإثبات يكون مبررا بقاعدة علمية مجمع عليها من قبل أئمة علماء المسلمين .

١- فلسفة السيرة / ص ٦٢

و القول بأن العقل هو الذي يمكنه قبول البعض أو رفض البعض الآخر أو عدم تسجيل بعض الإرهاصات في المصادر القديمة و التعليل . لحدوثها بسبب من الأسباب أمر لا يستقيم ، ذلك أنها عندما حدث بعضها قبل ميلاد النبي بزمن علي غرار رؤيا الموبذان و ارتجاس الإيوان ليلة ميلاده – علية السلام- لم يكن أحد علي علم بميلاد النبي محمد في هذه الليلة حتى يتخذها المؤمنون دليلا علي صدق دعوه نبيهم ، و المعارضون لنفي هذا و التعليل لحدوثها لسبب كوني كما ذهب أصحاب الرأي الأول .

و لئن قال قائل إن بعض هذه الإرهاصات التي حدثت قبل الميلاد و ليلته منسوبة إلي بعض اليهود ، و هم أهل الكتاب ، و هذا يدعونا إلي الإيمان بها قلنا له يجب الأخذ بما قاله هذا اليهودي في حالة وصوله إلينا عن سند مشهور له بالإسلام و العدالة ، و خلا ذلك يجب أخذ الحيطة منه ، لأن كثيرا من الطاعنين في هذا الدين الحنيف ينقضونه من خلال هذه الأخبار التي هي للخيال أقرب منها إلي الواقع ، علي غرار حديث وحوش البر لبعضهم البعض عن النبي ليلة ميلاده ، و قولة تعالي : (الذين آتياهم الكتاب يعرفونه كما يعرفونه أبناءهم و إن فريقا منهم ليكتمون الحق و هم يعلمون)[1] ، يؤكد لنا أن أهل الكتاب الذين جحدوا دعوة النبي محمد حجبوا أو حرفوا معظم النصوص الواردة في كتبهم عن النبي محمد ، و الإرهاصات التي تصحبه ، إلا من آمن منهم بهذا النبي ، فإنه أخبرنا بوجود نصوص في التوراة عن النبي محمد وصل بعضها إلينا عن طريق صحابي جليل هو عمرو ، كما أو مأت إلي ذلك أثناء

١- سورة البقرة آيه رقم ١٤٦.

حديثي عن الإرهاصات ، و من ثم سلمنا بها لورودها إلينا عن طريق صحيـح لم تشبه شائبة .

و القول بأنة يجب علينا الإيمان بها قياسا علي ما وقع للأنبياء السابقين مثـل إبراهيم و موسى و عيسى ينطبق علي هذه الإرهاصات في حالـة ورود نـص عليها في القرآن الكريم ، أو من النبي محمد كما ذكر في أمر الأنبياء و الرسل .

و هناك معجزات حدثت للنبي محمد بعد بعثته ، نص عليها القرآن ، فـأخذ بها علماء المسلمين، كأنشقاق القمر و خروجه من بيته صلوات الله و سـلامة عليه مهاجرا إلي المدينة ، دون رؤية جماعة المشركين المحاصرين له .

و من ثم فإن القياس مرفوض إذا خلا من قاعدة السند التي أسـلفت الحديـث عنها .

مولد النور :

الذي لا مراء فيه أن آمنة بنت وهب رضوان الله عليها مرت عليها أيـام حملها به –صلوات الله و سلامة عليه – خفيفة لم تعان أثناءها ما تعانيه النسـاء ، حتى حان وقت الوضع، فخرج النبي محمد من بطن أمة علي أكمل و أحسـن هيئة ، فعم النور أرجاء المكان ، و حل السرور علـي الحضـور ، و كـانت ولادته- صلوات الله و سلامة عليه – في شعب بني هاشم (مكان معروف عند أهل مكة) يخرجون إليه في كل عام ، يحتفلون بذلك أكثر من احتفالهم بيـوم العيد إلي يومنا هذا في الدار التي كانت لمحمد بن يوسف أخي الحجاج).

و لما بعث النبي محمد [1] بزمن وهب الدار لعقيل بن أبي طالب ، فلم تـــزل في يد عقيل حتى توفي فباعها ولده من محمد بن يوسف أخي الحجاج ابن يوســـف فبني دارة التي يقال لها دار ابن يوسف ، و أدخل البيت في الدار ، حتى أخرجتـه الخيزران [2] فجعلته مسجد يصلي فيه) [3] .

و علي أية حال فإن آمنة لما تمت وضع مولودها أرسلت من فورهـــا إلي جـــده عبد المطلب بالبشري ، و كان جالسا في الحجر مع رجال قومه فأخـــبروه أن آمنة ولدت غلاما ، فسر لذلك عبد المطلب ، و قام هو و من كان معه فدخـــل عليها فأخبرته بكل ما رأت ، و ما قيل لها ، و ما مرت به ، قال : فأخذه عبـــد المطلب فأدخله الكعبة و قام عندها يدعو الله و يشكر ما أعطاه .

و قد روي أن عبد المطلب قال بعد رؤيته لحفيدة و هو في المهد :

الحمد لله الذي أعطاني *** هذا الغلام الطيب الأردان [1]

قد ساد في المهد علي الغلمان *** أعيزه بالله ذي الأركان

حتى أراه بالغ البنيان *** أعيزه من شرذى شنآن

من حاسد مضطرب العنان [4]

١- كان واليا علي صنعاء جمع المجذومين فيها و أراد إحرا قهم بالحطب بيد أن المنيه حالت بينه و بين ذلك ، حيث توفي بالمدينة المذكورة سنه إحدى و تسعين هجرية . الذهبي / دول الإسلام / ج١ ص٦٣ ،، و عبد السلام الترياتني / أزمة التاريخ الإسلامي / ق١ م٢ ص ٨٦١.

٢- بنت عطاء زوجة الخليفة المهدي العباسي ، و بربرية الأصل ، و قيل يا منية تزوجها الخليفة المهدي بعد اعتاقها ، تقلص نفوذها بعد وفاة زوجها الخليفة بسبب حزم الهادي ، توفيت في خلافة الرشيد ، و دفنت بمقابر قريش — عبد السلام الترياني / أزمنة التاريخ الإسلامي ٢٣ ج ٣ ص ٩٧٣ ، ٩٧٤

٣- الطبري / تاريخ الأمم و الملوك / ج٢ ص ١٥٦ ،، رفاعة الطهطاوي / نهاية الإيجاز / ج١ ص ٦ .

١- ابن سعد / الطبقات الكبرى / ج١ ص ١٠٣ ،، محمد بن يوسف الصالحي " سبل الهدى و الرشاد " / ج١ ص ٤٣٧.

و قد اختلف المؤرخون فيما بينهم حول أول من سماه محمدا ، فمنهم من يقول إن آمنة رأت في منامها أثناء حملها بالنبي محمد – صلى الله عليه و سلم من يبشرها بمولد ذكر سيكون له شأن ، و يقول لها عندما تضعينه قولي : " أعوذ بالله من كل حاسد " و أمرها أن تسميه محمدا ، و عندما جاءها عبد المطلب إثر علمه بولادة النبي محمد قصت عليه ما رأت ، و لذلك سماه محمدا [١]

و منهم من يقول أن الذي سمي النبي محمدا هو عبد المطلب ، و عللوا هذه بأن عبد المطلب رأي قبيل بعثه النبي محمد ، كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره لها طرف في السماء ، و طرف في الأرض ، و طرف في المشرق ، و طرف في المغرب ، يتعلقون بها فقصها ، فعبرت له بمولود يكون من صلبة يتبعه أهل المشرق و المغرب ، و بحمده أهل السماء و الأرض فلذلك سماه محمدا .[٢]

وسواء صحت هذه الرواية أو تلك ، فإن المستخلص من الروايتين يوقفنا بلا ريب علي أن هذه التسمية كانت إلهاما من الله سبحانه و تعالي لآمنة أو لعبد المطلب .

و من المؤرخين المحدثين من يرجع أن التسمية كانت إلهاما من الله للجد فقال (إن العوامل التي جعلت هذا الاسم يخطر ببال الجد لا تزال غامضة ، و قد يسعنا ألا نتجاهل التوجيه الإلهي في اختيار الاسم مما عرف عن عبد المطلب من النزعة الروحية ، و اشتهاره بالتوفيق و الإلهام الإلهي في كثير من الأمور المهمة التي كان لها أثر كبير في تكوين مركز ممتاز له ببين العرب ، فقد عرف عنه أنه

١- ابن هشام / سيرة النبي / ج١ ص ١٧٢ ،، صفي الرحمن المباركفوري / الرحيق المختوم / ص ٦٢ ،، الشامي / تاريخ العرب و الإسلام / ص ١٥٠ ،، عبد الرازق الطنطاوي / تاريخ العرب و صدر الإسلام / ١٢٤ .

٢- ابن سيد الناس / عيون الأثر / ج١ ص ٣٠ ،، محمد يوسف الصالحي / سبل الهدي و الإرشاد / ج١ ص ٤٣٨ .

اهتدي بفيض من الإلهام النفسي إلي مكان زمزم ، و موقفه من أبرهة صـــاحب الفيل بالرغم من أنه كان مزريا بعبد المطلب في أول الأمر .

إلا أنه كان مثار دهشة العرب و إعجابهم بعد أن تمت الهزيمة بالجيش المغـير ، و علي ذلك يمكننا أن نقول إن عبد المطلب حين سمي حفيدة محمدا كان يقـــرأ صحف الغيب و سطور المستقبل أو نتيجة شعور بما قد يكون لهذا المولود مـــن المستقبل ، كما كانت هذه التسمية إحدى الخطوات التمهيدية الأولي في تكوين النبي المنتظر ، و تنشئته نشأه محبوكة النواحي منذ أول يوم اتصل فيه بـالوجود ، و لم يكن قد عرف أن عبد المطلب سمع من أحبار اليهود بأن نبيا سيبعث قريبـا للعرب يكون اسمه محمدا ، فسماه لذلك إنما التعليل ما ذكرناه أولا).[١]

علي أن هذا يخالف ما جاء في معظم المصادر من أن العرب لم يكونوا علـي علم بتسمية محمد إلا قبيل ميلاده بزمن يسير ، لما سمعوه من أهل الكتاب عــن اقتراب ظهور رجل هو خاتم الأنبياء يسمي محمدا .

١-عبد الرازق الطنطاوي / تاريخ العرب و صدر الإسلام / ص ١٣٢ .

و من ثم سمي نفر منهم أولادهم باسم محمد ، و من الذي سموا بمحمد رغبة في نيل شرف النبوة : محمد بن أحيحة بن الجلاح الأوسى ، و محمد ابن مسلمة [١] الأنصاري و محمد بن البراء الكندي ، و محمد بن سفيان ابن مجاشع ، و محمد بن حمران الجعفى ، و محمد بن خزاعى السلمي [٢].
و لا سابع لهم "[٣]

و يقول بن كثير تعقيبا علي هذا (إن الله حمي كل من تسمي به أن يدعي النبوة أو يدعيها له أحد ، و يظهر عليه سبب بشكل أحد في أمره حتي تحققت الشيمتان له- صلي الله عليه و سلم لا ينازع فيها)[٤]

و قد عرف صلوات الله و سلامة عليه بأسماء أخرى منها ما جاء به القرآن كطه، ياسين ، ومحمد ، و منها ما أخبرنا بها النبي محمد – صلوات الله عليه و سلم فقد روي عنه أنه قال : (لي خمسة أسماء أنا محمد ، و أنا أحمد ، و أنا الماحي ، الذي يمحو الله به الكفر ، و أنا الحاشر ، الذي يحشر الناس علي قدمي ، و أنا العاقب ، الذي ليس بعدي نبي) .

١-الحارث أبو عبد الرحمن ، اشترك في قتل كعب الأشراف ، شهد فتح مصر ، و كان علي رأس الجيش الذي فتح الشام ، ناصر عثمان بن عفان و امتنع عن بيعة علي – رضوان الله عليه –لم يشهد الجمل وصفين ، توفي بالمدينة سنة ٣٧هـ ابن الأثير / أسد الغابة / ج ٢٢ ص ٨٥٦ ، ٨٥٧،، ابن العماد الحنبلي / شذرات الذهب / ج١ ص ٤٤ .

٢- ذكر ابن الأثير أن هذه الرواية موضع شك (فإن سفيان بن مجاشع و من ذكروا معه أقدم عهدا من رسول الله صلي الله عليه و سلم بكثير فأما أحيحة ابن الجلاح أخو بني حججبا فإنه كان تزوج أم عبد المطلب وهي سلمى بنت عمر مع طول عمر عبد المطلب مع الطول عمر بن عبد المطلب ؟ فكيف يكون ابنه مع النبي محمد صلي الله عليه و سلم ؟ بعيدا وقوعه

٣- ابن سيد الناس / عيون الأثر / ج١ ص ٣١،، ابن كثير / البداية و النهاية / ج٢ ص ٢٥٩،، رفاعة الطهطاوي / نهاية الإيجاز / ج١ ص ٦ .

٤- البداية و النهاية / ج١ ص ٢٥٩ .

(وروي حجين بن المثني أبو عمر صاحب اللؤلؤ عن عقبه بن مسلم عـــن نافع بن جبير، أنه دخل علي عبد الملك بن مروان ، فقال له ، أتحصي أسمـــاء رسول الله- صلي الله عليه و سلم التي كان جبير يعني ابن مطعم يعدها ؟ قال : نعم ، هي ستة محمد و أحمد و خاتم و حاشر و عاقب و ماح ، فأمـــا حاشـــر فبعث مع الساعة نذيرا لكم بين يدي عذاب شديد ، و أما العاقب فإنه عقـــب الأنبياء ، و أما الماحي فإن الله محا به سيئات من تبعه . [١]

و من القضايا التي ما تزال تواجه الباحثين في سيرة النبي محمد – صلـــي الله عليه و سلم قضيه التاريخ لميلاده صلوات الله وسلامة عليه ، فقد تعـددت الآراء حول اليوم و الشهر العام الذي ولد فيه المصطفي ، و يعزي هذا الخـــلاف إلي الأمية التي كان يعيشها العرب ، فلم يكونوا يعنون بتدوين تاريخ ميلاد أبنـاءهم ، فمهمتهم لم تكن منصرفة إلا لحفظ الأنساب للإستعانة بها وقت الأفـــراح أو الملمات ، و لسوف نعرض لهذه القضية من خلال تقسيم المؤرخين القدامـــى و المحدثين إلي فريقين فريق ذهب إلي أن عام الفيل هو العام الذي ولد فيه النـــبي بغض النظر عن خلافهم في الشهر و اليوم .و فريق قال بميلاد النبي قبـــل عـــام الفيل أو بعده .

أولا : القائلون بولادته صلي الله عليه و سلم في عام الفيل :

ضمت المصادر القديمة للتاريخ الإسلامي روايات عديدة ذات أسانيد قويـة ، تثبت أن النبي محمدا ولد في عام الفيل ، فقد روي الطبري (إن عثمان بـــن عفان سأل قباث بن أشيم أخابني عمرو بن ليث أنت أكبر أم رسول الله عليـه و

١- ابن سعد / الطبقات الكبرى / ج١ ص ٣٠، رفاعة الطهطاوي / نهاية الإيجاز / ج١ ص ٦٠.

سلم قال رسول الله صلي الله عليه و سلم – أكبر مني و أنا أقدم منه في الميلاد"، و رأيت خذق الفيل أخضر محيلا بعده بعام ، و رأيت أميه بن عبد شمس شيخا كبيرا يقوده عبده ، فقال ابنه : يا قبات أنت أعلم ما تقول ، حدثنا ابن حميد قال عن ابن إسحاق قال ولد رسول الله عليه و سلم . عام الفيل لا ثنتي عشرة مضت من شهر ربيع الأول).[١]

و قال قيس بن مخرمة : ولدت أنا و رسول الله صلي الله علية و سلم- يوم الفيل فنحن لدان ، و قيل بعد الفيل بشهر ، و قيل بأربعين يوما ، و قيل بخمسين يوما) .

و ذكر أبو بكر الخوارزمي أنه صلوات الله و سلامة عليه ولد بعد مجئ الفيل إلي مكة بخمسين يوما في يوم الإثنين لثمان خلت من ربيع الأول و ذلك يوم عشرين من نيسان " أبريل " .[٢]

و قد ضعف ابن كثير ما نسب إلي النبي محمد – صلي الله عليه و سلم من قول أجاب به علي أحد الأعراب عندما سأله عن صيام يوم الإثنين فقال (ذاك يوم ولدت فيه و أنزل عليه فيه) كما لم يقبل الحافظ أن يكون الجمعة السابع عشر من ربيع الأول هو الذي ولد فيه النبي محمد ، اعتمادا علي تضعيف ابن دحية له ، و قال ابن كثير إن هذا التاريخ جدير بالتضعيف لمخالفته النص ، كما لم يرتض الآخذ برواية الزبير بن بكار التي تقول إن النبي محمدا صلي الله عليه و سلم ولد في رمضان علي أساس أنه صلوات الله و سلامه عليه بعث

١- الطبري / تاريخ الأمم و الملوك / ج ٢ ص ١٥٥ .

٢- ابن سيد الناس / عيون الأثر / جا ص ٢٧، المقريزي / إمتاع الأسماع / ج٢ ص ٣١، الطهطاوي / نماية الإيجاز / ج١ ص ٥ .

علي رأس الأربعين ، و لما كان القرآن قد نزل عليه في رمضان فإنه يكون قـــد ولد في ذلك الشهر من أربعين سنة مضت .[1]

و من المؤرخين من أراد البرهنة علي صحة القول الذي يقول إنه صلـوات الله و سلامة عليه – ولد في عام الفيل فقال : و لا خلاف أنه صلي اله عليه و سلم ولد بمكة عام الفيل ، و كان وقعة الفيل تقدمه ، قدمها الله لنبيه و بينـــة ، و إلا فأهل الفيل نصارى أهل الكتاب ، دينهم خير من دين أهل مكة ؛ لأنهم عبـــاد أوثان ، فنصرهم الله نصرا لا صنع للبشر فيه ، تقدمه للنبي الذي خرج من مكـة و تعظيما للبلد الحرام) [2]

و من المستشرقين من أيدوا ولادته في عام الفيل مثل الدكتور " أغســطنيوس مولي " الألماني الذي قال في كتابه (حياه محمد) أن التاريخ الأصـــح هـــو أن محمد ولد سنه ٥٧٠ م هذه الحادثة معروفة من الكتب المسطورة و بينه و بـــين حادثه الفيل خمسون يوما " [3]

ثانيا : القائلون بولادته في غيرعام الفيل :

أما الروايات التي جاءت في المصادر القديمة ، و التي أرخت لميلاده بعد عـام الفيل ، فهي قليلة نسبيا في عددها بمقارنتها بروايات الفريق الأول ناهيك عـــن ضعف أسانيدها .

١- البداية و النهاية / ج٢ ص ٢٦١.

٢- ابن عبد الوهاب / مختصر سيرة الرسول / ص ٠١.

٣- خليل ياسين / محمد عند علماء العرب / ص ١٩.

و منها ما روي عن موسى بن عقبه [١] عن ابن شهاب ، قال: بعث الله محمـــــدا صلي الله عليه و سلم – علي رأس خمس عشرة سنة من بنيان الكعبة ، و كـــان بينه و بين بعثه و بين أصحاب الفيل سبعون سنه ، و منها ما روى عن يعقوب القمى عن جعفر بن أبي المغيرة بن أبزى ، قال : كان بين الفيل و مولد رســـول الله صلي الله عليه و سلم – عشر سنين .

و قد روى شعيب بن شعيب عن جده أن النبي محمدا ولد يوم الإثنين لثنـــتي عشر ليله خلت من رمضان سنه ثلاثة و عشرين من غزو أصحاب الفيل .[٢]

و قد فتحت هذه الروايات الباب علي مصراعيه للمستشرقين للإدلاء برأيـهم في هذه القضية لعل بعضهم يستطيع بث سمومه لهدم أحاديث قالها النبي ، و هـؤلاء المستشرقين الأب لمنسي اليسوعى ، فقد حاول أن يؤخر ذلك عشر ســـنوات حتي ينقض القول الشرعي الذي يقول إن محمدا – صلي الله عليه و سلم بعـث علي رأس الأربعين من عمرة ، و يخرج إلي القول : إنه ما دام الأنبياء مبعوثـون علي رأس الأربعين ، وقد صدع محمد بدعوته علي رأس الثلاثين فهو إذا ليـس نبيا . و لا منسي مستشرق غايته الدس علي الإسلام ، و قد تابعة برو كلمان و أخذ برأيه " . [٣]

أما (فريمان) السويسري فيقول في كتابه (مع المشرق) إن ولادته كـــانت في (٢٠) آب سنه تسع و ستين و خمسمائة من الميلاد ، و ذكر الأستاذ بـــالمو

١- ابن أبي عياش الأسدي بالولاء ، كان مولى لآل الزبير ، ابو محمد ، عالم بالسير النبوية ، و من ثقاب رجال الحديث ، له كتاب في المغازى ، و كانت المدينة مسقط رأسه ، و مكان وفاته في سنه ١٤١ هـ .ابن العماد الحنبلي / شذرات الذهب / ج١ ص ٢٠٩ .

٢- ابن كثير / البادية و النهاية / ج٢ ص ٢٦١ ،، الحافظ الذهبي / السيرة النبوية / ص٦ .

٣- مصطفي أبو ضيف / دراسات في تاريخ العرب / ص ٧٨ .

الإنجليزي في ترجمته لمعاني القرآن أن ولادته وقعت في (٢٠) أيلول سنه واحد و سبعين و خمسمائة من الميلاد .

و من المؤرخين العرب المحدثين من تشكك في مولدة صلوات الله و سلامة عليه عام الفيل ، فنري د/ عبد المنعم ماجد يقول : (نحن لا نعرف تاريخ ميلاده بالضبط ، و إن كانت الرواية تريد أن تجعل مولدة عام الفيل ، (أي حوالي خمس و ستين و خمسمائة م) و هو العام الذي لم يستطيع فيه الأحباش الاستيلاء علي مكة مما يدل علي الرغبة في الربط بين مولد النبي العربي ، و هذا الحادث القومي بالنسبة لقريش) [1].

و نحن لا نوافقه في شكة الذي أبداه لا لأنه لم يلتمس المبررات التي بني عليها شكة فحسب ، بل لتجاهله الأخذ بأسانيد قويه ، ذكرت أنه صلوات الله و سلامة عليه قد ولد في عام الفيل ، ثم نتساءل عن وقت ظهور الرغبة القومية القرشية التي ألمع إليها الأستاذ الكبير أكانت قبل دخول قريش الإسلام أم كانت بعد فتح مكة ؟ !! .

فلو سلمنا جدلا بالاحتمال الأول لكان معني ذلك أن قريشا تناقض نفسها ، إذا كيف تعارض الدعوة و تربط بين صاحبها و بين حدث قومي كهذا علي حد تعبير الأستاذ الكبير .

و ينطبق هذا تمام الانطباق علي الاحتمال الثاني لأنه لا يوجد داع ، يدعو قريش للربط بين حادثة الفيل و ميلاد النبي محمد بعد دخولها الإسلام ؛ لأن

---

١ - التاريخ السياسي للدولة العربية ج١ ص ٩٥ .

الحادث لم يكن قد مضي عليه زمن طويل يمكن معه نسبه ما لم يقع في عامـــــة إليه .

ولا عبرة عندي لما يزعمه من نسبة الرغبة في الربط بين مولد النبي محمد وعام الفيل إلى إرادة الرواية ، فإنها ليست رواية واحدة ، وإنما هي روايـــــات عـــدة بلغت مبلغ التواتر الذي لا يمكن معه الشك فيها ما لم يكن هناك من براهـــين قاطعة تثبت خطأ هذه الروايات ، وهذا ما لم يفعله الأستاذ الكبـــير ، وعلـــى النقيض من ذلك نرى المؤرخ الكبير أ.د / عبد العزيز غنيم يبرز لنا أكـــثر مـــن برهان يصوغ له الشك في ولادة النبي محمد عام الفيل فيقول :

" وإن كان في نفسي شيء من ولادته عليه الصلاة والسلام في عام الفيـــل ، وذلك لما سجله الرواة من أن عبد المطلب قد خرج في وفد مـــن قومـــه إلى اليمن لتهنئة سيف بن ذي يزن باستعادة بلاده من براثن الأحبـــاش ، وســـواء أكان سيف هو أول من خرج لاستنجاد كسرى لطرد الأحباش أم أن أباه قـــد سبقه إلى ذلك ، فإن خروجه قد كان بعد وفاة أبرهة وولده "يكســـوم" ، وإن استعادته لملك آبائه قد استغرق زمانا لا يقدر بالشهور والأيـــام وإنمـــا يقـــدر بالسنين والأعوام ، فإنه قصد إلى قيصر ، ولما لم تنجح مساعيه خرج إلى الحـــيرة ، ومنها إلى فارس ، وطال مكثه إلى جانب كسرى حتى أمده بوهزر في مئـــات من الفرس ، وحتى بعد هزيمة مسروق الذي تولى اليمن إثر وفاة أخيه مكســـوم فإن سيف لم يل مقاليد الملك ، وإنما تولاها بوهزر حتى اســـتدعاه كســـرى ، وأمره أن يولي الأمر من بعده سيف بن ذي يزن .

وإذا كان محمد – صلى الله عليه وسلم – قد ولد في عام الفيل كما يقـــول الجمهور ، وكان عبد المطلب قد مات ومحمد في الثامنة من عمره أو الســـابعة ،

فإن هذه المدة القصيرة لا تكفي بأي حال لاستيعاب الأحداث ، وحجة ثانية وإن كانت دون سابقتها في القوة . وهي أن حفر زمزم قد كان إثر هزيمة أبرهة كما هو واضح من ترتيب المؤرخين لهما . وكان عبد المطلب ساعة الحفر لا ولد له غير الحارث فكيف يعقل والحالة هذه أن ينجب بعد ولده هذا تسعة من البنين ويكبر أصغرهم سنا حتى يصبح أهلا للزواج ويموت عبد المطلب في العام الثامن لحادث الفيل ، وإذا كان من الممكن التشكك في قصة النذر والرجوع بحفر زمزم إلى ما قبل الفيل بفترة طويلة ، فإن الذي لا سبيل إلى الشك فيه استعادة سيف بن ذي يزن ملك آبائه من الأحباش ، وعدم معقولية أن يتم ذلك في ثماني سنين ، على فرض ولادة النبي عليه الصلاة والسلام في عام الفيل ، على أنه لا يضير النبي — عليه الصلاة والسلام — أن يكون قد ولد في عام الفيل أو قبله أو بعده ، فتلك مسألة تاريخية لم يدفعنا إلى الخوض فيها غير التنبيه على أنها موضع خلاف بين الرواة والإخباريين .[1]

ومما تقدم نرى أن الأستاذ الكبير قد استند في رأيه إلى أن المصادر التاريخية القديمة لم تذكر تاريخا لبداية المساعي التي قام بها سيف ابن ذي يزن لدى كسرى فارس وقيصر الروم حتى آل ملك اليمن إليه .

وهذا صحيح فإن ابن هشام الذي تحدث طويلا عن سيف بن ذي يزن لم يذكر تواريخ محددة لتلك المساعي التي قام بها القيصر وكسرى .[2]

١- فلسفة السيرة ص ٦٠ ، ٦١ .

١- للوقوف على تفصيل أخبار سيف بن ذي يزن ، انظر ابن هشام / سيرة النبي ج١ ص ٦٥ إلى ٧٢ه

ومما يؤيد أنها استغرقت أعواما طويلة ما سجله الشعراء العرب في قصائدهم التي مدحوا بها سيفا بعد استوائه على أريكة الملك في بلاد اليمن :

ومن ذلك ما قاله أمية بن أبي الصلت :

ليطلب الوتر[١] أمثال بن ذي يزن ** ريم[٢] في البحر للأعداء أحوالا
يمم [٣] قيصر لما حان رحلته ** فلم يجد عنده بعض الذي سالا
ثم انثنى نحو كسرى بعد عاشرة ** من السنين يهين النفس والمالا
لله درهم من عصبة خرجوا ** ما إن أرى لهم في الناس أمثالا[٤]
بيضا مراز [٥]ب، غلبا أساوره ** أسدا تريب في الغيضات أشبالا
يدمون عن شوف كأنها غبط ** بزمخر يعجل المرمى أعجالا
أرسلت أسدا على سود الكلاب فقد ** أضحى شريدهم في الأرض فلالا
فاشرب هنيئا عليك التاج مرتفعا ** في رأس غيدان دارا منك محلالا
واشرب هنيئا فقد شالت نعامتهم ** وأسبل اليوم في برديك إسبالا
تلك المكارم لا قعبان من النبي ** شيبا بماء فعادا بعدا أبولا [٦]

وعندما تحدث ابن كثير عن وفد قريش الذي أم اليمن لتهنئة سيف بـــن ذي يزن ، لم يذكر لنا تاريخا لمغادرة هذا الوفد مكة ، فقال : " ذكر الحـــافظ أبـــو بكر بن سهل عن عبد الله بن عباس ، قال : لما ظهر سيف بن ذي يزن كـــان

١- الثأر .
٢- بتضعيف الياء = أي : أقام .
٣- قصد .
٤- قصد
٥- جمع مرزبان و أصله وزير الفرس .
٦- ابن هشام / سيرة النبي ج١ ص ٦٩، ٧٠ .

ابن المنذر – واسمه النعمان بن قيس – على الحبشة ، وذلك بعد مولد رســـول الله – صلي الله عليه و سلم بسنين فأتته و فود العرب و شعراؤها ، تهنئـــه و تمدحه ، و تذكر ما كان من حسن بلائه ، و أتاه وفود قريش و فيـــهم عبـــد المطلب ابن هاشم ، و أمية بن عبد شمس أبي عبد الله ، و عبد الله بن جدعـــان ، و خويلد بن أسد في أناس من وجوه قريش) .[1]

و إذا كان هذا هو موقف العديد من مصادر التاريخ الإسلامي ، بالنسبة لتـلويخ مساعي سيف بن ذي يزن ، فإن صاحب كتاب الأغاني يذكر لنا : (إن ملـــك أبرهة دام ثلاثا و عشرين سنه ، و ملك يكسوم تسع عشرة ســـنه ، و ملـــك مشرق اثني عشره سنه ، و أن قدوم أهل فارس اليمن مع و هرز بعد الفجـــار بعشر سنين ، و قبل بنيان قريش البيت بخمس سنين ، و رسول الله –صلـــي الله عليه و سلم و آله ابن ثلاثين سنه أو نحوها ، لأن رسول الله صلي الله عليـــه و سلم ولد بعد قدوم الفيل بخمس و خمسين ليلة)[2]

و نحن إذا أمعنا النظر في تلك الرواية وجدنا أن صاحب هذا السفر قد وقـــع في تناقض كبير ، يزيد من تشكك دراسي التاريخ في الأخذ بمقولته ؛ ذلك أنـــه من المجمع عليه أن أبرهة توفي باليمن في عام الفيل ، و أن عبد المطلب ذهـــب لتهنئة سيف بن ذي يزن علي ملك اليمن بعد ملك القائد الفارسي لها ، فكيـف نوفق بين هذا و بين كون المدة الزمنية التي حكم فيها خلفاء أبرهة اليمن تبلـــغ الثلاثين سنة ، و بين كون عبد المطلب قد توفي و النبي يبلغ من العمـــر ثمـــاني سنوات أو عشرة .

١- البداية و النهاية / ج٢ ص ٣٢٨ .
٢- أبو الفرج الأصفهاني / الأغاني / ج ١٧ ص ٣١١ .

فلو سلمنا جدلا بأن الفرس جاءوا اليمن بعد حرب الفجار بعشر سنوات ، و علمنا أن الرسول قد شهد هذه الحرب و هو يبلغ من العمر خمس عشرة سنه أو عشرين كما سنبينه ، لكان معني هذا أن عبد المطلب ذهب لتهنئة سيف بن زيدي يزن بعد ميلاد النبي بخمسة و عشرين سنة أو ثلاثين ، بناء علي اختلاف الرواة في عمر النبي محمد وقت نشوب الفجار ، و هذا يتنافي مع ما ذكره الرواة الثقات ، الذين نقلوا لنا خبر وفاة عبد المطلب ، كما سنوضحه أثناء حديثنا عن كفالتة للنبي محمد " .

يضاف إلي هذا الخبر أن ذلك يتعارض مع ما قيل عن تبشير سيف بن ذي يزن لعبد المطلب بأن نبيا سيخرج من صلبه كذا و كذا ، و ما ذكرته بعض الكتب من أن كسري فارس الذي و لي سيف بن ذي يزن قد توفي في ثماني و سبعين و خمسمائة) .[١]

و من ثم فإن لا سبيل إلي التوفيق بين هذه الرواية و الأخبار سالفة الذكر إلا أن نقول بميلاد النبي محمد بعد عام الفيل ببضع سنين ، و هذا يتعارض مع جزم به صاحب الأغاني من أن النبي ولد بعد الفيل بخمسين ليلة .

و علي أية حال فإن هذه القضية التي أثارها صاحب فلسفة السيرة ، ستبقي مجالا للأخذ و الرد بين الباحثين اللاحقين ، حتى تظهر لنا الحفائر من الآثار ما يضع حدا لهذا الجدل ، و إلي أن تنجلي لنا الحقيقة القاطعة في هذا الأمر ، فإننا نكاد نميل إلي الأخذ برأي جمهور علماء المسلمين القاضي بولادته – صلوات الله و سلامة عليه – عام الفيل لموافقة المؤرخين القدامى له ، و معظمهم كما نعلم من حفاظ الحديث ، و كبار المفسرين ، كالطبري و ابن كثير و الذهبي و غيرهم ، فرأيهم إذا حجة قاطعه ما لم يظهر لنا ما ينفيه كما أسلفنا .

١- عبد الرازق الطنطاوي / تاريخ العرب و صدر الإسلام ص ٧٨ .

رضاعتة صلوات الله و سلامة عليه :

نالت شرف إرضاع النبي محمد صلي الله عليه و سلم أكثر من إمرأه طـاهرة عفيفة ، مثل ثويبة ،[١] جاريه عمة " أبي لهب " فقد أرضعته أياما قبـل قـدوم حليمة السعدية إلي مكة ، و علي هذا يكون صلوات الله و سلامه عليـه قـد اجتمع هوومسروح بن ثويبه [٢]و ابو سلمة بن عبد الأسد المخزومـي و مـن قبلهما حمزة حيث رضع الجميع من ثدي ثويبة .

و لم ينس النبي محمد صلي الله عليه و سلم – بعد بعثته البر بها فعمد إلي وصلـها ، و كذلك فعلت معه زوجة " خديجه " رضوان الله عليـها ، فطلبـت إلي أبي لهب أن تبتاعها منه لتعتقها فأبي أبو لهب ، فلما هاجر رسول الله صلي الله عليـه و سلم إلي المدينة أعتقها أبو لهب ، و كان رسول الله – صلـي الله عليـه و سلم- يبعث إليه بصرة و كسوة ، حتى جاءه خبرها أنها قد توفيت بعد سـبع سنوات مضين علي رجوعه من خيبر فقال : ما فعل ابنها مسروح ؟ فقيل لـه : إنه مات قبلها و لم يبق من قرابتها أحد " [٣]

و من النسوة اللواتي أرضعنه غير ثويبة : حولة بنـت المنـذر ، و أم أيمـن [٤]، فالمعروف أنها من الحواضن و أمراه سعدية غير حليمة ، و ثلاثة نسوة ، اسـم كل واحدة منهن عائكه في قوله صلي الله عليه و سلم يوم حنين .

١- ذكر بن الأثير أن علماء التاريخ اختلفوا فيما بينهم حول اعتناقها الدين الجديد فقال : إنه لا يعلم أحد أثبت إسلامها خلا المتأخر يعني (ابن منده – أسد الغاية / ج٥ ص ٤١٤ .

٢- ذكر بن حجر أنه لم يقف علي إسلامه و هو محتمل / الإصابة / ج ٧ ص ٥٤٩

٣- ابن سعد / الطبقات الكبرى / ج١ ص ١٠٨ ، ١٠٩،، ابن حجر / الإصابة / ج٧ ص ٥٤٩،، عبد العزيز محمد / محمد الرسول الأعظم / ص ٤٩ .

٤- بركة بنت ثعلبة بن عمرو بن حصن ، ورثها النبي عن أمة ثم أعتقها بعد =

(أنا ابن العواتك) و هي عاتكة بنت هلال ، و هي أم عبد مناف قـــص ، و عاتكة بنت مرة بن هلال ، و هي أم هاشم عبد مناف ، و عاتكة بنت الأوقص بن مرة ابن هلال ، و هي أم وهب أبي آمنة أم النبي – صلي الله عليه و سلم .[١]

و لم تكن رضاعة الطفل من غير أمة إلا رغبة من القوم لتوفير المناخ الســـليم للطفل حتى ينشأ قوي البنيان ، و ان نسوة أشراف القوم كن يرون أنه من العار عليهن إرضاع أطفالهن .

و من ثم فإن آمنة بنت وهب دفعت بابنها محمد – صلي الله عليه و ســـلم – إلي المراضع شأنها في ذلك شأن نساء الأشراف .[٢]
جلست آمنة ترقب مجئ المراضع من بني سعد إلي مكة لأخذ الأطفال حتى تدفـع محمدا – صلي الله عليه و سلم – إلي واحدة منهن .
و يلوح لنا أن المراضع من بني سعد قد كانت لهن شهرة في هذا الأمـــــر بـــين المكيين ، إما لقربهن من مكة ، و إما لأنهن كن يتميزون بفصاحة لسانهن بشكل ميزهن عن الأقوام المجاورين ، بدليل أن النبي محمد ا صلي الله عليه و ســــلم –

= زواجه من السيدة خديجة ، تزوجت من عبيد الحبشي فولدت له أيمن ، ثم تزوجت من بعده زيد بن حارثة : فولدت له أسامة بن زيد كان النبي إذا نظر إليها يقول هذه بقيه بيتي (ابن سعد / الطبقات الكبرى / ج٨ ص ٢٢٣،، ابن حجر / الإصابة / ج٤ ص ٤١٥،، ابن عبد البر / الاستيعاب / ج٤ص ١٧٩٣ ، ص ١٩٢٥

١- محمد يوسف الصالحى / سبيل الهدى و الرشاد / ج١ ص ٣٨٤،، الطهطاوي / نهاية الإيجاز / ج١ ص ٣٦ ،، يحي إسماعيل / مقدمات النبوة و إعداد الرسول مع معجزاته و خصائصه / ص ٢٥٦

٢- الطهطاوي / نهاية الإيجاز / ج١ ص ٣٦،٣٧ .

أشار إلي إسترضاعه في بني سعد و هو في معرض تعليله للفصاحة التي تميز بهـا — صلوات الله و سلامة عليه .

و علي أية حال فإنه لما قدمت عشرة نسوه من بني سعد إلي مكة يلتمسن الرضعاء عرض عليهن النبي محمد فيما عرض عليهن من أطفال ، فأعرض عنه ليتمه ، و أهن هممن بالإنصراف و معهن الأطفال إلا حليمة السعدية التي لم تصب طفلا ، فيقال إن الناس أعرضوا عنها لفقراء دون رفيقاتها ، فألجأها ذلك الإعراض إلي العودة لأخذ النبي محمد —صلي الله عليه و سلم — بعدما أعرضت عنه علها تدرك به ما لم يدركه غيرهما من الغني و البركة فقالت لزوجها الحارث بن عبد العزي [1]: ما ترى ؟ قد خرج صواجي و ليس بمكة غلام يسترضع إلا هذا الغلام اليتيم فلو أنا أخذناه ، فإني أكره أن نرجع إلي بلادنا و لم نأخذ شيئا ، فقال لها زوجها ، خذيه عسي الله أن يجعل لنا فيه خيرا ، فجاءت إلي أمه فأخذته .[2]

و قد وقف غير واحد من المؤرخين المحدثين موقف الريبة من رواية إعراض المراضع عنه ليتمه صلوات الله و سلامه عليه — علي أساس أهن لم يظفرن من جده بما اعتدن الظفر به من الأباء من العطايا و الهبات ، فقد كان عبد المطلب من أجود العرب و مياسرهم فهو صاحب السقاية و الرفادة ، و هو الذي

١- ابن نصر بن سعد بن بكر بن هوازن ، لما قدم إلي مكة شكت قريش إليه أمر النبي محمد صلي الله عليه و سلم — و دعوته إياهم إلي الإسلام ، و طلبوا منه منع ابنه من ذلك فلما عرض هذا علي النبي صلي الله عليه و سلم أجابه ابن الأثير / أسد الغابة / ج١ ص ٨٣٨.

٢- ابن سعد / الطبقات الكبرى / ج١ ص ١١١ ،، الغزالي / فقه السيرة / ص ٦٢ .

استاق أبرهة مائتين من إبله أثناء زحفه علي مكة .و هو الذي رفض الغزالتين الذهبيتين أثناء حفر زمزم و جعلها صفائح الكعبة ، و هو من ناحية رابعة يحب محمدا و يحب أباه عبد الله ، فكيف تصدق في رجل هذا قدرة و هذا ثراؤه وجوده إعراض المراضع عن حفيدة يأسا من عطاياه و قنوطا من بره و خيره ؟ ألم يكن يعرضه و هو سيد مكة و دعموا رأيهم هذا بدليل آخر ، و هو أن حمزة بن عبد المطلب كان هو الآخر في ذلك الوقت طفلا يلتمس الرضعاء ، فكيف يبسط يديه بالعطايا لمن ترضعه و يكفيها عن من ترضع حفيده ، و ابن أحب أولاده إليه ولا يقال إن حمزة كان ولده و أن ، محمدا كان حفيدة ، و ليس الجد كالوالد ، فإن الروايات كلها تدل علي أن عبد الله بن عبد المطلب قد كان أحب أبنائه ، و أن هذا الحب قد انتقل بعد وفاته إلي محمد " .[١]

و نحن نسلم بما ذهب إليه الأستاذان الجليلان فيما ذكراه من أدلة علي رفضهما قبول رواية إعراض المراضع عنه ليتمه إلا أننا لا نقبل استدلالهما برضاعة حمزة بن عبد المطلب " رضوان الله عليه " ذلك أن البلاذري ذكر أن حمزة قد ولد قبل النبي بأربع سنوات فكيف و الحالة هذه يلتمس الجد المراضع لابنه بعد بلوغه هذه السن .

و لئن قال قائل إن هذه رواية واحدة ذكرها البلاذري في شأن ميلاد حمزة ، و أن غيره من المؤرخين ذكر ما يخالفها ، قلنا له إنه ما دام لا يوجد إجماع علي أمر ما من الأمور فلا بد من تفنيد ما عداه حتي يمكن التعويل عليه ، و هذا ما لم يفعله الأستاذان الجليلان .

١- عبد العزيز غنيم / فلسفة السيرة / ص ٦٤، عبد الرازق الطنطاوي / تاريخ العرب و صدر الإسلام ص ١٣٧ .

و اليتم ليس بعيب في النبي محمد حتى تحاول نفي إعراض المراضع عنه من أجله ، إذا هو بالنسبة للنبي محمد معجزة أدت إلى الكمال ، في الوقت الذي هو عند غيره مؤديا إلى نقصان في الأغلب الأعم [١]

و لنعد إلى رواية حليمة التي ذكرنا عن رضاعته – صلى الله عليه و سلم –، و البركة التي حلت في دارها بعد أخذها له ، فقالت : فلما أخذته رجعت به إلى رحلي ، فلما وضعته ، في حجري أقبل على ثدي بما شاء من لبن ، فشرب حتى روى ، و شرب معه أخوه حتى روى ، ثم ناما –، و ما كان ينام قبل ذلك ، و قام زوجي إلى شارفنا تلك فنظر إليها فإذا أنها لحافل فحلب منها حتى شرب و شربت حتى انتهينا ريا و شبعا ، فبتنا بخير ليله قالت : يقول لي صاحبي حين أصبحت أتعلمين ؟ و الله يا حليمة لقد أخذت نسمة مباركة ، قلت : و الله إني لأرجو ذلك ، قالت : ثم خرجنا و ركبت أنا في تلك ، و حملتها عليها معي ، فو الله لقطعت بنا الركب ما يقدم عليه شئ من حمرهم ، حتى أن صواحبي ليقلن لي يا آمنة أبي ذؤيب أربعي علينا أليس هذه أتانك التي كنت خرجت عليها ؟ فأقول لهن : بلى و الله إنها لهي فيقلن و الله إن لها شأن قالت ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد ، و ما أعلم أرضا من أرض الله أجرب منها ، فإن كانت غنمي لتسرح ثم تروح شباعا لبنا فنحلب ما شئنا ، و ما هو إلينا أحد تبقي له شاه بقطرة لبن ، و أن أغنامهم لتروح جياعا حتى إنهم ليقولون لرعاتهم أو لرعيائهم : و يحكم أنظروا حيث تسرح غنم بنت أبي ذؤيب فاسرحوا معهم فيسرحون مع غنمي حيث تسرح فتروح أغنامهم جياعا ما فيها قطرة لبن ، و تروح أغنامي شباعا لبنا ، نحلب ما شئنا ، فلم يزل الله نرى من

١- أنساب الأشراف / ج١ ص ٧٩ .

بركته البركة فنعرفها حتى بلغ سنتين فكان يشب شبابا لا تشبه الغلمان ، فــــو الله ما بلغ السنتين حتى كان غلاما جفرا

فقدمنا به على أمه و نحن أحرص شيْ به مما رأينا فيه من البركة ، فلما رأته أمــه قلت دعينا نرجع بابنا هذه السنة الأخرى فإنا نخشى عليه و باء مكة فو الله ما زلنا بها حتى قالت نعم ، فسرحته معنا "[1]

و أما إخوة النبي الذين رضعوا من ثدي حليمة فهم عبد الله بن الحارث و أختــله أنيسة و الشيماء[2] التي كانت تحمل النبي – صلي الله عليه و ســـلم – و تقــوم عليه مع أمها حليمة ، و سبيت يوم حنين ، فعنف بها فقالت : يا قوم تعلمـــوا إني أخت نبيكم ، فلما أتوا بها رسول الله صلي الله عليه و ســـلم قـــالت : إني أختك ، و كنت غضتني و أنا أحضنك مع أمي ، فعرف ذلك فبسط لها ردائه ، فأجلسها عليه ، و أعطاها ما أغناها ، ووهب لها جاريه و غلامـــا يقـــال لـــه مكحول ، فزوجت الجارية من الغلام "[3].

و لم ينقطع بره صلوات الله و سلامة عليه – عن حليمة و أخواتها فيقـــال إن أختالها قدمت علي النبي – صلي الله عليه و سلم بعد فتح مكة و هو بالأبطح ،

١- الطبري / تاريخ الأمم و الملوك / ج٢ ص ١٥٩ ،، ابن كثير / البداية و النهاية / ج٢ ص ٢٧٤ ،، ابن سيد الناس / عيون الأثر / ج١ ص ٣٤،٣٣ ،، التاجي / سيرة النبي العربي / ج١ ص ٦٨ ، ٧٠

٢- الاسم الذي اشتهر به خزافه (بضم الأول) بنت الحارث بن العزى ابن رفاعة / من بني سعد بن بكر من هوازن ، و هي بنت مرضعته حليمة السعدية

(ابن عبد البر / الاستيعاب / ج٤ ص ٢٨٧ ،، أحمد عطية الله / القاموسي الإسلامي / ج٤ ص ٢٢ . ٣- البلاذري / أنساب الأشراف / ج١ ص ٩٢ ،، ابن حجر / الإصابة / ج٦ ص ٢٠٦ .

فسألها النبي محمد – صلي الله عليه و سلم – عن حليمة السعدية فأخبرته بوفاتها علي حد قول بعض الروايات فزرفت عيناه .

و لما أنس منها حاجتها إلي العطاء قدم لها ما يتسر من الكسوة و مائه درهم (و انصرفت و هي تقول : نعمة المكفول أنت صغيرا و كبيرا) [١]

و مهما يكن من أمر فمحمد – صلوات الله و سلامة عليه . ظل في ديار بني سعد حتى وقع له شق الصدر .

شق صدره صلوات الله و سلامة عليه :

اختلف المورخون القدامى و المحدثون و المفسرون فيما بينهم حول قضية شق صدره – صلوات الله و سلامة عليه فمنهم من يرى وقوع الشق حسا للنبي محمد صلي الله عليه و سلم -، و منهم من يرى خلاف ذلك ، فيقول إن الأخبار عن الشق يجب حملها علي المجاز ، و لكل فريق من الفريقين أدله دعم بها رأيه ، نعرض لها أثناء حديثنا عن كل فريق علي حدة .

القائلون بحقيقة الشق :

حوت مصادر التاريخ الإسلامي العديد من الروايات التي تثبت وقوع الشق حقيقة للنبي محمد صلي الله عليه و سلم – منها ما روى عن مرضعته حليمة و منها ما روى عن صحابه النبي محمد- صلي الله عليه و سلم- .

١- البلاذري / أنساب الأشراف / ج١ ص ٩٥ ،، رفاعة الطهطاوي / نهاية الإيجاز / ج١ ص ٣٤ ،، التاجي / سيرة النبي العربي / ج١ ص ١١١،، محمد أبو زهرة / خاتم النبيين / ... ص ١٢٧ .

فقد ذكر ابن إسحاق أمر الشق على لسان حليمة التي قالت بعـــد رجوعـــها بمحمد من عند أمة إثر بلوغه عامين .

(فو الله إنه بعد مقدمنا بأشهر كان مع أخيه خلف بيوتنا إذا أتانا أخوه يشـــتد ، فقال لي و لأبيه : ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثيـــاب بيـــض فأضجعاه فشقا بطنه فها يسوطانه قالت : فخرجت أنا و أبوه نحوه فوجدنـــاه قائما ممتعقا وجهه قالت : فالتزمته والتزمه أبوه فقلنا لهوه : مالك يا بني ؟ قـــال جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاني وشقا بطني فالتمسا فيه شـــيئا لا أدري ما هو قالت : فرجعنا إلي فنائنا) [١].

و هنا تختلف الروايات المنقولة عن حليمة السعدية ، فإحدى الروايـــات لابـــن إسحاق عنها تذكر أنها بعد رجوعها إلي فنائها بمحمد – صلي الله عليه و سـلم – أجمعت رأيها هي و زوجها علي ردة إلي أمة خشية أن يكون قد نـــزل بـــه مكروه .

فلما رجعت به حليمة إلي أمة قالت لها (ما أقدمك به يا ظئر ، و لقد كنـــت حريصة عليه و علي مكثه عندك ؟ قلت : قد بلغ الله بابني و قضيت الذي علـي و تخوفت الأحداث فأديته عليك كما تحبين ، قالت أفتخوفت عليه الشـيطان ؟ قلت نعم قالت : كلا و الله ما الشيطان عليه سبيل و إن لبني لشأن و قصـــت عليها ما أسلفت من أمور وقعت لها أثناء حملها بالنبي محمد وولادته)[٢].

١- ابن هشام / سيرة النبي / ج١ ص ١٧٦ .

٢- ابن هشام / سيرة النبي / ج١ ص ١٧٧ ،، ابن سيد الناس / عيون الأثر / ج١ ص ٣٤ .

و أما الرواية الأخرى لابن إسحاق فتذكر عن حليمة أنها لما أخذت النبي من أمة مكث عندها حتى رأت نفرا من نصارى الحبشة أو اليهود يتفحصونه و كادوا يهمون بقتله ، لولا أن ابتدرته منهم و من ثم أعادته إلي أمة .[١]
و أما ما روي عن صحابة النبي محمد – صلي الله عليه و سلم في شأن شق صدره ، فإنه قد ذكر لنا عن طريق غير واحد منهم ، فيقول أنس : أن رسول الله صلي الله عليه و سلم أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان ، فصرعه و شق قلبه ، فاستخرج منه علقه ، ، فقال هذا حظ الشيطان منك ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمة ثم عادة في مكانة ، وجاء الغلمان يسعون إلي أمة يعني مرضعته ، فقالوا إن محمد قد قتل فاستقبلوه ممتقع اللون ، قال أنس قد كنت أري أثر المخيط في صدره [٢]

و قد روى أن شيخا أعرابيا من بني عامر كان ذي سيادة فيهم جاء إلي النبي صلي الله عليه و سلم – فقال له (يا بني عبد المطلب إني أنبئت أنك تزعم إنك رسول الله إلي الناس ، أرسلك بما أرسل به إبراهيم و موسى و عيسى و غيرهم من الأنبياء ، ألا و إنك فوهت بعظيم ، و إنما الأنبياء و الخلفاء في بيتين من بني إسرائيل ، و أنت ممن يعبد هذه الحجارة و الأوثان ، فما بالك و النبوة و لكن لكل قول حقيقة فأنبئن بحقيقة قولك و بدء شأنك) .

فأجابه النبي محمد – صلي الله عليه و سلم بحديث طويل ذكر فيه شق الصدر فقال (فبينما أنا ذات يوم منتبذ من أهلي في بطن وادفع أتراب لي من الصبيان نتقاذف بيننا بالجلة إذا أتانا رهط ثلاثة معهم طست من ذهب ملئ

---

١ - ابن هشام / سيرة النبي / ج١ ص ١٧٩ .
٢ - الذهبي / السيرة النبوية / ص ٢١ ،، أبو السعود / التفسير / ج١ ص ١٧٢ .

ثلجا فأخذوني من بين أصحابي ، فخرج أصحابي هرابا حتى انتهوا إلي شـــفير الوادي ، ثم أقبلوا علي الرهط ، فقالوا : ما أربكم إلي هذا الغلام فإنه ليس منــا ، هذا ابن سيد قريش ، و هو مسترضع فينا ، و هو غلام يتيم ليس لـــه أب ، فماذا يرد عليكم قتله ، و ماذا تصيبون من ذلك ؟ و لكن إن كنتم لابد قاتليــه فاختاروا منا أينما شئتم فلياتكم مكانه فاقتلوه و دعوا هذا الغلام فإنه يتيـــم ، فلما رأي الصبيان القوم لا يحيرون إليهم جوابا انطلقوا هرابا مسرعين إلي الحــي يؤذنونهم و يستصرخونهم علي القوم فعمد أحدهم فـــأضجعني علـــي الأرض إضجاعا لطيفا ، ثم شق ما بين مفرق صدري إلي منتهى عانتي و أنا أنظر إليـــه فلم أجد لذلك مسا ، ثم أخرج أحشاء بطني ثم غسلها بذلك الثلج فأنعم غســلها ثم أعادها مكانها ، ثم قام . الثاني منهم فقال : لصاحبه تنح فنحـــاه عـــني ، ثم أدخل يده في جوفي ، فأخرج قلبي وأنا أنظر إليه فصدعه ثم أخرج منه مضغـــة سوداء فرمي بها ثم قال بيده يمنة منه كأنه يتناول شيئا فإذا أنه بخاتم في يده مـــن نور يحار الناظرون دونه فختم به قلبي فامتلأ نورا) .[1]

و إذا كانت مسألة الشق التي تحدثنا عنها قد وقعت للنبي وهو بين الثالثـــة و الرابعة من عمرة ، فقد روى تكرارها أكثر من مرة غير تلك التي أســـلفناها ، فقالوا بوقوع الشق له و هو في العاشرة من عمرة و عند بعثته [2]ثم الإسراء به . فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد و ابن حبان و الحاكم ابن عساكر عن ابن كعب أن أبا هريرة " رضي الله عنه " كان جريئا على أن يسأل رسول الله - صلـــي الله عليه و سلم — عن أشياء لا يسأله عنها غيره فقال : يا رسول الله ، مـــا أدل ما رأيت في أمر النبوة ؟ فاستوى رسول الله صلي الله عليه و سلم — جالســـا و

١- الطبري / تاريخ الأمم و الملوك / ج٢ ص ١٦١، ١٦٢

٢- ابن عبد الوهاب / مختصر سيرة الرسول / ص٩ .

قال (لقد سألت أبي هريرة ، إني لفي صحراء ابن عشر سنين و أشـــهر ، و إذا بكلام فوق رأسي ، و إذا رجل يقول لرجل " أهو هو "؟ قال نعم ، فاستقبلاني بوجوه لم أراها قط ، و أرواح لم أجدها من خلق قط ، وثياب لم أرها علـــي أحد قط ، فأقبلا إلي يمشيان حتى أخذ كل واحد منهما بعضدتـــي [1]لا أجـد أحدهما هامسا لصاحبه ، أضجعه فأضجعاني بلا قسر و هصر ، قال أحدهمـــا لصاحبه ، افلق صدره ، فهوى أحدهما إلي صدري ففلقة فيما أري بـدون دم و لا وجع ، فقال : أدخل الرحمة و الرأفة ، فإذا مثل الذي أدخل يشبه الفضة ، ثم هز إبهام رجلي اليمنى ؛ فقال : اغدوا و أسلم ، فرجعت بها أغد رقه علـــي الصغير و رحمة للكبير و قد روى حديث شق الصدر عن أنس بن مالك عن أبي ذر [2] يحدث أن رسول الله عليه و سلم — قال : فرج سقف بيتي و أنـا بمكة ، فنزل جبريل عليه السلام ، ففرج صدري ، غسله من ماء زمـــزم ، ثم جاء بسطت من ذهب ممتليء حكمة و إيمانا أفرغها في صدري ثم أطبقه ثم أخذ بيدي فعرج بي إلي السماء) .

و لم يدع أنصار هذا الفريق المجال لغيرهم للطعن فيما ذهبوا إليه ، علي زعـم أن الحسد و الغل و المنزوعين من قلب محمد و الرحمة و الرأفة الموضوعـــين في قلبه ليست من الجواهر التي تمسك باليد ، و إنما هي من قبيل الأعراض المعقولـة فكيف يستخرج منها ما يستخرج و يوضع منها ما يوضع في القلب ؟[3]

---

١ الألوسي البغدادي / روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني / ج٣٠ ص ١٦٧.

٢ اختلف في اسمه المشهور أنه جندب بن جنادة بن قيس بن غفار كان خامس أربعة إعتناق للإسلام عند دعوة النبي محمد الناس إليه ، و قد جاهر رضوان الله عليه بالشهادتين أمام المكيين غير مبال بإيذائهم توفي بالربذة سنة إحدى و ثلاثين ابن الأثير / أسد الغابة ج٥ ص ١٨٦:١٨٧

٣ ابن سيد الناس عيون الأثر / ج١ ص ٤٥ ، الذهبي / السيرة النبوية / ص ٢٢

فذكر العارف بن أبي حمزة ما خلاصته : أن ما دل كلام النبي- صلـــــي الله عليه و سلم — علي جوهرته و جسميته من أعيان المخلوقات التي ليس للحواس إلي إدراكها سبيل ، هو كما دل عليه كلامة — عليه الصلاة و الســــلام — في نفس الأمر ، و أن الحكم من المتكلم أو نحوه عليها إنما هو باعتبار ما ظهر لــــه بعقله ، و للعقل حد يقف عنده ، و الحقيقة فيما دل عليه خبر الشارع المؤيـــد بالوحي الآلهي و النور و القدس المخلق بجناحيه في جو الحقـــائق إلي حيـــث لا يسمح لنحله العقل دندنة ، و لا للرواة عنه عنعنة ، فالإيمان و الحكمة و نحوهمـا مما دل عليه الكلام النبي — صلي الله عليه و سلم — علي جوهر يتها جواهـــــر محسوسة لا معان) . [1]

و ربما يكون المراد من الشيْ الذي استخرجته الملائكة من صدر النبيّ محمـد و هو الدم الأسود الذي غسلوه من قبله ، و هو علامه للقلب الــــذي يميـــل إلي المعاص و يحجم عن الطاعات ، فإذا أذالوه عنه كان ذلك علامة لكونه صاحبـه مواظبا علي الطاعات محترزا عن السيئات ، فكان ذلك كالعلامة للملائكة علـي كون صاحبة معصوما ، و أيضا فلأن الله تعالي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد "[2]
و ذهب أنصار هذا الفريق إلي أن تكرار مرات الشق الحسي كـــانت لحكمـــة اقتضتها كل مرة منها ، فالمرة الأولي التي وقعت عندما كان طفلا في الثانية أو الرابعة من العمر هي بمثابة إرهاصات دلت علي نبوته قبل نزول الوحي عليـه ، و لتطهيره عن حالات الصبا حتي يتصف في سن الصبا بأوصاف الرجولـة ، و لذلك نشأ- عليه السلام — علي أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان [3]

١- الألوسي / روح المعاني / ج٣٠ ص ١٦٧ ، ١٦٨ .
٢- الفخر الرازي / التفسير / م ١١ ج ٣٢ ص ٢ .
٣- رفاعة الطهطاوي / نهاية الإيجاز / ج١ ص ٣٨ ،، الطيب النجار / السيرة النبوية / ص ٤٢ .

أما ما وقع من الشق و هو ابن عشر سنوات فلم يكن إلا إعدادا له – صلوات الله و سلامة عليه– ليستقبل سن التكليف و هو أكمل ما يكون في العصمة و الخلق .

و ما وقع عند المبعث فهو زيادة في الكرامة ليتلقى ما يوحي إليه بقلب قوى في أكمل الأحوال من التطهير[١] .

و المرة الرابعة التي حدثت له عند الإسراء – كما يقول ابن كثير – وقعت له ليتأهب للوفود إلي الملأ الأعلى و لمنجاة الرب عز و جل و المثول بين يديه – تبارك و تعالي .[٢]

و يطلعنا المؤرخون المحدثون الذين أيدوا الشق الحسي بآراء قائمة علي البراهين العقلية التي تبرز صحة الرأي الذي ارتضوا الأخذ به معتمدين على الروايات التي أسلفت الحديث عن بعضها ومن هؤلاء : أ.د / محمد الطيب النجار الذي قال (إن محمدا لم تدعه العناية غرضا للوساوس الصغيرة التي تناوش غيره من سائر الناس ، وإنه لو لم يقم الملكان بشق صدره لما كان غرضا للوساوس ، بل لكان مثله كمثل جميع الرسل الذين اصطفاهم الله من عباده وطهر قلوبهم من الوساوس دون أن تشق صدورهم ، وإنما أراد الله بهذه الحادثة الفريدة في نوعها أن تتوجه الأنظار والقلوب إلى محمد في طفولته وبعد بعثته ، ويعرف الناس عنه إن عناية خاصة تحيطه به و تميزه عن غيره ، وأن العناية التي أحيت الموتى وأبرأت الأكمة والأبرص على يدي المسيح – عليه السلام – هي

١- الطهطاوي / نهاية الإيجاز / ج١ ص ٣٨ ، ٣٩

٢- البداية و النهاية / ج٢ ص ٢٧٧ .

العناية التي شقت صدر محمد ثم أرجعته في لحظات إلى حالته الطبيعية ، وهـــذا شأن المعجزات التي لا تخضع ولا ترتبط بالأسباب العادية .[1]

ويذكر د . عبد الرازق أن (شق الصدر من الأمور الممكنة الـــتي لا يحيلـــها العقل أو العلم ، وكأنما النبي الكريم طويت له الأيام فأحس بما سيدور من نقاش حول هذا الأمر فوضع أيدي أصحابه على الدليل القاطع الـــذي لا ينكـــره إلا مغرض ، فقد أشار إلى مكان الشق من صدره ، وقد كانت علامته فيه واضحة وظاهرة ، لأن الله أراد أن يبقى الأثر حتى يراه الصحابة بأعينـــهم ، ولا يبقـــى شك لا بالنسبة لمن شاهدوه ولا بالنسبة لمن سمعوه وبلغوا به ، كما يمكننـــا أن نقول : إن الميزان الصحيح لنقد الخبر لا يكفي فيه أن يقال إنه ممكن الاخـــتراع فيحكم عليه بالوضع ، لأن اتهام كل خبر بما سبق يقضي على أخبار التـــاريخ كلها في جميع العصور ، ولا يبقى منها شيئا ، وحيث أنه لا يوجد مسوغ ينفـــي أو يدعو إلى إنكار شق الصدر فإثباته أولى من نفيه) .[2]

أما الأستاذ الدكتور / عبد العزيز غنيم فيقول : (إن صدره عليـــه الصـــلاة والسلام – قد شق حقيقة ، ومن غير تأويل ولا إلتماس للمعـــاذير ، وذلـــك لوجوه .

أحدها : ما جرت به السنن الإلهية من تأييد الله للأنبياء بالخوارق قبل الوحـــي وبعده .

١- الطيب النجار / السيرة النبوية / ص ٤٣ .

٢- تاريخ العرب و صدر الإسلام ص ١٤٢ .

ثانيها : أن حادثة شق الصدر وإن كانت آية إلا أنها لم تجاوز دائرة الإمكان إلى دائرة الاستحالة وقد جاء النقل بها من طرق كثيرة وصحيحة ، فإنكارها لا لشيء سوى الاستبعاد أمر يجافي العلم والمنطق .

ثالثها : أن القول بأن روايتها إنما كانت على لسان طفل غير مسلم، فقد رواها النبي – عليه الصلاة والسلام – لأصحابه بعد الهجرة من مكة إلى المدينة.)[1]

تلك كانت آراء القائلين بالشق الحسي ولسوف نرجيء التعقيب عليها إلى أن نقف على آراء الفريق الآخر ليكون ترجيحنا أحد الرأيين على غيره قائما على أساس بين .

ثانيا القائلون بمجازية الشق :

بادئ ذي بدء نقول : إن المنكرين للشق الحسي اختلفوا عن الفريق الأول في نوع الأدلة التي أقاموا عليها رأيهم ، ذلك أن الروايات التي نقلت إلينا من خلال المصادر القديمة للتاريخ الإسلامي لم تذكر الشق المجازي باستثناء رواية واحدة على حد علمي ، كما أن أصحاب هذا الرأي أعملوا العقل في إثبات رأيهم سالكين دروب التأويل لما ورد عن الشق في القرآن الكريم وأحاديث سيد المرسلين . .

١- فلسفة السيرة / ص ٦٦ ، ٦٧ .

ويمكن إجمال الأدلة التي اعتمدوا عليها فيما يلي :

١- إن الشق الذي وقع لصدر النبي محمد لا يعدو عن كونه رؤية رآهـا في منامه ، و لم يقع في اليقظة ، بدليل الرواية التي ذكرها موسى بن عقبـة عن الشق الذي وقع للنبي عند نزول الوحي عليه ، فقال (بلغنا فيمـا بلغنا أول ما رأى أن الله أراه رؤيا في المنام ، فشق ذلك عليه فذكرهـا لخديجة ، فعصمها الله وشرح صدرها بالتصديق ، فقالت : أبشـر ، ثم أخبرها أنه رأى بطنه شق ، ثم طهر وغسل ثم أعيد كما كان ، قالت : هذا والله خير فأبشر ، ثم استعلق له جبريل وهو بأعلى مكة فأجلسه في مجلس كريم معجب ، كان النبي –صلى الله عليه وسـلم– يقـول : أجلسني على بساط لهيئة الدرنوك [1] فيه الياقوت واللؤلؤ ، فبشره برسالة الله عزوجل حتى إطمأن . [2]

ومن نافلة الإشارة إلى ما في هذه الرواية من الضعـف فحسـبك في هـذا خلوها من السند ناهيك عن قوله " بلغنا فيما بلغنا " فإن هذا الفظ يدل علـى أن موسى بن عقبة لم يطمئن إلى بعض ما جاء من روايته تلك .

٢- أجمعت الروايات التي تحدثت عن أمر الشق الأول الذي وقـع للنـبي محمد – صلى الله عليه وسلم – وهو طفل ، على أن أخاه في الرضاعـة هو الذي ذهب إلى حليمة وزوجها لإطلاعهما على الذي حدث للنـبي محمد – صلى الله عليه وسلم .

١- جمعه درنيك و هو ضرب من الثياب أو البسطله خمل قصير كخمل المناديل و به يشبه فروة البعير و الأسد . – ابن منظور / لسان العرب / مادة درنك ص ١٣٦٩ .

٢- الحافظ الذهبي / السيرة النبوية / ص ٧٣ ، ٧٤ .

و الأطفال لا يعول علي إخبارهم في إثبات أمر كهذا ، ليس ذلك فحسب بـل إن تلك الرواية تتناقص مع غيرها من الروايات التي تقول إن محمد أقام في بـني سعد حتى وصل الخامسة و أن حليمة ذهبت إلي أمة خلال تلك المدة مرتـين ، الأولي قبل الشق ، و الثانية بعدها عندما كان في الثالثة من العمر ، إلا أن تكون حليمة قد ذهبت به إلي أمة مرات ثلاثة ، خلال تلك المدة ، آخرها عندما بلـغ الخامسة من عمرة كما تقول بعض الروايات .

يضاف إلي هذا كله طعنهم في السند الذي نقل إلينا هذه الرواية [1].

و قد أجاب علي هذا الدليل أساتذة أجلا فقالوا: إن ما زعم من قول الأطفـال لا يوثق بأقوالهم ، قول لا يستقيم ، لأنهم إنما ينقلون ما يشاهدون ، و ليسـت لديهم دوافع تحملهم علي الكذب أو التلفيق ، و مع ذلك فقد تحدث الرسـول – صلي الله عليه و سلم . عن هذه الحادثة بعد البعثة حينما كـان يسـترجع ذكريات الطفولة ، و يقصها علي أصحابه ، و أخبر عن المرة الثانية التي وقعـت له في الإسراء و المعراج [2] .

٣- إن وقوع القصة للنبي أكثر من مرة يدعو إلي التشكك في صحتها علـي الحقيقة ، فإذا قلنا إن وقوعها مرتين عند البعثة و الإسراء مـن قبيـل المعجزات ، فإن ذلك لا يتيسر في المرتين الأوليين عندما كان صغيرا في الثالثة من العمر ثم العاشرة " [3].

١- هيكل / حياة محمد / ص ١٢٨ .

٢- الطيب النجار / السيرة النبوية / ص ٤٤ ،، عبد العزيز غنيم / فلسفة السيرة ص ٦٧، مروان محمد

٣- الفخر الرازي / التفسير / م ١٦ ج٣٢ ص ٢ ،، الألوسي / روح المعاني / ج٣ ص ١٦٧ .

٤ – و ذهب هذا الفريق إلي نقض ما جاء في رواية الفريق الأول من إزالة الحقد و الغل وو ضع الرحمة و الرأفة في قلب النبي ، علي أساس أن الخير و الشر و الغل و الحسد أمور معنوية (فلو كان الشر إفراز غدة في الجسم ينحسم بأنحسامها ، أو لو كان الخير مادة يزود بها القلب كما تزود الطائرة بالوقود فتستطيع السمو و التحليق لقلنا : إن ظواهر هذه الآثار مقصودة و لكن أمر الخير و الشر أبعد من ذلك ، بل من البدهى أنها بالناحية الروحية في الإنسان ألصق) .[1]

يضاف إلي هذا أن الفعل الوارد في رواياتالفريق الأول لا يكون إلا لإزالة أمر جسماني ، و ليس له علاقة بالأمر الروحاني ".[2]
و من ثم فإن روايات الفريق الأول تجعل المجاز في الشق راجحا ، و الحقيقة مرجوحة ، و هو خلاف ما ذهب إليه هذا الفريق .

و قد أجاب بعض الباحثين علي أمر غسل القلب بالماء ، فقال : أراد الله – تعالى – أن يغسل قلبه بماء حمل من الجنة و طست ملئ حكمة و إيمانا ؛ ليعرف قلبة طيب الجنة و يجد حلاوتها ، فيكون في الدنيا أزهد ، و علي دعوة الخلق إلي الجنة أحرص ، لأنه كان له أعداء يتقولون عليه ، فأراد الله– تعالي – أن ينفي عنه طبع البشر من ضيق الصدر و سوء مقالات ، الأعداء فغسل قلبه ليورث ذلك صدره سعة و يفارقه الضيق كما قال تعالي (و لقد تعلم أنك يضيق

---

١ - الغزالي / فقه السيرة / ص ٦٤ .
٢ - الألوسي / روح المعاني / ج٣١ ص ١٦٧

صدرك بما يقولون) فغسل قلبه غير مرة فسار بحيث إذا ضرب أو شج رأسه و شدخت رباعيته كما في يوم أحد يقول (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون).[١]

٤- إن ما ورد في القرآن نحن أمر الشق في قولة تعالي : (ألم نشرح لـــك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك ورفعنا لك ذكـــرك)[٢]. يرجح مجازية الشق علي الحقيقة ، فإن علماء اللغة قالوا : إن تفسـير الشرح بالشق أمر ضعيف ، و علي هذا فإن المراد منه أحـــد المعـــاني المجازية التي منها (تأثير النفس بقوة قدسية و أنوار إلهية ، بحيث تكـون ميدانا لمواكب المعلومات ، و سماء لكواكب الملكات ، و عرش لأنواع التجليات ، و فرشا لسوائم الواردات فلا يشغله شأن عن شـــأن ، و يستوي لديه يكون و كائن و كان) .

و منها (ألم نزل همك و غمك باطلاعك علي حقائق الأمـــور و حقـــارة الدنيا فهان عليك احتمال المكان في الدعاء إلي الله تعالي - .

و نقل عن الجمهور أن المعني ألم نفسحه بالحكمة و نوسعه ، بتيسيرنا لك حـــتى تتلقى ما يوحي إليك بعد ما كان يشق عليك)[٣] .

و من المستشرقين من أنكر حقيقة الشق و نسب ما روى عنـــها إلي نوبـــة عصبية وقعت للنبي محمد و هو طفل ، علي غرار و ليم موير و غيرة الذي قـــال : إن هذه النوبة لم تصبه بأذى لقوة بنيابة .

١- الطهطاوي / نهاية الإيجاز / ج١ ص ٣٩، ٤٠ .

٢- سورة الشرح .

٣- الزمخشري / الكشاف / ج٤ ص ٢٦٦ ،، الألوسي / روح المعاني / ج٣٠ ص ١٦٦ ،، أبو السعود / التفسير / ج٩ ص ١٧٢ .

و منهم من قال : إن محمدا ليس في حاجة إلي الشق حتى يعصمه ذلك من ارتكاب العيوب ، فالله قادر علي فعل ذلك به دون شق " .[1]

و الذي نراه بعد أن عرضنا لكل الفريقين أن الشق الحسي راجح على الشق المجازي ، و ذلك الأمور منها :

أ – أنه روي عن النبي محمد – صلي الله عليه و سلم – أكثر من حديث يذكر فيه أمر الشق ، إلي حد أن أنس قال : رأيت أثر ذلك في صدره الشريف ، و هذا الصحابي الجليل خدم النبي محمدا في بيته عشر سنوات ، و كان يسمح له بالدخول إلي بيته في الوقت التي لا يسمح بذلك لغيرة .

ب – إن القول بأن الله قادر فعل ما يريد بالنبي بدون شق حسي أمر صحيح ، إ أن وقوع الشق و صورته تلك كان كما يبدو لي لأجل حكمة أرادها المولي – عز و جل ، تتخلص في إظهار عنايته و رعايته لهذا النبي حتى إذا ما قام يدعو قومه إلي التوحيد بادروا إلي تصديقه لما رأواه من إرهاصات و معجزات حدثت لذاته.

ج – من البديهيات المسلم بها أن للعقل حدود يجب عليه الوقوف عندها ؛ لأن عجزة من إدراكها هو في حد ذاته دليل علي وجود الخالق . جل علاه .

و من ثم لا يجوز الطعن في الشق الحسي علي رغم أن الروايات التي ذكرته قالت إن الملائكة نزعت منه الغل و الحسد وو ضعت فيه الخير و الرحمة ، و هذه الأشياء أعراض لا جواهر فكيف تنزع ؟ و مع ذلك فإننا نقول إن الذي استخرجته الملائكة و الذي و ضعته في قلب النبي لا يستبعد أن يكون أسبابا

١- هيكل / حياة محمد / ص ١٢٨ ،، محمد رضا / محمد الرسول الأعظم / ص٥ .

تدفع الإنسان دفعا لترك هذا و فعل ذاك ، و هذا في حد ذاته يعـــدد ليـــلا أي دليل علي وجود الخالق و تضاؤل المخلوقين أمام ذاته العلية .

و قد أسلفنا الحديث عن ذاك الأمر أثناء تناولنا للقائلين بحقيقـــة الشـــق . و لكون بعض المستشرقين لم يستطع إدراك تلك الحقيقة أو تجاهلها عـــن عمـــد للطعن في رسالة النبي – محمد – صلي الله عليه و سلم فقد زعم أن ما حـــدث له عند شق صدره لم يكن إلا نوبة عصبية ، و لست أدرى كيف نوفق بين هذه الأفتيات علي النبي محمد – صلي الله عليه و سلم – و ما عرف به بين قومـــه من رجاحة العقل و الصدق و الأمانة ، ثم نتساءل لم نقول بالنوبة العصبيـــة و لا نسلم بالقدرة الإلهية التي تحدث الشق .

و نحن نوافق الباحثين المحدثين فيما أجابوا به علي طعن البعـــض في الشـــق الحسي ؛ لأن روايته منسوبة إلي طفل . علاوة علي تكرارها ، و كان تكفـــي وقوعه مرة واحدة للنبي محمد ؛ لأن ما قاله ينسجم تمام الانسجام مع ما قلنـــاه من أن قدرة الله لا ينبغي للعقل البشرى أن يضع لها حدا ، و يضاف إلي هذا مـا ذكروه في ردودهم لم يتعارض مع الواقع الذي عاشه النبي محمد – صلـــي الله عليه و سلم بين قومه .

وفاة آمنة

لما عاد محمد بصحبة حليمة إلي مكة في المرة الأخيرة ، استقبلته أمة آمنة و قد أغدقت علية من الحنان الكثير و الكثير ، فقد رأت فيه صورة أبيه الذي رحـــل عن دنياها بعد وقت يسير أقامه معها في بيتهما .

رأت آمنة إخبار محمد بما كان من أمر أبيه ، و كيف أنه توفي و هي حامل به ، و حتى تظهر الصورة جلية أمام النبي محمد – صلي الله عليه و سلم – أزمعت علي المسير به إلي يثرب لزيارة بني النجار و هو في السادسة من العمر علي المشهور من الروايات .[1] حيث إن أباه توفي عندهم ، فلما وصلت بابنها إليهم أقامت عندهم شهرا .[2]

أرادت أمة بعد ذلك العودة إلي مكة ، و بينما في الطريق إليها إذا بالمنية تأخذها من بين يدي طفلها و حاضنته أم أيمن ، فدفنت بالأبواء [3] حيث توفيت ، و قد ودعها محمد في هذه السن المبكرة بدموع تنم علي الأسى و الحزن العميق ، التي كانت بالأمس تروى له عن أبيه ، و تكشف له الأثر الأليم الذي تركة رحيله عنها ، فإذا به اليوم يعيش ألم فقدان أبويه .[4]

فلما وصلت أم أيمن إلي مكة و معها محمد ، استقبلها عبد المطلب استقبالا جميلا ، محاولا تهوين الأمر علي حفيده و تولي كفالته .

١- أبو نعيم الأصبهاني / دلائل النبوة / ص ٥٠ ،، المقريزى / امتناع الأسماع / ج١ ص ٣٤ .
٢- أبو نعيم الأصبهاني / دلائل النبوة / ص ٥٠،، صفي الرحمن المباركفوري / الرحيق المختوم / ص ٦٥
٣-بالفتح ثم السكون ، و فتح الواو ألف ممدودة : قرية من أعمال الفرع من المدينة ، بينها و بين الجحفه مما يلي المدينة ثلاثة و عشرون ميلا و قيل : جبل عن يمين أراه و يمين المصعد إلي مكة من المدينة (ابن عبد الحق / مراصد الإطلاع / ج١ ص ١٩) .

٤- البلاذري / أنساب الأشراف / ج١ ص ٩٤،، ابن سيد الناس / عيون الأثر ج١ص٣٧ ،، محمد أبو زهرة / خاتم النبيين / ج١ ص ١٣٠،، التاجي / سيرة النبي العربي /ج١ ص ٨٩،، محمد رضا / محمد رسول الله / ص ٣٤ .

محمد في كفالة جـــدة

آل أمر محمد إثر وفاه أمة إلي جدة ، فعاش الطفل محاطا بالحنان الذي يفـــوق حنان الأب علي ابنه ، فكان يقربه منه و يدينه و يدخل عليه إذا خلا و إذا نام و إذا أتى عبد المطلب بالطعام أجلس النبي محمدا – صلي الله عليه و سلم – إلي جانبية ، و ربما أقعده علي فخده ، فيؤثره بأطيب طعامه ـــ ، و كان رقيقا عليه إلي حد أن عبد المطلب لم يكن يأكل طعاما إلا أن يكون النبي صلي الله عليـــه و سلم – جالسا إلي جواره .

و تجمع المصادر القديمة أن عبد المطلب كان له فراش عند الكعبة يجلس عليـــه ، لا يجرؤ أحد من القوم اقترابا منه إجلالا و احتراما ، فكان النـــبي محمـــد – صلي الله عليه و سلم يأبى إلا الجلوس علي الفراش بجوار جده ، و كلما حـــاول الجلساء إثنائه عن ذلك منعهم عبد المطلب ، قائلا لهم :

" دعوا ابني ، فوالله إن له لشأنا ، ثم يجلسه معه ، و يمسح ظهره بيده و يســـره ما يراه " [١]

و يلوح لنا أن اهتمام عبد المطلب بحفيده ربما يرجع إلي أحد أمرين :

أولهما : هذا اليتم الذي عاش فيه الحفيد ، و هو ما يزال في سن الطفولة ، ممـــا جعل الجد يفيض عليه من عطفه و حنانه ، إلي حد جعله لا يطيـــق فراقـــه في معظم الأوقات .

ثانيهما : ما شاع في المصادر القديمة من روايات ذكرت لعبد المطلب ، تشير فيها إلي مستقبل عظيم ينتظر الحفيد ، فرفعه هذا إلي بسط المزيد من العنايـــة و

---

١ – ابن هشام / سيرة النبي / ج١ ص ١٨٠ .. ابن سعد / الطبقات الكبرى / ج١ ص ١١٧ .. البلاذري / أنساب الأشراف / ج١ص٨١ ..محمد أبو زهرة خاتم النبيين / ج١ ص ١٣٤.

الرعاية له ، حتى إذا ما كبر و حق ما جاء في الروايات ازداد بنو هاشم به مكانة علي مكانتهم .

و آيه ذلك ما ذكره ابن سعد في الطبقات أن قوما من مدلج قالوا لعبد المطلب عن محمد (احتفظ به فإنا لم نر قدما أشبه بالقدم التي في المقام عنه) فقال عبد المطلب لأبي طالب : اسمع ما يقول هؤلاء فكان أبو طالب يحتفظ به [1] .

و من ذلك ما روى عن عباس بن هاشم عن مخرمة بن نوفل عن[2] الزهري قال : سمعت أمي رقيقة بنت أبي صيفي بن هاشم تحدث ، و كانت لده عبد المطلب ، قالت : تتابعت علي قريش سنون ذهبت بالأموال فسمعت في النوم قائلا يقول هذا أوان بني مبعوث فيكم معشر قريش ، و به يأتيكم الحيا و الخصب ، فليخرج رجل منكم طوال ، أبيض ، مقرون الحاجبين ، أهدب الأشفار ، و جعد الشعر ، أشم العينين ، و ليخرج مع ولده وولد ولده ، و ليخرج من كل بطن رجل ، حتى يعلوا أبا قيس [3]. ثم يتقدم هذا الرجل فيستسقي و يؤمنون) .

فلما أصبحت عرضت رؤياها علي عشيرتها فوجدوا ما رأت في عبد المطلب فخرج و معه أبنائه و محمد إلي الجبل المذكور .

١-- الطبقات الكبرى ج١ ص ١١٨

٢- ابن أهيب بن عبد مناف ، و أبو المسور كان من مسلمي الفتح ، له مكانه عاليه ، عالما بالنسب ، ولدية معرفه دقيقة بأنصاب الحرم ، حتى أن عمر بن الخطاب بعثه مع ثلاثة لتحديدها .

٣- بلفظ التصغير كأنه تصغير قس النار : هو الجبل المشرف علي مكة من غربها وجهه إلي قعيان و مكة بينهما و كان يسمي في الجاهلية الأمين لما قيل إن الحجر الأسود استودع فيه عند الطوفان

و طفق عبد المطلب يقول : (اللهم هؤلاء عبادك ، بنو إمائك ، و قد نزل بهم ما ترى و تتابعت عليهم السنون ، فذهبت بالخف و القلق ، و أشفت الأنفس منهم علي التلف و الحنف ، فأذهب عنا الجدب ، و ائتنا بالحياه و الخصب) .
فما برحوا حتى سالت الأودية ، و برسول الله صلي الله عليه و سلم سقوا [١]
و مهما يكن من أمر فإن النبي محمدا – صلي الله عليه و سلم ظل في كنف جده حتى نزل به مرض الموت ، فلما أحس عبد المطلب بدنو أجله أوصى بنيه بحفيده خيرا

و تختلف الروايات فيما بينها حول من دفع إليه عبد المطب محمدا ، فمنها من يقول إنه أعطاه أبي طالب ، علي الرغم من قله ماله و كثره عياله ، ووجود من هو أيسر منه مالا من بنيه ، علي غرار الحارث ، ، و بروا اختيار عبد المطلب هذا لما عرف عن أبي طالب من الكرم و الحنان ، ناهيك عن كونه أخا لعبد الله لأمة و لأبيه .
و من ثم رجح عبد المطلب جانب أبي طالب علي غيرة من أخواته [٢] و منها من يقول إن بني عبد المطلب استهموا فيما بينهم من أجل أخذ أحدهم النبي محمدا – صلي الله عليه و سلم – فأصابت القرعة أبا طالب .

و رواية ثالثة تقول إن عبد المطلب أعطي محمدا للزبير [١] حتى توفي ثم آلت كفالته بعد ذلك إلي أبي طالب .

١- ابن سعد / الطبقات الكبرى / ج١ص٨٩، البلاذري أنساب الأشراف /ج١ص٨٢، ابن حجر /
٢- محمد أبو زهرة / خاتم النبيين / ج١ ص ١٣٦ .

و الرواية الأخيرة أضعف الروايات ؛ لأن الزبير شهد حلف الفضول و لرسول الله صلي الله عليه و سلم – نيف و عشرون سنه ، و لا اختلاف بين العلماء في أن شخوص رسول الله صلي الله عليه و سلم إلي الشام مع أبي طالب بعد موت عبد المطلب كان بعد مضي أقل من خمس سنوات [٢]– كما سأبينه –.
و قد اختلفت الروايات كذلك في سن عبد المطلب عند وفاته ، فذكرت أقوال كثيرة بعضها يحدد وفاته عند بلوغه الثلاث و الثمانين من العمر ، و البعض الآخر يحدد ذلك بخمس و ثمانين سنة .

و بينما يذكر الزبير عن نوفل بن عمارة أن عبيد بن الأبرص قرب عبد المطلب ، و بلغ عبيد مائه و عشرين سنه ، و بقي عبد المطلب بعده عشرين سنه .[٣]

و يترتب علي هذه الرواية أن عبد المطلب يكون قد توفي و النبي محمد – صلي الله عليه و سلم – يبلغ من العمر ثلاثة و ثلاثين سنة ، علي أساس أن عبيد بن الأبرص توفي سنة (٥٥٥ م – ٦٦ ق.ه) [٤]. و هذا يخالف المتواتر من الروايات في شأن وفاة عبد المطلب .
و الراجح لدينا أنه توفي سنة ثمان من حادثة الفيل ، و النبي محمد يبلغ من العمر وقت ذلك ثماني سنوات ، بعد مضي عامين من كفالة جده له .

١- أكبر أعمام النبي – صلي الله عليه و سلم –عاصر النبي في طفولته و كان يعد من شعراء قريش ينسب إليه البيتان اللذان أولهما: إذا كنت في حاجة مرسلا *** فأرسل حكيما و لا توصيه –الزركلي / الأعلام / ج٣ ص٤٢ .

٢- البلاذري / أنساب الأشراف / ج١ ص٨٥،، ابن سيد الناس / عيون الأثر / ج١ ص ٤٠

٣- ابن سيد الناس / عيون الأثر / ج١ ص ٤٠ .

٤- أحمد عطية الله / القاموس الإسلامي / ج٥ ص ٢٣٧.

و علي أية حال فإن عبد المطلب لما لحقته الوفاة ، أسف القوم عليه أسفا شـديدا و هم يوارونه التراب بالحجون[1] . ذلك أنه لم يكن من بين بنية من هـــو علـــي شاكلته في الكرم و إبداء الرأي ، ففقيرهم عاجز عن مثل عملة ، و كان غنيـهم حريصا علي ماله ، لذلك ما لبث بنو أميه أن تهيأ و اليأخذوا المكانة التى طمعـوا فيها من قبل ، دون أن يخشوا من بني هاشم مزاحمة تخيفهم .[2]

و بوفاة الجد يبدأ النبي محمد – صلي الله عليه و سلم – مرحلة جديـــدة مـــن مراحل حياته ، عاش فيها كواحد من أبناء عمه أبي طالب .

محمد في كفالة عمـه

لقي محمد الحب و الحنان من عمه ، فكان يجلسه في جواره عند مطعمـــة و مشربه ، كما كان يفعل عبد المطلب معه من قبل ، و قد صبى أبو طالب بـــه صبابة لم يصب بمثلها بشيْ قط ، و كان يخصه بالطعام ، و كان إذا أكل عيـال أبي طالب جميعا أو فرادي لم يشبعوا ، و إذا أكل معهم رسول الله صلـــي الله عليه و سلم – شبعوا ، فكان إذا أرادا يغذيهم ، قال : كما أنتم حـــتى يـأتي ولدي ، فيأتي رسول الله – صلي الله عليه و سلم – فيأكل معـــهم ، فكـانوا يفضلون من طعامهم ،

و إن لم يكن معهم لم يشبعوا ، فيقول أبو طالب : إنك لمبارك " [3].

و كان أولاد أبو طالب يصبحون شعثا رمصا ، و يصبح رسول الله مدهونـا مكحولا . فكان صلوات الله و سلامة عليه قانعا بما هو فيه ، فلم يشك يومـا

١- آخره نون نقيل بأعلى مكة و في الموضوع المذكور مقابر أهلها .(ابن عبد الحق / مراصد الاطلاع /ج١ ص ٢٨٣

٢- هيكل حياة محمد / ص ١٣٠، ١٣١

٣- ابن كثير / البداية و النهاية / ج٢ ص٢٨٢، ٢٨٣.، محمد أبو زهرة خاتم النبيين/ ج١ص١٣٦ ،١٣٧.

من الجوع و العطش ، فكان يغدو فيشرب من زمزم ، فإذا ما عرضـــوا عليـــه طعاما أقبل عليه غيرهم لشعبه " . [١]

أخذت الأيام و السنون تمضي علي النبي و هو في كفالة عمه ، حتى تـــأهب أبو طالب ليكون ضمن رجال القافلة التي تتوجه من مكة إلي الشام في كل عـــام ، بقصد الاتجار في السلع ، لعله يجني من وراء رحلته تلك ربحا يعينه في النفقـــة علي أولاده .

و لما أحسن النبي محمد صلي الله عليه و سلم – بذلك لاذ بعمـــه ، فطفـــق يبكي و يقول له لا تتركني ها هنا ، و ظل محمد به حتى وافقه أبو طالب علـــى خروجه معه إلي الشام ، و كان محمد قد بلغ من العمر اثنتي عشرة سنة . [٢]

و هنا تختلف الروايات فيما بينهما ، فبعضها يقول : إن أبا طالب سار مـــع القافلة حتى وصلت إلي تيماه [٣] ، فرآه حبر من يهودها و معه محمد ، فقـــال لأبي طالب : ما هذا الغلام ؟ قال : هو ابن أخي قال : فو الله إن قدمـــت بـــه إلي الشام لا تصل به إلي أهلك أبدا ، ليقتلنه اليهود ، إنه عدوهم ، فخرج به .
أبو طالب من تيماه إلي مكة [٤] تاركا القافلة القرشية تسير في طريقها إلي الشام .

١- ابن سعد/ الطبقات الكبرى / ج١ ص١٦٨،، ابن كثير /البداية و النهاية / ج٢ ص ٢٨٣.
٢- الطبرى/ تاريخ الأمم و الملوك / ج٢ ص ٢٧٧،، أبو الحسن علي الحسني الندوى/ السيرة النبوية / ص ١١٦ .
٣- بالفتح و المد بليد ، في أطراف الشام ، بين الشام ووادي القرى ، علي طريق حاج الشام دمشق ، ياقوت / معجم البلدان / ج٢ ص ٦٧ .
٤- الحافظ الذهبي / السيرة النبوية / ص ٣٠ .

بينما نجد البعض الآخر من الروايات أن أبا طالب واصل سيره مع القافلة حتى وصلت إلي بصري[1] ، فنزلوا قريبا من صومعة راهب هناك يقال له بحيرا ، و كان إليه علم النصرانية . " فلما رآهم صنع لهم طعاما كثيرا ، و يعزي ذلك الفعل إلي رؤية بحيرا للنبي محمد و غمامة تظله من بين القوم ، ثم أقبلوا فنزلوا في ظل شجرة قريبا منه فنظر إلي الغمامة حتى أظلت الشجرة ، و تهصرت أغصان الشجرة علي رسول الله – صلي الله عليه و سلم – حتى استظل تحتها ، فلما رأى ذلك بحيرا، نزل من صومعته و قد أمر بذلك الطعام فصنع ، ثم أرسل لهم أني قد صنعت لكم طعاما يا معشر قريش و أحب أن تحضروا كلكم وصغيركم و كبيركم و عبيدكم و حركم ، فقال له رجل منهم : و الله يا بحيرا إن بك اليوم لشأن ، ما كنت تصنع هذا بنا و قد كنا نمر بك كثيرا ، أما شأنك اليوم . قال بحيرا : صدقت قد كان ما تقول ، و لكنكم ضيف الله ، و قد أحببت أن أكرمكم و أصنع لكم طعاما فتأكلوا منه كلكم : فاجتمعوا إليه و تخلف رسول الله من بين القوم ، لحداثة سنة في رحال القوم ، فلما نزل بحيرا في القوم لم ير الصفة التي يعرف و يجد عنده ، فقال : يا معشر قريش لا يتخلفن أحد منكم عن طعامي . قالوا له يا بحيرا ما تخلف أحد ينبغي له أن يأتيك إلا غلام و هو أحدث القوم سنا فتخلف في رحالهم ، قال : لا تفعلوا ، أدعوه فليحضر هذا الطعام معكم ؛ فقال رجل من قريش : و اللات و العزى و إن

١- بالضم و القصر : مدينه قديمة تقع في إقليم حوران في الجنوب من دمشق ، و كانت بصري نهاية طريق القوافل من الحجاز إلي الشام في العصر الجاهلي ، و هي الطريق المارة بتبوك و معان الكرك. فتحها المسلمون عام ١٣ هـ (ابن عبد الحق / مراصد الاطلاع / ج١ ص ٢٠١ أحمد عطية القاموس الإسلامي ج١ ص ٣٢٣) .

كان للوما بنا أن يتخلف ابن عبد الله بن عبد المطلب .عن طعام من بيتنا ثم قـام إليه فاحتضنه و أجلسه مع القوم [١].

فقال له بحيرا : يا غلام ، أسألك بحق اللات و العزى إلا ما أخذتني عما أسألك عنه ، فزعموا أن رسول الله صلي الله عليه و سلم قال له : لا تسألني بـاللات و العزى شيئا ، فو الله ما أبغضت شيئا قط بغضهما ، فقال بحـيرا : فبـا الله إلا أخبرتني عما أسألك عنه فقال له : سلني عما بداك فجعل يسأله عن أشياء مـن حالة : من نومة و هيئته و أموره ، فجعل رسول الله صلي الله عليـه و سـلم يخبره ، فيوافق ذاك ما عند بحيرا من صفته ، ثم نظر إلي ظهره فرأى خاتم النبـوة بين كتفيه علي موضعه من صفته التي عنده ، و كان مثل أثر المحجـم ، فلمـا أفرغ أقبل علي عمه أبي طالب فقال له : ما هذا الغلام منك ؟ قال ابني ، قـال له بحيرا : ما هو بابنك و ما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوة حيا ، قال : فإنـه ابن أخي ، قال : فما فعل أبوة ؟ قال : مات و أمه حبلي به ، قال : صدقـت ، فارجع بابن أخيك إلي بلده ، و احذر عليه اليهود ، فو الله لئن رأوه و عرفـوا منه ما عرفت ليبغينه شرا ، كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم .

و تمضي الرواية قائلة إن أبا طالب عندما تأهب للعودة إلي مكة تصدت لـه كوكبة من اليهود لأخذ النبي محمد من بين يديه ، و أن الذي منعهم من ذلـك بحيرا الراهب ، الذي ذكرهم بالله و ما يجدون في كتابهم من ذكره وصفتـه ، و أنهم إن اجتمعوا لما أرادوا به لم يخلصوا إليه ، و لم يزل بهم حتى عرفوا ما قـال لهم و صدقوه بما قال فتركوه و انصرفوا عنه " .[٢]

١- الطبري : تاريخ الأمم و الملوك / ج٢ ص ٢٧٧ ،، ابن سيد الناس / عيون الأثر / ج١ ص ٤١ ،، أبو الحسن علي الحسني الندوي : السيرة النبوية / ص ١١٦،١١٧ ،، محمد أبو زهرة / خاتم النبيين / ج١ص١٤٣،١٤٤

٢- ابن هشام : السيرة النبوية ج١ ص ١٩٧ .

و قد زادت رواية الحافظ أبو بكر الخرائطي التي نقلها عن عباس بن محمد الدوري عن قراد أبي نوح عن يونس عن أبي إسحاق عن أبي بكر بن أبي موسى الأشعر ي علي ما تقدم أن بحيرا هو الذي خرج إلي أبي طالب و مرافقيه ، و جعل يتخللهم حتى جاء فاخذ بيد الرسول الله صلي الله عليه و سلم ، ثم قال : هذا سيد العالمين ، هذا رسول رب العلمين ، يبعثه الله رحمة للعالمين ، فقال الأشياخ من : قريش : ما علمك فقال : إنكم حين أشرقتم علي العقبة لم يبقي شجر و لا حجر إلا خر ساجدا و لا يسجد إن إلا لنبي ، و إني لأعرفه بخاتم النبوة أسفل غضروف كتفه مثل التفاحة ثم رجع فصنع لهم طعاما ، ورد أبو طالب النبي محمدا ، و بعث معه أبو بكر بلا لا[1] ، وزوده الراهب من الكعك و الزيت[2].

و قد وقف موقف الريبة من قصة بحيرا هذه كثيرا من المؤرخين القدامى و الباحثين المحدثين ، فتناولوا رواياتها بالنقد الذي يجعل المرء يتشكك في الأخذ بها .

و حتى تكون علي بينه من هذا الأمر ، يحسن بنا ذكر بعض الأقوال التي نقد بها الفريقان هذه القصة .

ذكر ابن كثير أنه علي الرغم من كون أبي نوح راوي حديث بحيرا من المشهود لهم بالثقة في رواياتهم ، فإنه مع ذلك كله قد تضمن حديثة هذا غرابه جعلت الترمذى يقول : إننا لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

١- اختلف في كنيته فقيل أبو عبد الكريم أو أبو عبد الله أو أبو عمروا، اشتراه العباس بن عبد المطلب لأبي بكر من بني جمح ، كان أخا لأبي عبيده سنه عشرين و هو ابن الجراح بعد الهجرة إلي المدينة ، توفي رضوان الله عليه بدمشق سنه عشرين و هو ابن بضع و ستين سنة ، و قيل مات سنة سبع أوثمان عشرة ، ابن الأثير / أسد الغاية / ج١ ص ٢٠٦ :٢٠٩ .

٢- ابن كثير / البداية و النهاية / ج٢ ص ٢٨٥ .

و مما قاله بن كثير عن هذا الحديث : أنه من مرسلات الصحابـة ؛ فـإن أبـا موسى الأشعري الذي انتهيت إليه الرواية الأخيرة ، إنما قدم في سنه سبع مـن الهجرة ، و لا يلتفت إلي قول ابن إسحاق في جعله مـن المـهاجرة إلي أرض الحبشة من مكة .

فلا يستبعد و الحالة هذه أن يكون أبو موسى قد رواه عن أحد الصحابة ، هـذه إذا سلمنا بصحة الحديث .

أما الذهبي فإنه لم يرتض الأخذ به ، و طفق يطرح عده تساؤلات تكشف عـن مدي التناقض الذي تضمنه الحديث المذكور ، فمما قاله (أين كان أبو بكـر وقت ذاك ؟ فإنه كان ابن عشر سنين ، إذ هو أصغر من رسول الله – صلـي الله عليه و سلم – بسنتين و نصف .

و أين كان بلا ل في هذا الوقت ؟ فإن أبا بكر لم يشتره إلا بعد المبعـث ، و لم يكن ولد بعد ، و أيضا فإذا كان عليه غمامة تظله ، كيف يتصور أن يميـل في الشجرة ، لأن ظل الغمامة يعدم في الشجرة التي نزل تحتها ، و لم نر النبي صلـي الله عليه و سلم – ذكر أبا طالب قطو الراهب ، و لا تذاكرت قريـش ، و لا رواه أولئك الأشياخ ، مع توفر هممهم و دواعيهم علي حكاية مثل ذلك ، فلـو وقع لا شتهر بينهم أيما الاشتهار ، و لبقي عنده صلي الله عليه و سلم – حـس من النبوة و لما أنكري مجئ الوحي إليه أولا بغار حراء ، و أتي خديجـة خائفـا علي عقلة ، و لما ذهب إلي شواهق الجبال ليرمي نفسه – صلـي الله عليـه و سلم – فلو أثر هذا الخوف أبي طالب ورده كيف كانت تطيب نفسه أن يمكنـه من السفر إلي الشام تاجرا لخديجه ؟) .[١]

١- السيرة النبوية / ص ٢٨ .

و قد تناول صاحب فقه السيرة القصة بالمناقشة علي غرار القدماء الـذي لنقدها علي أساس أنها مدسوسة علي النبي محمد – صلي الله عليه و سلم – من ذوي الديانات السماوية الأخرى ، فمما قاله في هذا الصدد : إن ما زعمته بعض الروايات من تعرض جماعة من اليهود لأخذ النبي محمد – صلي الله عليه و سلم – من بين يدي عمه و منع بحيرا لهم من فعل ذلك ، أمر له نظير عند النصارى ، ذلك أن الإنجيليين ينكرون (أن ناسا طلبوا المسيح عقب ولادته لقتله ، و هذا أيضا هو ما عند الوثنيين من أن " بوذا " لما وضعته أمة العذراء طلبه الأعداء ليقتلوه)

و قد عزي الباحث الكبير شيوع مثل هذه الأخبار في سيرة النبي إلي أن علماء السنة يهتمون بالأخبار الواردة – من ناحيتي المتن و السند - ، فإذا لم تفد علما ثابتا أو ظنا راجحا لم يكترثوا بها، و قد انضمت أساطير كثيرة إلي سير المرسلين ، بناء علي هذا ، و عندما تعرض للقواعد المقررة في فن الحديث يظهر عوارها ، و يساغ اطراحها " [1] .

و من و المستشرقين من نعت قصة بحيرا هذه بالخرافة ، مثل " كاراد فو " الذي لم يوافق جماعة القسيسين تابعيين تروما في جعلهم بحيرا هذا مبشرا سائحا ، جاء إلي بلاد العرب ليعلمهم دين جدهم إسماعيل .

و من سخف ما قالته هذه الفئة عن هذا الراهب ، إنه هو الذي علم النبي محمد - صلي الله عليه و سلم [illegible] . و من ثم حق لهذا المستشرق أن يقول عما ثبتته تلك الجماعة خرافة . و [illegible] عقب على هذه الفرية ذو الإمارتين شكيب أرسلان ، فقال :

---

[1] غزالي فقه السيرة ص [illegible]

" و كيف لا تكون خرافة القصة التي تجعل بحيرا الراهب الأعجمي ينطق بمثل القرآن ، الذي عجزت عنه مصاقع خطباء العرب ، و فحول شعرائهم ، و هـــم أفصح و أبلغ ما كانوا) .

و كشف لنا النقاب عن الدوافع الكامنة وراء ابتداع هذه الجماعة فصـــــول هذه القصة المزعومة ، فقال (إنهم اخترعوا هذه الأكاذيب اختراعا ، علي أمـــل إدخال الريب و الشبهات في نبوة محمد صلي الله عليه و سلم -، و في نــــزول الوحي عليه ، و في كيفية دعوته إلي الإسلام ، و في نشوء ملته و شـــريعته ، و لكنه لم يخف افتراؤهم هذا علي قومهم فردوه بالاجماع تقريبا . و ســـــلموا أن أصل القصة قد يكون هذه الكلمة التي قالها هذا الراهب عن محمد لما جاء صبيـــا مع عمه إلي الشام ، و رآها الراهب في بصري ، و هي كلمة تزيد الدلالة علـــي صحة رسالته -- صلي الله عليه و سلم .[1]) (و يأبى الله إلا أن يتم نوره و لـــو كره الكافرين .)

و نحن نوافق القائلين بالشك في قضيه بحيرا هذه ؛ لأنها لم تقوا علي مناقشـــة حفاظ الحديث لها ، و هذا لا يعني نفيها كليه ، فلا يستبعد أن يكون الراهـــب قد رأى محمدا مع عمة في القافلة ، و أوصاه به خيرا عندما علم أن محمدا جـــاء مع عمه متحملا لمشاق السفر لتعلقه به ، و أن أبا طالب لم يستطع منـــع ابـــن أخيه من الخروج معه ، لفرط محبته لعبد الله من ناحية ، و امتثالا لوصية عبـــد المطلب من ناحية أخرى .

١- لو ثروب ستودادر الأمريكي / حاضر العالم الإسلامي / ج١ ص ٤٠، ٤١، نقله إلي العربية " شكيب أرسلان ".

و لا مانع أن يكون قد دار بين الراهب و أبي طالب حوار قصير ، خلص منه الأول إلي أن ما قرأه في كتابة المقدس قد ينطبق علي ما سمعه في هذه العجالــة ، فأوص أبا طالب بمحمد خيرا .

بيد أننا لا نوافق الشيخ / الغزالي فيما ذهب إليه من أن علماء السنة لم يصرفــوا جل عنايتهم إلا في البحث عن سير رواه الأخبار دون تمحيص الخبر المنقــول ، لاستخراج ما قد يكون فيه من تناقض ، و من ثم رفضه ، و حسبنا في التدليــل علي مجانبه الصواب . هذا الرأي ، ما ذكره الحافظان الجليلان ابــن كثــير و الذهبي من نقد موجة لأخبار هذا الحديث إلي حد أن الأول قال عنه أنه غريــب ، و الثاني قال : إنه منكر ، فأي تمحيص و تدقيق يريده العالم الجليل من رجــال السنة بعد هذا .

و من نافلة القول الإشارة إلي أن شك الحفاظ في هذا الحديث وقــع علــي الرغم من كون أبي نوح ناقل مشهود له بالعدالة من قبل علماء الحديــث ، و سواء وقعت هذه القصة أم لم تقع فإن محمد صلوات الله و سلامة عليــه — في غنى عنها ، حيث إن المقصود منها ، و هو التبشير بظهور النبي قد تحقق بــدون هذه القصة .

فقد أشرنا إلي ذلك أثناء حديثنا عن الإرهاصات التي ســبقت المولــد ، فبينــا النعوت التي نعت بها الرسول صلي الله عليه و سلم — من التــوراة مــن قبــل ميلاده ، و مهما يكن من أمر فقد صمتت المصادر القديمة فلم تذكر رحلـة لأبي طالب بعد هذه الرحلة . و لعل السبب في ذلك راجع إلي الربح القليل الــذي

ربحه من رحلته الأخيرة ، و علي هذا فقد أصر علي الإقامة في مكة ، و الإنفاق من ماله اليسير علي أولاده الكثيرين .[١]

و عاش محمد في كنف عمه راضيا بحياته حتى كبر و أنس في نفسه القوة علـــى العمل ، فطلب من عمه ذلك حتى يخفف عليه عناء متطلبات الحياة .

و بذلك تبدأ مرحلة جديدة من مراحل حياة النبي الكريم يطلق عليها مرحلـــــة الشباب .

محمد في شبابــه

لهجت الألسنة بالثناء علي محمد بن عبد الله ، لما عرف عنه قومه من فعل كـــل كريم و تجنب القبيح .

و لم يكن للقوم عهد برؤية مثل هذا ممن هم في مثل سن الشــــباب ، لذلـــك استرعي محمد الأنظار إليه ، و غدا حديث القوم في مجالسهم ، فلقبوه بـــالأمين الصادق " .[٢]

و كانت أول حرفة عمل بها النبي محمد رعيه للأغنام ، فقد روى عن عمـــر بن عمر بن فارس عن جابر عبد الله ، قال : كنا مع النبي – صلي الله عليـــه و سلم نجني الكباث فقال : عليكم بالأسود منه أطيبه فإني كنت أجنيه ، إذا كنت أرعى الغنم ، قلنا : و كنت ترعى الغنم يا رسول الله ؟ قال : نعم ، و ما مـــن نبي إلا وقد رعاها .

و قد روى عنه أنه قال : (بعث موسى عليه السلام و هو راعي غنـــم ، و بعث داود عليه السلام و هو راعي غنم ، و بعثت و أنا أرعى غنم أهلي بأجياد ".[١]

١- هيكل / حياة محمد / ص ١٣٢ .

٢- خالد محمد خالد / خلفاء الرسول / ص ٤٥

و قد حاول الباحثون المحدثون استنباط الحكم و الحقائق من عمل النبي محمد – صلي الله عليه و سلم – بهذه الحرفة في شبابة المبكر، فذكر الشيخ الغزالي أن محمدا (كان معافى من العقد الكريهة التي تزين للشباب تعشق العظمة عن طريق التظاهر و الرياء ، أو تطلب الرياسة عن طريق المداهنة و اشتراء العواطف ، فإذا انضم لهذا كرهه الشديد للأصنام التي عكف عليها قومه وازد راؤه للأوهام و الأهواء التي تسود الجزيرة العربية . و ما وراءها ، و إدراكه أن الحق شيء آخر وراء هذه الخرافات الغالبة ... تبينا السر في أستئناسه للفضاء و استراحة إلي رعي الغنم في هذه الأنحاء القصية ، مكتفيا بالقليل الذي يعود عليه من كسبها ، أهذا زهد في المال أ و إعراض عن الحياة الدنيا ؟ لا إنما هو انشغال بالحقائق العليا التي تصلح بها ، و يسخر فيها المال ، و الرجال الكبار لا تشبعهم كنوز الذهب و الفضة إذا ظمئوا إلي الحق . و لا يريحهم أن يكونوا ملوك قومهم أو ملوك الحياة إذا رأوا المساخر الشائنة تسير بالحياة كلها إلي منحدر تسقط فيه أقدار الناس ، و تتعرى فيه الدنيا جمعاء من كل خير) [٢]

و ذهب الدكتور / هيكل إلي اشتغال النبي محمد صلي الله عليه و سلم – برعي الأغنام آثار في نفسه تساؤلات تهدف كلها إلي الوصول للحقيقة التي ابتغاها النبي محمد صلي الله عليه و سلم – في مطلع شبابه فقال (و إذا كان نظام هذا القطيع من الغنم أمام محمد يقتضي انتباهه و يقظته ، حتى لا يعدو الذئب علي شاه منها ، حتى لا تضل إحداهما في مهام البادية ، فأي انتباهه و أية قوة تحفظ

١- ابن سعد / الطبقات الكبرى / ج١ ص ١٢٦ ،، محمد أبو زهرة / خاتم النبيين/ ج١ ص ١٣٨ ،، الندوى / السيرة النبوية / ص ١٢٣، ١٢٤ .

٢- فقة السيرة ص ٧٧ ، ٧٨ .

علي نظام العالم كل أحكامه ؟ و هذا التفكير و التأمل من شأنها صرف صاحبهما عن التفكير في شهوات الإنسان الدنيا و السمو به عنها بما يبديان له من كاذب زخرفها ، لذلك ارتفع محمد في أعماله و تصرفاته عن كل ما يمس هذا الاسم الذي أطلق عليه و نعني به الأمين) [١].

و قد أضاف أحد الباحثين المحدثين حقائق أخرى مستخلصة من اشتغال النبي محمد – صلي الله عليه و سلم – بهذه الحرفة غير تلك التي أسلفها فقال : (و يمكننا أن نستخلص من قيام الرسول صلي الله عليه و سلم – بالرعي أمور منها :

١ – الذوق الرفيع و الإحساس الرقيق للرسول – عليه السلام – الذي ما أن أنس من نفسه القدرة علي الكسب حتى أقبل عليه و لم يركن إلي عناية عمه و حنوه عليه في ترك التكسب ، و إنما هو تعبير أخلاقي عن شكره لعمه ، و بذله ما وسعه جهده ، و شهامة في طبعة و بر في معاملته .

٢ – إن الحكمة الإلهية تريد منا أن نعلم أن خير مال الإنسان ما اكتسبه بكد يمينه ، و لقاء ما يقدمه من الخدمة لمجتمعة و بني جنسه ، و شر المال ما أصابه الإنسان بلا تعب أو نصب ، و دون أن يبذل أي فائدة للمجتمع في مقابلة ، و ما أكثر هؤلاء في مجتمعنا الحاضر و ما أكثر المتطفلين علي الطبقات الكادحة الذين يمتصون دماء الغير لتكثير ثرواتهم ، و نحن نعلم أن القدرة الإلهية كان بإمكانها أن تهيء للنبي و هو في صدر حياته من أسباب الرفاهية ما يغنيه الكدح و رعاية الأغنام سعيا وراء ، القوت و لكنها التربية الربانية) . [٢]

١- حياة محمد / ص ١٣٥ .

٢- عبد الرازق الطنطاوي / تاريخ العرب و صدر الإسلام / ص ١٥١ .

و لم يكن النبي محمد على غرار الذين زاملوه في رعي الأغنام ، فلو يله مثـــل لهوهم ، و حتى عندما زين له أحد زملائه في هذا العمل فعل مثل ما يفعلــــون عصمه الله من هذا الفعل .

فقد روى البيهقى من حديث يونس بن بكير عن علي بن أبي طالب ، قـال : سمعت رسول الله صلي الله عليه و سلم يقول : " ما هممت بشيٌ مما كان أهـل الجاهلية يهمون به من الفساد إلا ليلتين ، كلتاهما عصمني الله عز و جل فيـها ، قلت ليلة لبعض فتيان مكة و نحن في رعاة غنم أهلها ، فقلت لصاحبي ، أبصـر لي غنمي حتى أدخل مكة أسمر فيها كما يسمر الفتيان ، فقال : بلي — فدخلت حتى جئت أول دار من دور مكة ، سمعت عزفا بالغرابيل و المزامير ، فقلت : ما هذا قالوا تزوج فلان فلانة ، فجلست أنظر ، و ضرب الله علي أذني ، فـو الله ما أيقظني إلا مس الشمس ، فرجعت إلي صاحبي ، قلت ما فعلت شـيئا ، ثم أخبرته بالذي رأيت ، ثم قلت له ليله أخرى أبصر لي غنمي حتى أسمر ، ففعلـت فدخلت ، فلما جئت مكة سمعت الذي سمعت تلك الليلة ، فسألت فقيل نكـح فلان فلانة ، فجلست أنظر ، و ضرب الله علي أذني ، فو الله ما أيقظني إلا مس الشمس ، فرجعت إلي صاحبي ، فقال : : ما فعلت ؟ فقلـت : لا شـيٌ ، ثم أخبرته الخبر ، فو الله ما هممت و لا عدت بعدها لشيٌ من ذلك ، حتى أكرمـني الله عز و جل بنبوته) .[١]

و نذكر المصادر القديمة للتاريخ الإسلامي أن محمدا لما بلغ الخامسة عشـرة أو العشرين من العمر شهد مع قومه حرب الفجار (التي نشأت نتيجة خلاف وقع

١- ابن سيد الناس / عيون الأثر / ج١ ص ٤٤ ، ٤٥ ،، ابن كثير / البداية و النهاية / ج٢ ص ٢٨٨ ،، محمد أبو زهرة خاتم النبيين / ج١ ص ١٣٩ ، ١٤٢ ،، التاجي سيرة النبي العربي / ج١ ص ٤٨ .

بين المراض بن قيس الكناني و عروة بن عتبه الهوازني الرحال ، ذلك أن النعمان بن المنذر كان يبعث كل عام قافلة من الحيرة إلي عكاظ ، تحمل المسك و تجيء بديلا منه الجلود و الحبال و أنسجة اليمن المزركشة فعرض البراض الكناني نفسه عليه ليقود القافلة في حماية قبيلته كنانة ، و عرض عروة الهوازني نفسه كذلك ، و أن يتخطى إلي الحجاز طريق نجد ، و اختار النعمان عروة فأحفظ تلك البراض فتبعة و غاله و أخذ قافلته) .

و لما أرادت هوازن الأخذ بثأر عروة عمدت إلي قتل البراض ، و من ثم نشأت حرب[1] الفجار التي استمرت أربع سنوات ، و من أشهر أيامها يوم شمطة ، و هو يوم العبلاء ، و هما عند عكاظ ، و يوم الشرب و هو أعظمها يوما ، فيه قيد الحرب ابن أميه و سفيان و أبي سفيان ابنا أمية كي لا يفرا فسموا العنابسي ، و يوم الحريزة عند نخلة يوم الشرب ، انهزمت قيس إلا بني نصر ، الذين ثبتوا في الميدان .

و قد وضعت هذه الحرب أوزارها عندما خرج عتبه بن ربيعه[2] بين قومه متسللا ، فلم يشعروا به إلا و هو علي بعيره بين الصفين ينادي : يا معشر مضر ، علام تفانون ؟ فقالت له هوازن : ما تدعو إليه ؟ قال : الصلح علي أن تدفع لكم دية قتلاكم و تعفوا عن دمائنا ، قالوا : و كيف ؟ قال: ندفع لكم رهنا منا ، قالوا : و من لنا بهذا ؟ قال : أنا ، قالوا من أنت ؟ قال : أنا عتبه بن ربيعه بن عبد شمس فرضوا به و رضيت به كنانة و دفعوا إلي هوازن أربعين

١- الفاسي/ العقد الثمين / ج١ ص ١٥٠ ،، هيكل / حياة محمد / ص ١٣٣ البجاوي و آخرون / أيام العرب في الجاهلية ص٣٢٦، ٣٢٧ ،، أبو زهرة خاتم النبيين / ج١ ص ١٥٠ .

٢-ابن عبد شمس بن عبد مناف ، أبو الوليد . أحد سادات قريش في الجاهلية شهد بدر مع المشركين و قتلة علي بن أبي طالب (ابن الأثير / أسد الغابة / ج٢ ص ١٢٥.

رجلا ، فيهم حكيم ابن حزام ، فلما رأت بنو عامر بن صعصعـــة الرهـــن في أيديهم عفوا عن الدماء .و أطلقوه " [١]

و قد اختلف فيما قام به محمد بن عمل في هذه الحرب ، فقال أناس : إنـــه يجمع السهام التي تقع من هوازن و يدفعها إلي أعمامه ليردوهـــا إلي صـــدور خصومهم ، و قال آخرون : بل اشترك فيها و رمي السهام بنفسه [٢].

و قد روى عن النبي محمد – صلي الله عليه و سلم أنه قال : " كنت أنبـــل علي أعمامي " أي أرد عنهم نبل عدوهم إذا رموهم " . [٣]

و قد حاول الدكتور / هيكل التوفيق بين الروايات المختلفة في حقيقة العمـــل الذي قام به النبي محمد في هذه الحرب ، فقال :

" و ما دامت الحرب المذكورة قد امتدت فترالها في سنوات أربع فليس ما يمنـــع صحة الروايتين ، فيكون قد جمع الروايتين ، فيكون قد جمع السهام لأعمامـــه أول الأمر و رمي من بعد ذلك) .[٤]

و من الأحداث البارزة التي شهدها النبي محمد مع قومه ، توقعيـــهم حلـــف الفضول في دار عبد الله بن جدعان .

و ترجع نشأة هذا الحلف إلي أن رجلا من زبيد [١] قدم مكة ببضاعة ، و اشـتراها منه العاص بن وائل – و كان ذا قدر بمكة و شرف – فحبس عنـــه حقـــه ،

١- ابن سيد الناس / عيون الأثر / ج١ ص ٤٦ ، البحاوي / أيام العرب في الجاهلية / ص ٣٣٧.

٢- الغزالي / فقه السيرة / ٧٤.

٣- الذهبي / السيرة النبوية / ص ٣٠.

٢- حياة محمد / ص ١٣٤.

فاستعدي عليه الزبير الأحلاف : عبد الدار و مخزوما و جمعا و سهما و عديـا ، فأبوا أن يعينوه علي العاص بن وائل [٢]، فعلا جبل أبي قيـــس ، و قريـــش في أنديتهم حول الكعبة ، فنادي بشعر يصف فيه ظلامته رافعا صوته فمما قاله :

يا آل فهر لمظلوم بضاعته *** ببطن مكة نائي الدار و النفر
و محرم أشعب لم يقض عمرته *** يا للرجال و بين الحجر و الحجر
إن الحرام لمن تمت كرامته *** و لا حرام لثوب الفاجر و الغدر [٣]

فدعا الزبير بن عبد المطلب عشائر القوم لنصره هذا التاجر ، و رفع عنه ظلـــم العاص بن وائل ، و حتى يضمنوا عدم وقوع ذلك ثانيا عقدوا لذلك حلفـــا ، شهدته دار عبد الله بن جدعان .

و لم يكن اختيار هذه الدار محض مصادفة ، و إنما كان لمـــا عـــرف عـــن صاحبها من الجود فذكروا أنه كانت له جفنه للأضياف يســـتظل بظلـــها في الهاجرة .و من الأخبار التي نقلت عن كرمة أنه كان له مناديا بـــأعلى مكـــة و آخر بأسلفها ، يقولان : ألا من أراد اللحم و الشحم فليأت دار ابن جدعـــان ، و هو أول من أطعم بمكة الفالوذج و هو (لباب البر يلك بالعسل) .[٤]

١- بالفتح ، ثم كسر وياء مثناه من تحت ، مدينة باليمين تقع في السهل الساحلي في جنوب بيت الفقيه ، في موضع متوسط بين مينائي الحديد في الشمال و مخافي الجنوب يبلغ عدد سكانها في الوقت الحاضر ما بين ٢٥،١٥ ألفا ،، (ياقوت معجم البلدان / ج٣ ص ١٣١ ،، ابن عبد الحق

٢- والد عمرو بن العاص ، أحد حكام العرب في الجاهلية ، ظل علي شركة و استهزائه بالنبي محمد حتى توفي سنة ٦٢٠ ميلادية في الأبواء (ابن بكار / نسب قريش / ص ٤١٨ ، ٤٠٩ ،، الدركلي / الأعلام

٣- ابن عبد الوهاب / مختصر السيرة الرسول / ص ١٢ ،، البدوى / السيرة = النبوية / ص ١٢٧ ،، عبد الرازق الصطاوي / تاريخ العرب و صدر الإسلام / ص ١٥٢ ،، العدوى / الرسول بشيرا و نذيرا / ج١ ص ١٢٣

فلما أم القوم دار ابن جدعان قدم لهم الطعام فأكلوا منـــه ثم تعـــاقدوا ، و تعاهدوا بالله : لنكون مع المظلوم حتى يؤدي إليه حقه ، بل ما بحر صوفـــه و في التآسي في المعاش ، فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول ." [1]

و قد أثنى عليه النبي محمد– صلى الله عليه و سلم – فقال : (لقد شـــهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لي به حمر النعم ، و لو أدعي به في الإسلام لأجبت) .[2]

و إذا كان النبي محمد قد شهد حلف الفصول ، و هو في العشرين من عمـــره ، فإنه قد تأهب بعد ذلك لبدء مرحلة جديدة من مراحل حياته الرائعة ، غـــدا فيها محمد زوجا عائلا ، بعد ما كان بالأمس القريب مكفولا من عمه ، و قـــد بدأت هذه المرحلة عند زواجه بخديجة .

زواجـــه بخديجـــة

أجمعت المصادر القديمة علي أن السبب الذي جعل خديجة تعرف محمدا عـــن قرب هو اشتغاله في تجارتها .

و قد اختلف الروايات حول ما كانت خديجة هي التي أرســـلت إلي محمـــد طالبة منه العمل في تجارتها علي رغبة عمه ، أم أن أبا طالب هو الذي أرسل لها عارضا عليها عمل ابن أخيه في تجارتها .

١- اليعقوبي / تاريخ اليعقوبي / ج١ ص ١٥ ،، الفاسي / العقد الثمين / ج١ ص ١٥٢،، الذركلي / الأعلام ج٤ ص ٧٦

٢- ابن سعد الطبقات الكبرى / ج١ ص ١٢٨

٣- ابن عبد الوهاب / مختصر سيرة الرسول /ص١٢،، العدوى / الرسول بشيرا و نذيرا ص ١٢٣

فمن الأول ما روى عن محمد بن عمر عن نفسية بنت منية [1] أخت يعلي بن منية أنها قالت : (لما بلغ رسول الله صلي الله عليه و سلم – خمسا و عشرين سنة قال أبو طالب : أنا رجل لا مال لي وقدي اشتد الزمان علينا ، و هذه عير قومك في عيراتها ، فلو جئتنا فعرضت نفسك عليها أسرعت إليك ، و بلغ خديجة ما كان من محاورة عمه له ، فأرسلت إليه في ذلك ، و قالت له : أنا أعطيك ضغف ما أعطى رجلا من قومك .

و من الثاني ما روي عن عبد الله بن جعفر الرقي عن عبد الله بن محمد بن عقيل قال : قال أبو طالب : (يا ابن أخي ، قد بلغني أن خديجة استأجرت فلانا ببكرين [2] و لسنا نرضى بمثل ما أعطيه فهل لك أن تكلمها ؟ قال : ما أحببت : فخرج إليها فقال : هل لك يا خديجة أن تستأجري محمدا ؟ فقد بلغنا أنك استأجرت فلانا ببكرين ، و لسنا نرضي لمحمد دون أربع بكار قال : فقالت خديجه لو سألت ذلك لبعيد بغيض فعلنا فكيف و قد سالت لحبيب قريب ؟) [3]

١- ذكر ابن حجر عنها أنها أسلمت بعد نزول الوحي علي النبي محمد صلي الله عليه و سلم / الإصابة / ج٨ ص ١٤٣ .

١- البكر : الناقة التي ولدت بطنا واحدة ، و الجمع أبكار و بقرة بكرة ، لم تحمل و في التتريل " لا فارض و لا بكر " أي ليست بكبيرة و لا صغيرة ، و قال : الفرذدق :

إذا هن ساقطي الحديث كأنه *** جني النحل أو أبكار كرم تقطف و البكر من الإبل بمترلة الفتي من الناس ، و البكرة بمترلة الفتاة و البعير بمترلته الإنسان ، و الجمل بمترلة الرجل ، و الناقة بمترله المرأة علي أبي بكر (ابن منظور / لسان العرب / ص ٢٣٤ / مادة بكر) .

٢- ابن سعد / الطبقات الكبرى / ج١ ص ١٢٩ ،، عائشة عبد الرحمن / نساء النبي / ص ٣٤ ،، عمر رضا كحالة / أعلام النساء ج١ ص ٢٣٦ .

و نكاد نميل إلي الأخذ بما تضمنته الرواية الأولي ؛ لما عرف عن النبي محمد – صلي الله عليه و سلم – من التعفف بين قومه ، و هذا بل ريب يجعل خديجة ترسل إلي محمد من يطلب منه العمل في تجارتها ، و مما يدعم ما ذكرناه ، هذا النجاح الذي حققه النبي محمد في التجارة ، من قبل اشتغاله بما مال خديجة ،[1] فإن ذلك يجعل ما في مثل حالتها يبادر إلي الإرسال إلي هذا الذي عرف بالأمانة و التوفيق ليرعى لها مالها .

و سواء صح هذا الترجيح أم لم يصح ، فإن خديجة أوكلت إلي محمد – صلي الله عليه و سلم – الاتجار بمالها ، فسار مع القافلة القرشية المتوجهة إلي الشام – كما هو المشهور – فأعادت هذه الرحلة إلي ذاكرة محمد ما كان قد شاهده في تلك البقاع أثناء مرافقة لعمه – مما كان له أبلغ الأثر في توسيع معارفه بأحوال سكان المناطق المجاورة ، و قد ربح محمد لخديجة في رحلته تلك ضعف ما كانت تربحه من رحلاتها السابقة .[2]

غير أن الطبري يذكر في إحدي رواياته ما يفيد استئجار خديجة لمحمد للعمل بما لها في منطقة غير الشام ، فقال : حدثني الحارث قال : عن ابن شهاب الزهري – و قد قال ذلك غيره من أهل البلد : (إن خديجة إنما كانت استأجرت رسول الله صلي الله عليه و سلم – و رجلا آخر من قريش إلي سوق حباشة بتهامة) .[3]

١- مصطفي أبو ضيف / دراسات في تاريخ العرب / ص ٨٠،، العدوي / الرسول بشير و نذيرا / ج١ ص ١٣٥ .

٢- هيكل حياة محمد / ص ١٣٧ ،، عبد الرازق الطنطاوي / تاريخ العرب و صدر الإسلام / ص ١٦٠

٣- الطبري / تاريخ الأمم و الملوك / ج٢ ص ٣٢٨٢ ،، المقريزي / امتاع الأسماع / ج١ ص ٣٥ ، ٣٧ ،، أما هذا المكان فإن جغرافيا العرب . أطلقوه علي الإقليم الذي يقع جنوبي مكة . بل أطلق علي مكة [illegible]

و لا مانع لدنيا من قبول هذه الرواية ، على أساس أن هذه الرحلة التي كانت على مقربة من مكة ، قد شجعت خديجة على طلب النبي محمد — صلى الله عليه و سلم — مرة ثانية ؛ للعمل لها بمالها في رحلة قريش الكبرى إلى الشام .

و على أية حال فإن القافلة لما رجعت من بلاد الشام إلى مكة تقدم رسول الله صلى الله عليه و سلم — حتى دخلها في وقت الظهيرة ، و خديجة في عليه لها من النسوة الأتراب فيهن نفيسة بنت منيه ، فرأت رسول الله — صلى الله عليه و سلم — حين دخل و هو راكب على بعيره ، و ملكان يظلان عليه فأرته نساءها فعجبن لذلك ، و دخل عليها رسول الله صلى الله عليه و سلم — فخبرها بما ربحوا ، فسرت بذلك ، فلما دخل عليها ميسرة أخبرته بما رأت ، فقال لها ميسرة : قد رأيت هذا منذ خرجنا من الشام .

و لما رأت خديجة ما رأت في النبي محمد صلى الله عليه و سلم — أزمعت على الاقتران به .[1]

و هنا تختلف الروايات في الطريقة التي أبلغت بها رغبتها بها رغبتها للنبي محمد — صلى الله عليه و سلم - فيذكر الطبري في إحدى رواياته أن إحدى مولدات مكة التي أبلغت النبي محمدا صلى الله عليه و سلم — برغبة خديجة الزواج منه .[2]

= نفسها ، و سمي الرسول التهامي ، لأنه من أهل مكة (ياقوت / معجم البلدان / ج٢ ص ٦٣ ، ٦٤ ،، أحمد عطية الله / القاموس الإسلامي / ج١ ص ٥٠٤

١ - المقريزي إمتاع الأسماع / ج١ ص٣٧ ،، المباكفوري / الرحيق المختوم / ص ٦٩ ،، محمد جمال الدين سرور / قيام الدولة العربية الإسلامية / ص٦٧ ، ٦٨ ،،عائشة عبد الرحمن / نساء النبي / ص٣٧

٢ - تاريخ الأمم و الملوك / ج٢ ص ٢٨٢ .

بينما تذكر بعض الروايات أن خديجة اجتمعت بالنبي محمد – صلي الله عليه و سلم – و قالت له : (يا ابن العم إني قد رغبت فيك لقرابتي منك ، و شرفك في قومك ، و أمانتك فيهم و حسن خلقك ، و صدق حديثك ، فاخطبني من عمي عمرو بن أسد (و كان شيخا كبيرا) فذكر – صلي الله عليه و سلم – ذلك لأعمامه ، فخرج معه عمه حمزة بن عبد المطلب حتى دخل علي ابن أسد فخطبها إليه) .[1]

و تطالعنا رواية ثالثة تذكر أن نفسية بنت منيه قالت : (إن خديجة أرسلتني دسيسا إلي محمد ، بعد أن رجع من غيرها من الشام ، فقالت : يا محمد ما يمنعك أن تزوج ؟ قال : ما بيدي ما أتزوج به ، قالت : فإن كفيت ذلك و دعيت إلي المال و الجمال و الشرف و الكفاءة ألا تجيب ؟ قال: فمن هي ؟ قلت خديجة ، قال : فكيف لي بذاك ؟ قالت : قلت : علي ، قال : فأنا أفعل ، فذهبت فأخبرتها ، فأرسلت إليه أن أئت لساعة كذا و كذا ، فأرسلت إلي عمها عمرو بن أسد ليزوجها ، فحضر و دخل رسول الله –صلي الله عليه و سلم – في عمومته ، فزوجة أحدهم ، فقال عمرو بن أسد هذا الفحل لا يقدع أنفه " .[2]

و الراجح لدينا بعد استعراض الروايات المذكورة الأخذ بالرواية الأخيرة لموافقتها العرف السائد في ذاك الوقت لدى عرب شبة الجزيرة العربية من ناحية ، و عفه النبي محمد – صلي الله عليه و سلم – من ناحية أخرى .

١- ابن الأثير / الكامل / ج٢ ص٣٩،٤٠ ،، ابن سيد الناس / عيون الأثر / ج١ ص ٥٠،، رفاعة الطهطاوي / نهاية الإيجاز / ج١ ص ٦٥ .

٢- الطبري / تاريخ الأمم و الملوك / ج٢ ص٢٨٢،، ابن سيد الناس / عيون الأثر / ج١ ص٥٠ ،، المقريزي / امتناع الأسماع / ج١ ص ٣٧ ،، عمر رضا كحاله / أعلام النساء / ج١ ص ٣٢٧ .

فإن الروايات تذكر أن خديجة عبرت عن رغبتها تلك بعـــد مضـــي زهـــاء شهرين و خمسة و عشرين يوما علي قدوم النبي صلـــي الله عليـــه و ســـلم — بالقافلة من الشام ، فكيف تيسر لها الانفراد بالنبي صلي الله عليه و ســـــلم — و الإفضاء إليه بما رغبت إلا أن يكون له عملا دائم عندها ، و هذا ما لم تذكـــرة رواية من الروايات المذكورة في مصادر التاريخ الإسلامي .

و قد اختلفت الروايات كذلك في شأن من قام بتزويج خديجة بالنبي محمــد ، فبعضها يذكر أن عمها عمرو بن أسد هو الذي تولي عقد قرانها علي محمــد ، و هو الراجح . و يذكر البعض الآخر أن أخاها عمرو بن خويلد هو الذي تـــولي ذلك .[1]

على أنه هناك رواية ثالثة ذكرها غير واحد من المؤرخين القدامى نقلا عـــن عدة رواة — تذكر أن أباها خويلد قد كان حيا ، وأنه هو الذي تولى تزويجها .

ومن الروايات التي نقلت في هذا الصدد ، ما ذكره ابن كثير عن البيـــــهقي الذي قال : أخبرنا أبو الحسين بن الفضل القطان عن عمار بن ياسر (كـــان إذا سمع ما يتحدث به الناس ، وتزويج رسول الله — صلى الله عليه وسلم — خديجة ، وما يكثرون فيه ، يقول : أنا أعلم الناس بتزويجه إياها ، إني كنتُ له تربـــا ، وكنت له إلفا وخدنا ، وإني خرجت مع رسول الله — صلى الله عليه وســـلم — ذات يوم إذا كنا بالحزوة أجزنا على أخت خديجة وهي جالسة على آدم تبيعـــها ، فنادتني فانصرفت إليها ، ووقف لي رسول الله — صلى الله عليـــه وســـلم —

١–ابن سيد الناس / عيون الأثر / ج١ ص٥٠ ،، المقريزي / امتاع الأسماع / ج١ ص٢٧ ،، هيكل / حياة محمد / ص ١٣٨

فقالت : أغدوا علينا إذا أصبحت ، فغدونا عليهم فوجدناهم قد ذبحوا بقرة وألبسوا أبا خديجة حلة ، وصفرت لحيته ، وكلمت أخاها فكلم أباه ، وقد سقى خمرا ، فذكر له رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ومكانته ، وسألته أن يزوجه فزوجه خديجة وصنعوا من البقرة طعاما فأكلنا ونام أبوها ثم استيقظ صاحيا فقال : ما هذه الحلة وما هذه السفرة وهذا الطعام ، فقالت له ابنته التي كانت قد كلمت عمارا : هذه حلة كساكها محمد بن عبد الله ختنك ، وبقرة أهداها لك فذبحناها حين زوجته خديجة ، فأنكر أن يكون زوجه ، وخرج يصيح حتى جاء الحجر ، وخرج بنو هاشم برسول الله – صلى الله عليه وسلم – فجاؤه (فقال : أين صاحبكم الذي تزعمون أني زوجته خديجة ؟ فيبرز له رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فلما نظر إليه قال : إني كنت زوجته فسبيل ذاك وإن لم أكن فعلت فقد زوجته) [1]

إن من يمعن النظر في هذه الروايات يجد الرواية الأخيرة تحمل في طياتها ما يدعونا إلى إسقاطها ، وذلك لأمور :

أولها : أنها ذكرت أن خويلد كان ما يزال على قيد الحياة عند تقدم النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – لخطبة ابنته ، وهذا يتنافى مع ما ذكره الثقات من الرواة الذين قالوا : إن خويلد توفي قبل حرب الفجار .[2]

ثانيها : أن بعض الرواة الذين ذكروا هذه الرواية في بعض المصادر زعموا أن خديجة احتالت على أبيها كي يقبل زواجها بمحمد ، فسقته الخمر الذي أذهب عقله ، ومن ثم أبدى موافقته على زواج محمد من خديجة .[3]

١- البداية و النهاية / ج٢ ص ٢٩٥ ، ٢٩٦ /المقريزي / إمتاع الأسماع / ج١ ص ٣٧

١- الطبري / تاريخ الأمم و الملوك / ج٢ ص ٢٨٢ ، ابن سيد الناس / عيون الأثر / ج١ ص ٥٠ .

٢- ابن سعد/ الطبقات الكبرى / ج١ ص ١٣٣ ، هيكل / حياة محمد/ ص ١٣٠

ولست أدري كيف يقبل بنو هاشم هذا – إن صح – لابنهم الذي عرف بين قومه بالأمين ، مع كونه ما يزال في ريعان الشباب ، والزوج قد بلغت من العمر الأربعين ، ولا ينبغي أن يقال إن بني هاشم وافقوا على هذا طمعا في أيلولة مالها لابنهم محمد ، فإن ذلك أبعد ما يكون عن الذي جبل عليه هذا النبي من القناعة بالقليل والزهد عن ما في يدي الغير فحتى عمله الذي كان يعمله فإنه لم يكن يقصد منه إلا الخير لغيره قبل نفسه ، لقناعته بما هو فيه ، وذلك بشهادة أحد المستشرقين ، فيقول " وليم موير " في تعقيبه عن رحلة محمد الأخيرة إلى بلاد الشام : (إن محمدا لم يكن في وقت من الأوقات طامعا في الغنى ، إنما كان سعيه لغيره ولو ترك الأمر لنفسه ، لأثر أن يعيش في هدوء وسلام ، ولما فكر في رحلة كهذه) . [١]

فكيف لنا والحالة هذه تصور الطمع في المال مسوغا لموافقة بني هاشم لخديجة على فعل هذا مع أبيها .

ثالثها : إن العقل لا يستسيغ ظهور خويلد بين قومه في حالة من السكر الشديد أثناء عقد قران محمد على ابنته ، لما عرف من عادات إلقاء كلمات الترحيب والفخر من كلا الفريقين عند النكاح .

ولما لم يحفظ لنا التاريخ إلا عبارات قالها أبو طالب ، وأخرى قالها ورقه بن نوفل ، فإننا نقول بلا ريب : إن خويلد لم يكن حيا أثناء بناء محمد – صلى الله عليه وسلم – بخديجة – رضي الله عنها .

١- خليل ياسين / محمد عند علماء الغرب / ص ٢١ .

أضف إلى هذا وذاك هذا النسج القصصي الواضح في الرواية (الـــذي يظـــهر خويلد بمظهر شاك السلاح في صباح اليوم التالي معلنا اعتراضه علـــى الـــزواج فكيف يقبل القوم منه هذا وهم الذين كانوا بالأمس يشاركونه أفراحه على حد قول الرواية !!

ومن ثم فإننا نرجح الأخذ بالرواية الأولى دون ما عاهداها ، وهي أن عمرو بـــن أسد هو الذي تولى تزويج النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – بخديجة .

وعلى آية حال ، فإنه قد تم الإتفاق بين العائلتين الكريمتين على تزويج محمد من خديجة على صداق اختلفت الروايات في مقداره .

فمنها ما يقول إن محمدا أمهر خديجة اثنى عشر أوقية ونشا (الأوقية أربعـــــون درهما) .

ومنها ما يذكر أن الصداق أربعمائة دينار .

ورواية ثالثة تذكر أنه عشرون بكرة .[1]

وقد حاول أ . محمد محي الدين عبد الحميد التوفيق بين هذه الروايات فقال : إنه يمكن الجمع بتقويم الثمن بذلك ، أو أن أحد الشيئين مهر ، والآخر هديـــــة من عمه لخديجة – رضي الله تعالى عنها ، أو أنه – صلى الله عليه وســـلم – زاد ذلك في صداقها على صداق أبي طالب فكان الكل صداقا) .[2]

١- البلاذري / أنساب الأشراف / ج١ ص ٩٧ ،، رفاعة الطهطاوي / نهاية الإيجاز / ج١ ص ٦٦ ،، عائشة عبد الرحمن / نساء النبي / ص ٤٠ ،،، عمر رضا كحالة / أعلام النساء / ج١ ص ٣٢٧ .

٢- ابن هشام / سيرة النبي / ج١ ص٢٠٥ ، الحاشية رقم١

وذكرت بعض المصادر القديمة أن أبا طالب قام خطيبا في الحضور إثر فراغهم من الطعام ، فقال : (الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل وضئض (أى : أصل) معد ، وعنصر مضر ، وجعلنا الحكام عل إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلا رجح ، و إن كان في المال قل ، فالمال ظل زائل ، و أمر حائل ، و محمد ممن قد عرفتم قرابته ، و قد خطب خديجة بنت خويلد ، و بذل لها من الصدق من آجله و عاجلة كذا من مالى ، و هو و الله بعد هذا له نبأ عظيم و خطر جليل جسيم) و قد أجاب علي أبي طالب ورقة ابن نوفل الذي قال :

(الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت ، و فضلنا علي ما عددت ، فنحن سادة العرب و قادها ، و أنتم أهل ذلك كله ، لا تنكر العشيرة فضلكم ، و لا يرد أحد من الناس فخركم ، و شرفكم ، و قد رغبنا في الاتصال بحبلكم و شرفكم ، فاشهدوا علي معاشر قريش بأني قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله علي أربعمائة دينار) . [١]

و لعل السبب الذي جعل ورقة بن نوفل يتقدم علي عمرو بن أسد – عم خديجة – راجع إلي أن ورقة كان من أكبر رجال عائلتها سنا ممن حضروا هذا العقد ، و أن عمها قدمه عليه نظرا لتوقير القوم له ؛ لما عرف عنه من العلم بالكتب السماوية .

و من ثم حفظ لنا التاريخ مقالته التي قالها عند عقد محمد علي خديجه و قد رغب أبو طالب في تأكيد عقد النكاح أمام الحضور فقال مخاطبا ورقة (قد أحببت أن يشركك عمها ، فقال عمها : اشهدوا علي يا معشر قريش إني قد

١- ابن هشام / سيرة النبي / ج١ ص ٢٠٤ الحاشية رقم ١

أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد) . فشهد علي ذلــك صنــاديد قريش .[1] بني رسول الله صلي الله عليه و سلم – بخديجـــة – رضـــوان الله عليها في مترلها التي كانت تقيم فيه من قبل زواجها بالنبي ، و الذي ظل حـــتى زمن معاوية ، فاشتراه و أقام عليه مسجدا للصلاة .[2]

و قد عاش النبي معها أربعا و عشرين سنة و خمسة أشهر و ثمانية أيام ، منــها خمسة عشرة سنه قبل الوحي ، و الباقية بعده [3]، و أنجب منها ســـائر أولاده ، خلا إبراهيم فإنه من ماريه القبطية .

فمن الذكور القاسم – و به كان يكني – و هو أكبر ولده ، عـــاش أيامـــا يسيرة ، ولد قبل النبوة ، وولدان آخران اختلف في اسمهما و عبد الله و الطيـــب و الطاهر .

و من الإناث أربع هن : زينب التي تزوجها العاص بن الربيع قبل نزول الوحـــي علي أبيها ، الذي مات في خلافة عمر ، و كانت زينب قد أنجبت منه عليـا ، و أمامه التي تزوجها المغيرة بن نوفل بن عبد المطلب ، و ماتت عنده دون أن تلـــد له .

أما زينب فقد توفيت في حياة أبيها – صلي الله عليه و سلم ســـنه ثمـــان مـــن الهجرة .[4]

و من بنات صلوات الله و سلامة عليه – رقيه التي تزوجها عتبة بن أبي لهـــب قبل النبوة ، و ظلت في عصمته حتى نزل قولة تعالي " تبت يد أبي لهب " فقـــال

١- ابن هشام سيرة النبي / ج١ ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ الحاشية رقم (١)

٢- الطبري / تاريخ الأمم و الملوك / ج٢ ص ٢٨٢ .

٣- ابن سيد الناس عيون الأثر / ج١ ص٤٧ ،، الطهطاوي / نهاية الإيجاز / ج١ ص٦٦

٤- ابن الأثير / أسد الغابة / ج٥ ص ٤٦٧ ،، عمر رضا كحالة / أعلام النساء / ج٢ ص ١١٠

أبو لهب لابنه : رأسي من رأسك حرام إن لم تطلق ابنته ، ففارقها قبل بنائه بهـا . ثم تزوجت عثمان بن عفان – رضوان الله عليه – و لم يكن متزوجا آنـذاك بغيرها ، فولدت له ابنا مات و له أربع سنين ، ثم ماتت رقية بعد بـدر بنحـو ثلاثة أيام .[١]

و من بناته زينب ، تزوجها علي بن أبي طالب ، فولدت له الحسن و الحسين و رقية و أم فاطمة و ابنا مات صغيرا أسمه المحسن – رضي الله عنه فـتزوجت زينب عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، فولدت له علي بن عبد الله ، و تـزوج عمر بن الخطاب – رضي الله عنه- أم كلثوم ، و ماتت فاطمة بعد رسـول الله صلي الله عليه وسلم – بسته أشهر .

و أما أم كلثوم و هي أصغر بناته – صلي الله عليه و سلم – فقد تزوجـها عثمان بن عفان – رضي الله عنه – فماتت عنده في حياة رسول الله صلـي الله عليه و سلم – و لم تلد له " .[٢]

و كانت خديجة رضوان الله عليها – خير زوجة لخير البشر ، عاش معـها – صلوات الله و سلامة عليه عيشة يظللها الهنا ، فكان صلوات الله و سلامه عليـه – يذكر أيامه معها بعد وفاتها أمام أزواجه كثيرا .

فقد روي مروان بن معاوية الغزاري عن وائل بن داود عن عبد الله البـهي قال : قالت عائشة : (كان رسول الله صلي الله عليه و سلم إذا ذكر خديجة لم يكد يسام من ثنائه عليها ، و استغفاره لها ، فذكرها يوما فاحتملتني الغـيرة ،

١- ابن حجر / الإصابة / ج٧ ص ٦٤٨: ٦٥١، ، عمر رضا كحالة / أعلام النساء / ج١ ص ٤٥٧، ٤٦٨

٢- ابن الأثير / الكامل / ج٢ ص ٤٠، ابن عبد الوهاب / مختصرة سيرة الرسول / ص ١٩.

فقلت فقد عوضك الله من كبيرة السن ، فرأيته غضب غضبا أسقطت في خلدي ، و قلت في نفسي : اللهم إنك إن أذهبت غضب رسولك عني لم أعد إلي ذكرها بسوء .

فلما رأي النبي صلي الله عليه و سلم ما لقيت قال : " كيف قلت ؟ و الله لقد آمنت بي إذا كفر بي الناس ، و آوتني إذا رفضني الناس ، و صدقتني إن كذبني الناس ، ورزقت منها الولد وحرمتموني) .

و قال ابن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة ، قالت : (ما غرت علي امرأة ما غرت علي خديجة مما كنت أسمع من ذكر رسول الله – صلي الله عليه و سلم – لها ، و ما تزوجني إلا بعد موقما بثلاث سنين ، و لقد أمره ربه بأن يبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه و لا نصب)[1] متفق عليه .

و يعقب الشيخ / الغزالي علي حياة النبي محمد مع زوجة خديجة قائلا : إنه (لم يكن ثمة ما يقلق في هذه الزيجة الموفقة إلا ألم خديجة لهلاك الذكور من بيتها مع للذكران من منزلة ، خاصة في أمة كانت تئد البنات و تسود وجوه آبائهن عندما يبشرون بهن ، و من الغريب أن العرب بعد البعثة كانوا يعيرون محمدا صلي الله عليه و سلم –بهذا ، و يعلنون ارتقاهم لانقطاع أثره و انتهاء ذكره . فعن ابن عباس رضي الله عنه أن قريشا تواصت بينهما في البغي و الكفر ، و قالت : الذي نحن عليه أحق مما عليه هذا الدبور المنبذ – و الدبور النملة التي انقطع أصلها يعنون أن محمد عليه الصلاة و السلام – إذا مات لم يرثه عقب ، و لم يحمل رسالته أحد .... ثم قال : إن الأسى كان يغزو قلب الوالد الجليل و هو يودع أبناءه الثري ، فيجد والثكلى ما رسب في أعماقة من آلام اليتم ، إن عصمته تشبثت بالحياة فاستطاع البقاء و النماء برغم فقد أن

١- الحافظ الذهبي / السيرة النبوية / ص ١٥٢ ،١٥٢، سرور / قيام الدولة العربية / ص ٦٨

أبوية ، و ها هو ذا يري أغصانه المنبثقة عنه تذوي، مع رغبته العميقة و رغبــه شريكة حياته في أن يرياها مزهرة مثمرة ، و كأن الله أراد أن يجعل الرقة الحزينة جزءا من كيانة ! فإن الرجال الذين يسوســون الشــعوب و لا يجنحــون إلي الجبروت إلا إذا كانت نفوسهم قد طبعت علي القسوة و الأثرة ، و عاشت في أفراح لا يخامرها كدر ، أما الرجل الذي خبر آلام فهو أسرع الناس إلي مواسـاة المحزوبين و مداواة المجروحين).[١]

و خلاصة القول : أن الله سبحانه و تعالي — اختار السيدة خديجة — رضوان الله عليها — لتكون زوجا للنبي محمد قبل بداية واحدة من أهم مراحل حياتــه ، تلك التي بدأ ت بنــزول الوحي عليه فقد كان لها أثناء هذه المرحلة مواقــف سامية ، تركت الأثر الجميل علي النبي محمد و انتشــار دعوتــه ، و ســوف نكشف النقاب عن هذه المواقف في الفصل الثالث من فصول هذا الكتاب .

و إذا كان اختيار الله لخديجة زوجا النبي محمد بمثابة مقدمة لبدايــة مرحلــة جديدة من مراحل حياته ، فإن هناك حدث آخر له دلالته الكبرى شهده النــبي محمد قبل بداية مرحلة نزول الوحي ، ألا و هو مشاركته في إعادة بناء الكعبة

محمد و إعادة قريش بناء الكعبــة

اختلف الروايات حول السبب الذي جعل قريش تهم بهدم بناء الكعبة القــديم ، و تستبدل به بناء جديدا .

١ – فقه السيرة ص ٨٢.

فالقليل من الروايات تذهب إلي أن السبب الذي يعزي إليه هذا هو تطاير شرارة من مجمره لامرأة كانت تجمر الكعبة ، فاحترق ثياب الكعبة فهدموها .[١]

أما الكثير من الروايات فتذكر أن السبب في إعادة البناء راجع – كما يقول موسى بن عقبة ، إلي أن الذي حمل قريش علي بناء الكعبة أن السيل كان يأتي من فوقها ، من فوق الردم الذي صنعوه فأخر به ، فخافوا أن يدخلها الماء ، وكان رجل يقال له مليح سرق طيب الكعبة ، فأرادوا أن يشيدوا بناءها ، و أن يرفعوا بابها حتى لا يدخلها إلا ما شاء ".[٢]

و يذكر محمد بن عمر أن سفينة أقبلت في البحر فجنحتها الريح إلي الشعيبه ، و كانت مرفأ السفينة قبل جدة فتحطمت السفينة ، فخرج الوليد بن المغيرة في نفر من قريش إلي السفينة فابتاعوا خشبها ، ووكلوا بأقوام الرومي المشهور بحرفة البناء في ذلك الوقت ، فقدم معهم و جمعوا الحجارة بقصد البناء .[٣]
و تختلف الروايات حول سن النبي صلي الله عليه و سلم – وقت مشاركته لقومه في بناء الكعبة فيذكر يعقوب بن سفيان عن ابن شهاب الزهري أن النبي محمدا – صلي الله عليه و سلم – قد قام بذلك عنه بلوغه الحلم ، و أن قريشا لما أتمت البناء و بلغت موضع الركن ، اختصم القوم . في أي القبائل تلي رفعة ، فقالوا : تعالوا نحكم أول من يطلع علينا ، فطلع عليهم رسول الله – صلي الله عليه و سلم و هو غلام و شاخ ثمرة ، فحكموه فأمر بالركن فوضع

١- ابن كثير البداية و النهاية / ج٢ ص ٣٠٠
٢- الذهبي / السيرة النبوية/ ص

٣- ابن هشام / سيرة النبي /ج ص

في ثوب ، ثم أخرج سيد كل قبيلة ، فأعطاه ناحية من الثوب ثم أرتقي هـــو ، فرفعوا إليه الركن ، فكان هو يضعة فكان لا يزداد عن السن الأرض حتى دعـوة الأمين قبل أن ينــزل عليه الوحي ، فطفقوا لا ينحرون جزورا إلا التمســـــوه فيدعوا لهم فيه ، فيقول ابن كثير في معرض تعقيبه علي الرواية المذكـــورة : (و هذا سياق حسن ، و هو من سير الزهري و فيه من الغرابة قولة فلما بلغ الحلــم و المشهور أن هذا كانو رسول الله صلي الله -عليه و سلم — عمره خمســــة و ثلاثين سنة ، و هو الذي نص عليه محمد بن إسحاق بن يسار رحمة الله) ..

و روي موسى ابن عقبه أن النبي محمد صلي الله عليه و سلم شارك في بنـــاء الكعبة قبل بعثته بخمسة عشرة سنة .

غير أن الذي تكاد تجمع عليه المصادر هو أن النبي محمد ا شارك في البناء بعـــد أن بلغ من العمر خمسا و ثلاثين سنه .[1]
و قد روي سليمان بن حمزة عن أبي الطفيل قال : (إن قريشا بنت الكعبة حـتى بلغ البناء عشرين ذراعا ، فبينما النبي صلي الله عليه و سلم يحمل حجارة مــــن أجياد ، و عليه نمرة فضاقت عليه النمرة ، فذهب بعضها علي عاتقة ، فـــبرزت عورته من صغر النمرة فنودي يا محمد عورتك ، فلم يرعرنا بعد ذلك ، و كـلن بين بنيان الكعبة و بين ما أنزل عليه خمس سنين) فقال الذهبي هـــذا حديـــث صحيح.[2]

١- ابن هشام سيرة النبي / ج١ ص ٢٠٩ ،، ابن سعد / الطبقات الكبري / ج ص ١٤٥ ابن قتيبه / المعارف / ص ١٥٠ خالد محمد خالد / عشرة أيام في حياة الرسول / ص ١٤ .
٢- السيرة النبوية ص ٢٩ ، ٤٠

و علي أية حال فإن قريشا التي استطاعت إرضاء القبائل المختلفة عند بنـــاء الكعبة بجعلها لكل جماعة منها ركنا تبنيه قد و صلت بعد إتمام البناء إلي موقـف حرج ، كاد يؤدي إلي إخراج السيوف من أغمادها و إراقة الدماء في ســبيله ، و هو ما حاولت قريش تداركه عند بداية البناء و نعني به اختصام القوم حـــول ما ينال منهم شرف و ضع الحجر الأسود في مكانة الذي كان به قبــــل هـــدم الكعبة .

- فطفقت الجماعات المختلفة تهم بعقد الأحلاف ؛ استعدادا لخوض المعركـــة التي ستنشب حول و ضع الحجر الأسود في مكانة .

فتذكر المصادر القديمة أن (بني عبد الدار و بني عدي قربوا جفنه مملوءة دمـا و أدخلوا أيديهم فيها ، ثم تعاقدوا علي الموت ، فسموا لعقه الدم و أن قريشـا مكثت علي ذلك أربع ليال أو خمس ، ثم أنهم اجتمعوا في المسجد فتشـاوروا و تناصفوا فزعم بعض أهل الرواية أن أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بـــن مخزوم ، و كان يومئذ أسن قريش كلها ، قال: يا معشر قريش ، اجعلوا بينكـم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد ، فكان أول من دخـــل عليهم رسول الله – صلي الله عليه و سلم ، فلما رأوه قالوا : هذا الأمين قـــد رضينا به ، هذا محمد ، فلما انتهي إليهم و أخبروه الخبر قال : هلم لي ثوبـــا ، فأتي به ، فأخذ الركن فوضعه فيه بيده ، ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية مـــن الثوب ثم ارفعوه جميعا ، ففعلوا حتي إذا بلغوه به موضعه وضعه بيده ثم بني

عليه [1]

و يذكر بن سعد و البلاذري أن النبي محمدا لما أتم وضع الحجــر الأســود ، احتاج إلي حجر يسند به الركن ، فذهب رجل من أهل نجد ليأته به ، فقــال العباس : لا ، و نحاه و نال العباس رسول الله صلي الله علية و سلم — حجـرا ؛ فشد به الركن ، فغضب النجدي حيث نحي ، فقال النبي محمد صلي الله عليـه و سلم : إنه ليس يبني معنا في البيت إلا منا ، قال : فقال : النجدي يا عجبا لقـوم أهل شرف و عقول و أموال عمدوا إلي أصغرهم سنا و أقلهم مالا فرأســوه عليهم في مكرمتهم و حرزهم ، و كأنهم خدم له ، أما و الله ليفوتنهم سيفا ، و ليقسمن بينهم حظوظا و جدودا ، فقال عبد المطلب :

إن لنا أوله و آخره *** في الحكم و العدل الذي ننكره
و قد جهدنا جهده لنعمره *** و قد عمرنا خيره و أكثره
فإن يكن حقا ففينا أوفره [2] (الرجز)

و قد عقب أحد الكتاب المعاصرين لنا علي الحكم الذي حكم به الرســـول في مسألة وضع الحجر الأسود تعقيبا يجعل هذا الحكم أحد الدلالات ، الكبرى التي نبهت الناس علي قرب بعثة النبي الخاتم ، فقال :

١- الطبري / تاريخ الأمم و الملوك / ج٢ ص٢٩٠ ابن سيد الناس / عيون الأثر / ج١ ص ٥٢ ،، المقريزي امتاع الأسماع / ج١ ص ٣٨ الذهبي السيرة النبوية / ص ٣٣ خالد محمد خالد عشرة أيام في حياة محمد /ص ١٤

(١) الطبقات الكبرى/ ج١ ص ٤٦،٤٧ ،، أنساب الأشراف / ج١ ص ١٠٠

(إن الإرهاص فيه متكامل و مبشر بدور المنقذ ، و دور الرسول .... المنقذ الذي يكون علي يديه خلاص العالم من كلماته الماحقة ، و الرسول الذي لن يجيء به إلي منصة القيادة اختيار الناس بل اصطفاء السماء ، فأما عن المنقذ فها هو ذي يحسم ببصيرة المضاءة بنور الله نزاعا محتدما كان علي وشك أن يتحول إلي حرب أهليه تحمل كل ضراوة الجاهلية و بئس القبلية ، و أما عن الرسول فها هو ذا يوم التحكم لا يجيء به الناس بل يجيء به القدر العظيم حيث تتفق قبائل قريش علي تحكيم أول قادم .. فما الذي اختار هذا القادم ..؟ أهي قريش .. كلا و لا أحد من الناس .. إنما اختارته
المقادير !! و كان محمد الأمين هو الرجل المختار ... و هذا الذي حدث يوم التحكيم يمثل إرهاصا وثيقا بالمستقبل القريب لهذا الرجل ... إن قوة أعلي من قوه البشر ستصطفيه و تختاره لمهام أجل و أعظم مثلما اختارته اليوم لمهمة التحكيم ، هذا هو الرمز الحي و الذكي ليوم التحكيم ، و هذه قيمته الثمينة كيوم خالد في حياة الرسول) .[1]

و نضيف إلي ما تقدم أن ما قام به النبي -صلي الله عليه و سلم – من وضع الحجر الأسود في مكانه يدل بلا ريب علي صدق الدعوة التي سيعلنها هذا الحكم علي الناس بعد مضي سنوات قليلة علي حكمه ، هذا الذي حسم به الموقف و حقن الدماء .

كما يدل أيضا علي قرب بعثة دين إبراهيم إلي الوجود ثانية في بلاد العرب ، بل في مكة التي شهدت منذ زمن بعيد وضع إبراهيم الحجر الأسود بعد رفعة قواعد البيت و هو و إسماعيل ، و ها هي تشهد من جديد وضع هذا الحجر في

١- خالد محمد خالد / عشرة أيام في حياة الرسول / ص ١٧

مكانه علي يد واحد من ذريه إبراهيم ، اصطفاه الله ليكون خاتما للرسالات ، و مظهرا للدين الحنيف بشكل يجعله باقيا إلي أن تقوم الساعة ، بعد ما كاد هـــذا الدين ينسي قبل بعثة محمد صلي الله علية و سلم .

الفصل الثالث
محمد من بعثته إلي هجرتــه

تعد هذه المرحلة الزمنية التي نتناولها في تاريخنا لهذا النبي من أهم مراحل حياته علي الإطلاق ، ذلك أنها تعتبر إيذانا بتغيير شامل لكل مجالات الحياة ، ليـــس في شبه الجزيرة وحدها بل في العالم أجمع ، و ليس هذا التغيير قائما علي اجتـــهاد مخلوق ، بل قام علي أساس موحى به من عند الله لهذا النبي الذي بدأ من لـــدن أمر الله له مرحلة طويلة جاهد فيها قومه و غيرهم ممن وقفوا في سبيل الدعـوة و لسوف نتناول هذه المرحلة التي بدأت بالوحي .

الوحــــــي :

يحسن بنا قبل الحديث عن صور الوحي ، و أول ما نزل من القرآن الكـريم ، و موقف النبي محمد بعد نزول الوحي عليه ذكر إلماعه عن البيئة التي شـــــهدت

هذا الحدث الضخم لنري كيف أن النبي – صلي الله عليه و سلم – كان يبذل من الجهد الكثير و الكثير من أجل الجلوس في مكان تنفض فيه النفس عن كاهلها كل ما كانت تسمعه و تراه من أشياء تمجها لكونها غير متوافقة مع العقل السليم .[١]

لجأ النبي محمد صلي الله عليه و سلم – إلي مكان بعيد عن الناس في مكة ، يقال له غار حراء ، و يقع هذا الغار في قمة جبل النور (و هو يقع إلي الشمال الشرقي من مكة و يبعد عنها حوالي خمسه كيلو مترات ، ويؤمه إلي الآن كثير من الناس للتبرك و الزيارة ، و صعوده شاق للغاية ، و طريق الصعود صخري ، و من هنا فليس ممهدا علي الإطلاق .

و قد يحتاج الصاعد إلي استعمال يديه و رجليه في بعض الأحيان ، ليتقي السقوط ، و يستغرق الصعود حوالي الساعتين ، و مثلهما في الهبوط ، و عندما تصل قمة الجبل تجد ما ليس في الحسبان ، فهناك بركة ماء ، يقال إن الماء بها لم ينقطع صيفا ولا شتاء ، علي حافتها مكان فسيح ممهد ، مساحته حوالي خمسة عشر مترا مربعا (ثلاثة أمتار عرضا و خمسة طولا) و الجو في هذا المكان جميل للغاية و نقي) .

أما الغار الذي يقع علي هذه القمة ، فهو كهف غريب جعله الله علي وضع عجيب ، يأخذ منه الإنسان راحته كاملة ، و تنطلق فيه الروح من أسر المادة و عقال الشهوة إلي حيث تسمو إلي العلياء و تسبح في ملكوت السموات والأرض ، فبابه يتسع لدخول الشخص الواحد ، و هو قائم ، و قد غطي سقفه بصخور مائلة ، و لذا كان وسطه أعلي من الجانبين اللتين تكونا من صخور

١- لوثر وب ستودارد الأمريكي / حاضر العالم الإسلامي / ج١ ص ٥٣

الواحدة منها فوق الأخرى تاركا فراغا قليلا ينفذ منه الضوء و الهواء ، أوقل مكيف الهواء .

و يستطيع اثنان متجاوران أن يصليا فيه براحة كاملة ، و مساحته من الداخل تسمح بنوم ثلاث من الرجال متجاورين .[1]

و إذا كان محمد – صلوات الله و سلامة عليه – قد شغل بالبحث عن عبادة الله الواحد الأحد من لدن شبابه فطفق يفعل كل ما يتفق مع عقله من أجل الوصول إلي الغاية التي حددها لنفسه ، فإن زواجه بخديجة قد أتاح له المزيد و المزيد من الوقت الذي صرفه في الخلوة بغار حراء للتعبد و التأمل في هذا الكون و لم تكن خديجة – رضي الله عنها – تنكر عليه ما يفعله [2]، فقد أتاح الله لها ما هيأها نفسيا علي معاونه المتأملين و المتعبدين ، فما بالك إذا كان هذا و المتأمل و المتعبد زوجا لها !! .

و الذي يدلنا علي أن خديجة كانت شغوفة بحب البحث عن الحقيقة من قبل زواجها بمحمد ، هذا الحوار الذي دار بينهما و بين ورقة بن نوفل عند وفاة أبيها ، و الذي ذكره صاحب " سيرة النبي العربي " ، و فيه أن ورقة دخل علي خديجة عقب وفاة أبيها و هي تبكي ، فقال لها :
(لماذا تصنعين بنفسك هكذا يا خديجة ؟ و ليس عمي أول من مات من الناس ، و لا هو آخر من يموت منهم ، و هل خلقنا في هذه الدنيا إلا لنفني ؟ و نحن

١- الطيب النجار / السيرة النبوية / ص ،، أحمد شلبي / موسوعة التاريخ الإسلامي / ج١ ص ١٩٠

٢- المقريزى / امتاع الأسماع / ج١ ص ٣٩ ،، هيكل / حياة محمد / ص ١٤٥ ،، عبد العزيز محمد / محمد د الرسول الأعظم / ص ٥٨ .

نحيا علي الأرض فترة ثم نبعث و نحيا حياة أخرى خالدة لا موت فيها ، و هناك يلتقي الأحباء ، و هناك يعيش السعداء في سعادة دائمة ، و الأشقياء في شـــقاء مقيم .

خديجة : ماذا تقول يا ابن عمي ؟ أتبشرنا بحياة بعد هذه الحياة و فيها يلتقـــي الأحباء ؟ أو بعد أن نكون ترابا نحيا حياة جديدة ألقي فيها أهلي و أحبابي .

ورقة : نعم هناك الحياة الباقية التي لا موت فيها ، و فيها يلتقي الأحباب جميعـا .

خديجة : لقد عزيتني يا ورقة ؟ فأحسنت تعزيتي ، و هونت موت الأعزاء علـــي نفسي ، أما قريش فعزتني بأن الآلهة قد رضيت عن أبي ، و لا أظن هذه

الآلهة المنصوبة ترضي أو تغضب لموت إنسان ، و إنما تردد قريــــش كلمـــات بأفواهها لا معني لها لذلك أحد لكلامك حلاوة ليست في كلامهم .

ورقة : صدقت يا خديجة في أن الأصنام لا تعرف الرضا أو الغضب ، فما هـــي إلا تماثيل اتخذتها قريش لتضلل بها الناس ، فإبراهيم الذي بنى الكعبة ، و أمرنـــا أن نطوف بها و نعبد فيها ربنا ، لم يجعل فيها صنما ، و قـــد أوصـــي ولـــده إسماعيل جد قريش أن يجعلها مكانا طاهرا للطائفين و العـــاكفين و الركـــع و السجود ، و أن يوصي ذريته بهذا من بعده ، و لكن قريشا كفرت بـــأنعم الله ، و نسيت وصية أبيها إسماعيل ، و أقامت الأصنام في المسجد الحرام ، و عبدتهـــا دون الله و هي بذلك استحقت غضب ربها ، فإما أن تعود إلي الدين و إمـــا أن تكون من الهالكين .

خديجة : و من إبراهيم هذا الذي تذكرة النبي بعد نزول الوحي لأول مرة .
ورقه : نبي من أنبياء الله ، اختاره الله من بين عبادة و أنزل عليه مـــا يريـــد أن يقول للناس ، فهو رسول الله إلي قومه ، و أنبياء الله كثيرا جاءوا مـــن عنـــده بكتب منـــزلة تعرف الناس الحلال و الحرام ، و تكشف لهم كثيرا من أمـــور الغيب التي لا تدركها عقولهم القاصرة .
خديجة لقد أثرت نفسي بحكمتك يا ورقة ، هديتني بعد الضلال فليت قومـــي يعرفون شيئا من علمك ، فيهتدوا من حيرتهم .
ورقة : لست مكلفا بهدايتهم ، و إنما يهديهم رسول يبعثه رب العالمين) [1]
و سواء صح هذا الحوار أم لم يصح ، فإن الذي لا سبيل إلي الشك فيـــه هـــو وجود تشجيع كبير من جانب خديجة لمحمد ، كلما أراد الخلوة .

فتروي المصادر القديمة روايات عديدة تؤكد اختلاف النبي محمد إلي غار حـــراء مرات عديدة .

من ذاك ما روي عن محمد بن إسحاق عن عبد الملك بن حارثة قـــال : و كان واعية — عن بعض أهل العلم ، قال : و كان رسول الله صلي الله عليـــه و سلم — يخرج إلي حراء في كل عام شهرا من السنة ، يتنسك فيه ، و كان مـــن نسك قريش في الجاهلية ، يطعم من جاءه من المساكين ، حتى إذا انصرف مـــن مجاورته لم يدخل بيته حتى يطوف بالكعبة " .[2]

١- التاجي / ج١ ص٩٩ ، ١٠٠
٢- البلاذري أنساب الأشراف / ج١ ص ١٠٥ ،، الطبري / تاريخ الأمم و الملوك / ج٢ ص ٣٠٠،، ابن كثير البداية و النهاية / ج٣ ص٥ .

أما عن ماهية العبادة التي كانت يتعبد بها – صلوات الله و سلامة عليـــــه – قبل نزول جبريل ، فإن الباحثين القدامى و المحدثين قد اختلفوا فيما بينهم حـول ما إذا كان النبي يتعبد بشريعة في غار حراء أم لا ؟
فمنهم من يقول إنه يتعبد بشريعة موسى أو عيسي أو إبراهيم أو نوح عليـــــهم السلام . و منهم من ينفي عنه التعبد بشريعة ما ".[١]

و قد انبري بعض المؤرخين المحدثين للدفاع عن الرأي الأول فقال : المختـــار أنه كان متعبدا قبل البعث ، لأنه ثبت أنه كان متعبدا في غار حراء ، و التعبد لا يكون إلا بشريعة ؛ لأن الحاكم هو الشرع عند أهل الحق .[٢]

و من الباحثين الذين انتصروا للرأي الثاني صاحب " تاريخ العرب و صـــــدر الإسلام " الذي قال : (و يبدو أن القول الثاني أقرب إلي الصواب و لو في نظرنا ، و أن عبادته ... نوع من التفكير في الكون و خالقة ؛ لأنه لم يثبت تاريخيا أن النبي كان يتعبد علي شريعة خاصة ، و لو حدث لتوفرت الدواعـــي علي نقله ، و يرشح لهذا الرأي قول الحق سبحنه و تعالي : (و كذلك أوحينـــا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتــــاب و لا الإيمـــان) ، و قولـــه " وجدك ضالا فهدى " و المقصود بالضلال هنا الحيرة و عدم الاهتداء إلي الطريق المستقيم . الموصل لمعرفة الحق " .[٣]

١- الطهطاوي / نهاية الإيجاز / ج١ ص ٢٩ .
٢-الطهطاوي / نهاية الإيجاز / ج١ ص ٢٩ .
٣- الطهطاوي / نهاية الإيجاز / ج١ ص ٢٩،٣٠

و نحن نميل إلي هذا الرأي الأخير لأن المصادر القديمة للتاريخ الإسلامي لم تذكر لنا أن أحدا من الحنفاء قد توصل للأصول الكاملة لدين إبراهيم ، و أن عبادتهم عبارة عن تأملات في الكون فكيف و الحالة هذه يقف النبي من غير وحي علي أصول شريعة إبراهيم و نوح ، كما لا يقال أنه صلوات الله و سلامة عليه قد قد عبد الله علي شريعة موسى أو عيسي ؛ لعلمه بقواعد ذلك من اليهود و النصارى المقيمين في المناطق المجاورة ؛ لأن الروايات لم تذكر مكوث النبي محمد عند أحد الطائفتين طويلا ، و الروايات التي تحدثت عن رؤى النبي لليهود و النصاري ذكرت أن ذلك قد كان أثناء رحلتي التجارة إلي الشام مع عمه ثم في مال خديجة ، و لا يعقل و الحالة هذه وجود وقت يسمح باعتناق عقيدة ما من هذه العقائد ، دع عنك صغر سنة في الرحلة الأولي ، و حرصة علي الوصول بمال خديجة و بضاعتهما إلي مكة سالمين في الرحلة الثانية ، فهذا يدلك بلا ريب علي أن عبادته كانت نوعا من التأمل الذي فاق به من سبقه من الحنفاء و أن هذا كان بمثابة تمهيد حقيقي لنزول الوحي .

و يطلق الوحي لغة علي عدة أمور منها الإشارة و الكتابة و الرسالة و الإلهام . واصطلاحا بمعني إعلام الله أنبياءه أمورا لا تدرك عادة من غير أن تسبقها مقدمات تدل عليها ، و قد يستعمل بمعناه اللغوي ، و هو الإلهام . و يكون عاما لكل المخلوقات . و في القرآن الكريم آيات توضح الوحي بأنه الإلهام ، كما في قولة تعالي : (في سورة النحل : و أوحي ربك إلي النحل " و قولة في

سورة القصص : " و أوحينا إلي أم موسى أن أرضعيه " و قولة في سورة يوسف : " و أوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا .... ") [١]

و لم يكن الوحي يأتي محمد – صلي الله عليه و سلم – علي صورة واحدة بل كان يأتيه في صور عدة :

أولها : الرؤيا الصادقة كما قالت السيدة عائشة – رضوان الله عليها – (أول ما ابتدئ به رسول الله صلي الله عليه و سلم – من الوحي الرؤيا الصادقة ؛ كانت تجيْ مثل فلق الصبح ثم حبب إليه الخلاء فكان بغار حراء يتحنث فيه الليالي ذوات العدد ، قبل أن يرجع إلي أهلة ، ثم يرجع إلي أهلة فيتزود لمثلها حتى فاجاه الحق) . [٢]

و هذا يقوي ما ذكره محمد بن إسحاق بن يسار بن عبيد بن عمر الليثى أن النبي – صلي الله عليه و سلم – قال ؛ " فجاءني جبريل و أنا نائم بنمط من ديباج ، فيه كتاب فقال : اقرأ فقلت ما أقرأ ؟ فغطني حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني)

و من الروايات التي تحدثت عن مجيْ الوحي في صورة الرؤيا ، ما ذكره موسى بن عقبه عن سعيد بن المسيب قال : و كان فيما بلغنا أول ما رأي (يعني رسول الله صلي الله عليه و سلم -) أن الله تعالي أراه رؤيا في المنام فشق ذلك عليه ، فذكرها لامرأته خديجة ، فعصمها الله عن التكذيب ، و شرح صدرها للتصديق ، فقالت : أبشر فإن الله لم يصنع بك إلا خيرا ، ثم أنه خرج

١- الطبري / جامع البيان علي تأويل آي القرآن / ج١٥ ص ٥٧٥ ، ٥٧٧ ،، القرطبي / الجامع لأحكام القرآن / ج٩ ص ١٢٢، ١٤٣، ج١٠ ص ١٣٣ ١٣٤،، عبد الرازق الطنطاوي / تاريخ العرب و صدر الإسلام / ص ١٦٧

٢- الطبري / تاريخ الأمم و الملوك / ج٢ ص ٢٩٨ ،، ابن حجر / فتح الباري / ج١ ص ٣٠ كتاب بدء الوحي

من عندها ، ثم رجع إلية فأخبرها أنه رأى بطنه شق ثم غسل و طهر ثم أعيـــد كما كان ، قالت ، هذا و الله خير فأبشر ، ثم استعلن له جبريل و هو بـــأعلى مكة ، فأجلسه علي مجلس كريم معجب ، و كان للنبي – صلي الله عليه و سلم يقول : أجلسني علي بساط كهيئة الدرنوك ، فيه الياقوت و اللؤلـــو فبشــرة برسالة الله عز و جل ، حتى اطمأن رسول الله صلي الله علية و سلم "[1]

ثانيهما : أن ينفث في روعة الكلام نفثا كما قال النبي – صلي الله عليه و ســلم إن الروح القدس نفث في روعي أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله و اجملوا في الطلب ، و لا يحملنكم استبطأ الرزق علي أن تطلبوه بمعصية الله ، فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته " رواه ابن أبي الدنيا في القناعة و صححـــه الحاكم .[2]

ثالثهما : مجئ الوحي له صلوات الله و سلامة عليه مثل صلصة الجرس و هـــو أشده عليه ، و قيل إن ذلك ليستجمع قلبه عند تلك الصلصله فيكون أوعي لمـــا يسمع و أتقن لما يلقي ، حتى أن جبينه لينفصد عرفا في اليوم الشـــديد الـــبرد . فقال عروة بن الزبير : كان إذا أوحى إليه و هو علي ناقة و ضعت جرئها "[3] .

١- الطبري / جامع البيان علي تأويل آي قرآن / ج١٥ ص ٥٧٥ ،٥٧٧،، القرطبي / الجامع لأحكام القرآن / ج٥ ص ١٤٣،١٢٢،ج١٠ ص ١٣٤،١٣٣ عبد الرازق الطنطاوي / تاريخ العرب و صدر الإسلام ص ١٦٧

٢- ابن كثير / البادية و النهاية / ج٣ ص ١٣،٤ ،، الذهبي / السيرة النبوية / ص ٧١

٢- أبو النعيم الأصفاني / دلائل النبوة / / ص ٧٢ ،٧٣ ،، ابن حجر / فتح الباري / ج١ ص ٢٦ باب كتاب بدء الوحي "

و هذا ما جعل " نولد كه) يزعم أن ما كان يعانيه النبي محمد أثنـــــاء نــزول الوحي لا يعدو عن كونه نوبات من الصرع ، و هذا ما لم يرتض به أكثر مـــن مستشرق .

فقال : غوية " (إن هذا الافتراض ليس بصحيح ؛ لأن الذاكرة عند المصــــابين بالصرع تكون معطلة ، و الحال هي بالعكس – عند محمد الذي يتذكر كل مـا يسمعه) .

و قال " ما كسي ما يرهوف " (أراد بعضهم أن يري في محمد رجلا مصابـا بمرض عصبي أو بداء الصرع ، و لكن تاريخ حياته من أوله إلي آخره ليس فيــه شيْ يدل علي هذا ، كما أن ما قام به فيما بعد من التشريع و الإرادة ينـــاقض هذا القول) .[١]

و قد روي عن عمر بن الخطاب أن الوحي كان ينــزل فيســـمع لــه دوي ، كدوي النحل " .[٢]

رابعها : مجيْ الملك علي هيئة رجل مثلما كان يتمثل له جبريل في صورة دحيــة بن خليفة[٣]، الذي روي عنه أنه إذا قدم المدينة لم تبق معصر إلا خرجت تنظــر إليه لفرط جماله .[١٤]

١- لوثروب استودارد / حاضر العالم الإسلامي / ج١ ص ٣٧،٣٤

٢- أبو نعيم الأصفاني / دلائل النبوة / ص ٧٣ ،، ابن عبد البر / الدررفي اختصار المغازي و السير / ص٣١ ،، ابن عبد الوهاب / مختصر السيرة الرسول / ص٦٢

٣- ابن فضاله الكلبي . صحابي أرسله الرسول – صلي الله عليه و سلم – بكتاب إلي قيصر يدعوه فيه للإسلام ، شهد اليرموك ، نزل دمشق ، و عاش فيها حتي توفي سنة ٤٥هـ

٤- ابن حجر / فتح الباري / ج١ ص ٢٦ كتاب بدء الوحي

خامسها : أن يري النبي محمد جبريل في صورته التي خلق عليـــــها ، و حولـــه ستمائة جناح من اللؤلؤ و الياقوت ، فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه ، و هـــذا وقع له مرتين كما في سورة النجم .

سادسها : أن يكلمه الملك إما في اليقظة كما كلمة في ليلة الإسراء ، و أمـــا في النوم ، كما قال في حديث معاذ الذي رواه الترمذى " قـــــال : أتـــاني ربي في أحسن صورة ، فقال فيما يختصم الملأ الأعلى ؟ فقلـــت : في الكفـــار ات ، لا أدري ، فوضع كفه بين كتفي ، فوجدت بردها ، و تجلي لي علم كل شيْ ، . قال لي : يا محمد ، فيما يختصم الملأ الأعلى ؟ فقلت في الكفارات فقال : و مـ هن ، فقلت : الوضوء عند الكريهات ، و نقل الأقـــدام إلي الجماعـــات ، ، انتظار الصلاة بعد الصلاة ، فمن فعل ذلك عاش حميدا و خرجت ذنوبه كيـــوه ولدته أمة " [2]

و يروى بعض العلماء أن صورة الوحي تختلف من مرة إلي أخري حسبــــ الآيات المنـــزلة فإن نزلت متضمنة وعدا و بشارة نزل الملك في صورة الآدمـ و حاطبة من غير كد و إن نزلت بوعيد و نذارة كان للوحي دوي كصلصـــ الجرس .[3]

و تذكر بعض الروايات أن إسرافيل – عليه السلام – قد نزل علي النبي قبـ جبريل عليه السلام فقد (روى الإمام أحمد عن محمد بن أبي عدى عن عــــاء الشعبي أن رسول الله صلي الله عليه و سلم نزلت عليه النبوة و هو ابن أربعـــ

١- ابن حجر / فتح الباري / ج١ ص٢٦ كتاب بدء الوحي "

٢- ابن سيد الناس / عيون الأثر / ج١ ص ٩٠ ،، ابن عبد الوهاب / مختصر سيرة الرسول / ص ٦٣

٣- ابن عبد الوهاب / مختصر سيرة الرسول ٦٣

سنه ، فقرن بنبوته اسرافيل ثلث سنين ، فكان يعلمه الكلمة و الشيء و لم ينزل القرآن فلما مضت ثلاث سنين قرن بنبوته جبريل فنزل القرآن على لسانه عشرين سنه ، عشرا بمكة ، و عشرا بالمدينة ، فمات و هو ابن ثلاث و ستين سنه .[1]

و لم يرتض ابن سعد الأخذ بهذه الرواية ، فقال : سألت محمد بن عمر عن هذا الحديث فقال : (ليس يعرف أهل العلم ببلدنا أن إسرافيل قرن بالنبي – صلي الله عليه و سلم و أن علماءهم و أهل السيرة منهم يقولون لم يقرن به غير جبريل ، من حين أنزل عليه الوحي إلي أن قبض رسول الله – صلي الله عليه و سلم " .[2]

أما أبو شامة فقد حاول التوفيق بين هذه الرواية و بين الروايات المنقولة عن عائشة فقال و حديث عائشة لا ينافي هذا فإنه يجوز أن يكون أول أمره الرؤيا ، ثم وكل به إسرافيل[3] في تلك المدة التي كان يخلو فيها بحراء ، فكان يلقي إليه الكلمة بسرعة ، و لا يقيم معه تدريجيا له و تمرينا ، إلي أن جاءه جبريل فعلمه بعد ما غطه ثلاث مرات ، فحكت عائشة ما جرى له مع جبريل ، و لم تحك ما جرى له مع إسرافيل اختصار للحديث ، أو لم تكن وقفت علي قصة إسرافيل) .

١- ابن كثير / البداية و النهاية / ج٣ ص ٤

٢- الطبقات الكبرى / ج١ ص ١٩١

٣- ابن سيد الناس / عيون الأثر / ج١ ص ٨٤

و يبدو لنا أن ما ذهب إليه أبو شامة من تأييد كون إسرافيل يلقي الكلمات علي النبي محمد قبل مجيء جبريل إليه من باب التهيئة لتحمل الأمر العظيم يتفق مع ما جبلت عليه الطبائع من التدرج من الأعلى إلي الأدنى .

اختلف العلماء فيما بينهم حول عمر النبي محمد – صلي الله عليه و سلم عنه نزول الوحي عليه و الشهر الذي نزل فيه .

فمنهم من يقول إن النبي محمدا – صلي الله عليه و سلم قد بعث علي رأس الثالثة و الأربعين من العمر ، و استدل أصحاب هذا الرأي علي صحة ما ذهبوا إليه بما رواه المثني عن يحي بن جعد أن رسول الله صلي الله عليه و سلم قال لفاطمة : (إنه كان يعرض علي القرآن كل عام مرة ، و أنه قد عرض على العام مرتين و أنه قد خيل إلي أن أجلي قد حضر ، و أن أول أهلي لحاقات بي أنت ، و أنه لم يبعث نبي إلا بعث الذي بعده بنصف من عمرة و بعث عيسي لأربعين و بعثت لعشرين) .[1]

فإذا ما علمنا أن النبي محمدا صلي الله عليه و سلم قد لحق بالرفيق الأعلى بلوغه ثلاث و ستين سنه ، و يكون قد بعث عند بلوغه العام الثالثة و عند الأربعين ، كما أثنا [illegible] ذلك الحديث .

و منهم [illegible] على رأس الأربعين ، من العمر ، و هو الراجح عند الجمه[illegible] هشام بن حسان بن عكرمة عن ابن عباس قال بعث رسول الله صلي الله عليه و سلم – لأربعين سنه فمكث بمكة ثلاثة عشرة .

١- الطبري / تاريخ الأمم و الملوك / ج٢ ص ٢٦١

سنه يوحي إليه ثم أمر بالهجرة . فهاجر عشر سنين ، و مات و هو ابن ثلاث و ستين رواه البخاري) .[1]

أما عن الشهر الذي نزل فيه الوحي فيقول بعضهم : أنه الثامن من ربيع الأول سنة إحدى و أربعين من عام الفيل . و البعض الآخر يقول : إن ذلك كان في السابع و العشرين من رجب[2]

و فريق ثالث يذكر أن الوحي نزل في شهر رمضان بدليل قوله تعالى (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدي للناس و بينات من الهدى و الفرقان)[3] ، إلا أنهم اختلفوا فيما بينهم حول اليوم الذي نزل فيه القرآن ، فمنهم من يقول : إن هذا كان في يوم الإثنين ، لسبع خلون من رمضان ، و قيل لسبع عشرة ليلة مضت من هذا الشهر و استدلوا على ذلك بقوله تعالي : (و ما أنزلنا علي عبدنا يوم الفرقان يوم التقي الجمعان) . فإن ذلك ملتقى رسول الله – صلي الله علية و سلم – و المشركين ببدر .[4]

و منهم من يقول : إن ذلك كان في ليله الرابع و العشرين أو السابع و العشرين من رمضان ، و هي ليلة القدر عند الجمهور[15] ، قال الله تعالي : (إن أنزلناه في ليلة القدر)

١- الذهبي / السيرة النبوية / ص ٦٤ ،، عبد الرازق الطنطاوي / تاريخ العرب و صدر الإسلام / ص١٧٢

٢- ابن سيد الناس / عيون الأثر / ج١ ص ٨٨ ،٨٩

٣- سورة البقرة آية ١٨٥

٤- الطبري / تاريخ الأمم و الملوك / ج٢ ص ٢٩٤

أما عن أول سورة نزل بها الوحي ؛ فإن المفسرين و المؤرخين قد تباينت أقوالهم حول أي السورتين نزل أول العلق أم المدثر ؟

فقال بعضهم : إن سورة المدثر أول ما نزل من القرآن بدليل ما رواه الطبري الذي قال حدثنا أبو كريب عن يحي بن أبي كثير ، قال : سألت أبا سلمة عن أول ما نزل من القرآن قال : نزلت (يا أيها المدثر) أول ، قال : قلت إنهم يقولون (إقرأ باسم ربك الذي خلق) ، فقال : سألت جابر بن عبد الله فقال : لاأحدثك إلا ما حدثنا به رسول الله صلي الله عليه و سلم — قال جاورت بحراء فلما قضيت جواري هبطت فسمعت صوتا : فنظرت علي يميني فلم أر شيئا و عن شمالي فلم أرى شيئا ، نظرت أمامي فلم أرى شيئا ، و نظرت خلفي فلم أرى شيئا ، فرفعت رأسي إلي السماء فرأيت شيئا : فأتيت خديجة فقلت : دثروني صبوا علي ماء قال : فدثروني و صبوا علي ماء باردا ، فنزلت (يا أيها المدثر) .[2]

و ذكر السواء الأعظم من المفسرين و المؤرخين أن سورة العلق أول ما نزل من القرآن ، لما روي وهب بن كيسان الذي تحدث في أول رؤيته عن تحنث النبي في الغار عدة مرات قبل نزول الوحي عليه (حتي إذا كان الشهر الذي أراد الله تعالي فيه ما أراد من كرامته من السنة التي بعثها الله تعالى فيها ، و ذلك الشهر شهر رمضان ، خرج رسول الله صلي الله عليه و سلم إلي حراء كما كان يخرج لجواره ، و معه أهلة ، حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها

١- الطبري / جامع البيان عن تأويل أي القرآن / ج٣ ص ص ٤٤٥،٣٦٤

٢- الطبري / تاريخ الأمم و الملوك / ج٢ ص ٣٠٤ ، ابن كثير / البداية و النهاية / ج٣ ص ٤ فخر الدين الرازي / التفسير الكبير / ج١٥ ص ١٨٩

برسالته ، و رحم العباد بها ، جاءه جبريل – عليه السلام – بأمر الله – تعـالى- قال رسول الله صلى اله عليه و سلم - : فجاءني جبريل و أنا نائم بنمط مـــن ديباج فيه كتاب ، فقال : اقرأ قال : قلت ما اقرأ ، قال : فغتني به حتى ظننـت أنه الموت ، ثم أرسلني فقال : أقرأ قال : فسلت ماذا أقرأ ؟ ما أقول ذلك إلا افتراء منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي ، فقال : أقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ و ربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ، قال : فقرأتها ثم انتهي ، فانصرف عني و صببت من نومي ، فكأنما كتب في قلبي كتابا ، قال : فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت . صوتا من السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله و أنا جبريل . قال : فرفعت رأسي إلي السماء أنظر فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء ، يقول : يا محمد أنت رسول الله و أنا جبريل ، قال : فوقفت أنظر إليه فما أتقدم و ما أتأخر ، و جعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء ، و قال : فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك ، فما زلت واقفا ما أتقدم أمامي و ما أرجع ورائي حتى بعث خديجة رسلها في طلبي فبلغوا أعلى مكة و رجعوا إليها و أنا واقف في مكاني ذلك ثم انصرف عني وانصرفت راجعا إلى أهلي)١

و هذه الرواية تقتضي كون الوحي قد نزل بأول سورة في القرآن ليلا لانهارا و هذا ما لم يرتضيه بعض الباحثين الذين قالوا : (و الرأي الراجح فيما نرى، أن ذلك كان نهارا ، و النبي في يقظة ؛ لأن السيدة عائشة – رضي الله عنها – تروي حديثا عن ذلك ، تقول فيه ، أول ما بدء به الرسول الله صلي الله عليه و سلم – من الوحي الرؤيا الصادقة ، ثم حبب إليه الخلاء حتى جاءه جبريل و هو بغار حراء فذكرت أن الرؤيا كانت قبل نزول جبريل ، و هي لا تكون إلا في النوم ثم إن النبي – صلي الله عليه و سلم – جاءه جبريل في المنام قبل أن يأتيه

في اليقظة ، توطئه له و تيسيرا عليه و رفقا به ؛ لأن أمر النبوة عظيم و عبؤه ثقيل والبشر ضعيف) [1]

و تكاد النفس تأبي بقول ما ذهب إليه الأستاذ الكبير ، ذلك أنه يترتب عليه نزول الوحي مرتين بسورة العلق علي النبي محمد — صلي الله علية و سلم — و هذا ما لم تذكرة رواية من الروايات التي نقلتها إلينا المصادر القديمة

أما حديث عائشة فلا يعني انطباقه بالضرورة علي نزول أول سورة من القرآن في اليقظة ، فإنه ربما يراد منه تسكين فؤاد النبي محمد عند رؤيا جبريل في اليقظة لما كان قد تعود علي مشاهدته له في الرؤيا .

و من ثم فإننا نميل إلي الأخذ برواية ابن كيسان ، لكونها قد وردت في كتب الحديث من هذا الطريق ومن غيرة .

و قد عقب أحد الباحثين علي كون سورة العلق أول ما نزل من القرآن ، علي الراجح فقال (لا نستطيع أن ندرك في يسر ، لماذا كانت أولي كلمات الله إلي رسوله ، " أقرأ و لم تكن (صل) ولا (حم) و لا (تعيده) بل كانت" إقرأ التي لخصت جوهر الإسلام و مستقبلة .. فهو لن يستيقن دين تكريس ديني فحسب ، بل و لا دين سلوك فحسب . إنما هو قبل ذلك و فوق ذلك ، " دين حضارة " " جاء ينشيْ عالما جديدا بكل ما تحمل كلمتا " عالم " و " جويد " من معني و دلالة . و لكن يسبق من الناس عبر الزمان كله أن هذه الحضارة المقبلة هي عطاء السماء ، فقد اختيرا أستاذها و نبيها ذلك الذي لا عهد له من قبل بقلم و

---

١ - عبد الرازق الطنطاوي / تاريخ العرب و صدر الإسلام / ص ١٧٢

لا بكتاب ، ذلك أنه لن يكن مخترعا لهذا الدين و لحضارته .. إنما هو مبلغ عن الله ناقل عطاياه من السماء إلي الأرض ... و من ثم سيكون معه من المقدرة ما يغير به كيمياء الزمن ، و كيمياء البشر و كيمياء الحياة . !!)[1]

موقف خديجة من النبي بعد علمها بالوحي :

لما انصرف النبي محمد من حراء إلي بيته بعد نزول الوحي عليه دخل علي زوجة خديجة و قصي عليها ما رأي و ما سمع فقالت له : (أبشر فو الله لا يفعل الله بك إلا خيرا ، و اقبل الذي جاءك من أمر الله ؛ فإنه حق و أبشر فإنك رسول الله حقا فإنك لتصل الرحم و تحمل الكل و تكسب المعدم و تقري الضيف و تعين علي نوائب الحق) .[2]

وتختلف الروايات حول ما فعلته خديجة بعد حوارها مع النبي ، فمنها ما يذكر أنها ذهبت منفردة إلي عداس ثم إلي ورقة بن نوفل .و منها ما يقول إنها ذهبت بالنبي إليه

و رواية ثالثة تقول إنها أرسلت النبي برفقة عتيق (أبو بكر الصديق) فمن الأو ما رواه موسى بن عقبة عن سعيد بن المسيب أن خديجة (أنطلقت من مكانها فأتت غلاما لعتبة بن ربيعه بن عبد شمس نصرانيا من أهل " نينوى " يقال له عداس ، فقالت له : يا عداس أذكرك بالله إلا ما أخبرتني هل عندك علم بجبريل ، فقال : قدوس قدوس ما شأن جبريل يذكر بهذه الأرض التي أهلها أهل الأوثان فقالت : أخبرني بعلمك فيه ، قال : فإنه أمين الله ، بينه و بين النبيين ، و هو صاحب موسى و عيسى – عليهما السلام - ، فرجعت خديجة من عنده

١- خالد محمد خالد / عشرة أيام في حياة الرسول / ص ٣٢

٢- ابن كثير / البداية و النهاية / ج٣ ص١٣ ،، الذهبي / السيرة النبوية / ص ٧٣ ،، النبهاني / الأنوار المحمدية عن المواهب اللدنية / ص ٣٩ ،،، عبد الحليم محمود / دلائل النبوة و معجزات الرسول / ص١٢

فجاءت ورقة بن نوفل فذكرت له ما كان من أمر النبي – صلي الله عليه و سلم – و ما ألقاه اليه جبريل فقال له ورقة : يا ابنة أخي ما أدري لعل صاحبك النبي الذي ينتظره أهل الكتاب الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة و الإنجيل و أقسم بالله لأن كان إياه ثم أظهر دعواه و أنا حي لأبلين الله في طاعة رسوله و حسن مؤازرته للصبر و النصر) .[1]

و من الثاني ما ذكراه ابن سيد الناس : (أن ورقة قد تنصر في الجاهلية ، و كان يكتب الكتاب العربي ، و يكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب ، و كان شيخا كبيرا قد عمي ، فقالت له خديجة : أى عم اسمع من ابن أخيك ، قال ورقة بن نوفل : يا ابن أخي ماذا تري فأخبره رسول الله صلي الله عليه و سلم – خبر ما رأى ، فقال له ورقة : هذا هو الناموس الذي أنزل علي موسى ، ياليتني فيها جذع ، يا ليتني أكون حيا حين يخرجك قومك ، قال رسول الله صلي اله عليه و سلم – أو مخرجي هم ؛ قال ورقة : نعم ، لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي و إن يدركن يومك أنصرك نصرا مؤازرا .[2]

رويناه من حديث مسلم عن أبي الطاهر عن ابن وهب عن يونس)

و من الثالث روى عن يونس عن ابن أسحق بسنده إلي أبي ميسره عمرو بن شر حبيل أن رسول الله – صلي الله عليه و سلم – قال لخديجة إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء ، و قد خشيت و الله أن يكون لهذا أمر ، قالت : معاذ الله ما كان ليفعل ذلك بك ، فو الله إنك لتؤدي الأمانة ، و تصل الرحم ، و تصدق الحديث ، فلما دخل أبو بكر رسول الله غير موجود " قالت له خديجة "

١- ابن كثير / البداية و النهاية / ج٣ ص ١٣ ن١٤ ،، الذهبي / السيرة النبوية / ص٧٠

٢- عيون الأثر / ج١ ص ٨٥

: يا عتيق ، اذهب مع محمد إلي ورقة ، فلما جاء رسول الله صلي الله عليه و سلم — أخذ أبو بكر بيده و قال : انطلق بنا إلي ورقة ، فقال : و من أخبرك ؟ قال : خديجة ، فانطلقا إليه فقصا عليه فقال : إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء من خلفي يا محمد ، فأنطلق هاربا في الأرض ، فقال له : لا تفعل إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول لك ، ثم ائتني فأخبرني ، فلما خلا نداه : يا محمد يا محمد (بسم الله الرحمن الرحيم) الحمد لله رب العالمين حتى بلغ و لا الضالين ، قل لا إله إلا الله ، فأتي ورقة فذكر له ذلك فقال له ورقة : اثبت فأنا أشهد أنك الذي بشر به ابن مريم و أنك علي مثل ناموس موسى ، و أنك نبي مرسل، و إنك ستأمر بالجهاد بعد يومك هذا ، و لئن أدركني ذلك لأجاهد ن معك ، فلما توفي ورقة قال رسول الله : و لقد رأيت القس في الجنة و عليه ثياب الحرير لأنه آمن بي و صدقني يعني ورقة) .[1]

و رواية رابعه تذكر أن النبي محمدا التقي بورقة و هو يطوف بالكعبة بعد ما أخبرته خديجة بما نزل عليه في غار حراء ، فقال ورقة للنبي : (أخبرني بما رأيت و سمعت فأخبره ، و قال و الذي نفسي بيده ، إنك لنبي هذه الأمة ، و لقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى ، و لتكذبنة و لتؤذنه و لتخرجنه و لتقاتلن ، و لئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرا يعلمه ، ثم أدني رأسه منه فقبل يا فوخه) .[2]

١- البلاذري أنساب الأشراف / ج١ ص ١٠٥ ،، ابن سيد الناس / عيون الأثر / جص٨٣ ،، ابن كثير البداية و النهاية ج١ ص ٩

٢- الذهبي [illegible] ص ٧٣

إن من يجيل النظر في هذه الروايات الأربع يجد أن الرواية الأولي تتضمن ما يسقط بعضها دون البعض الآخر ، فإن ما قالته عن ذهاب خديجة إلي عداس قبل ورقة أمر لا يستقيم فعداس هذا غلام نصراني مملوك للغير ، و أنه لم يكن علي درجة ورقة بن نوفل في العلم بالنصرانية إلي حد ترجمته الإنجيل إلي العربية ، ناهيك عن كوم الثاني بينه و بين خديجة من الوشائج التي تجعلها تؤم بيته قبل عداس ، و لعل الذي جعل الراوي يذكر عداسا هنا ما صح من خبر لقائه بالنبي محمد بالطائف ، كما سأبنيه في حينه

و أما الرواية الثالثة فإنها هي الأخرى تحمل في طياتها ما يوهنها فإننا نلمح منها ما يفيد أن النبي محمدا – صلي الله عليه و سلم – قد التقي بورقة قبل نـــزول سورة العلق عليه ، و أنه نصحه بالثبوت عند سماع نداء جبريل له ثم نزلت علــي النبي بعد ذلك فاتحة الكتاب فتكون أول سورة نزلت في القرآن علي النـــبي في غار حراء ، و هذا يخالف العديد من الروايات المجمع علي صحتها عند الجمهور

و الذي نرى الأخذ به أن خديجة ذهبت إلي ورقة بن نوفل دون اصطحابه النبي محمد معها ، و أنها أطلعته علي ما كان من أمر زوجها ، فلما وقفت منه علي جليه أمر النبي سارت إلي زوجها الذي ظل مداوما علي الطواف بالكعبة حتى التقي بورقة بن نوفل كما تقول الرواية الرابعة .

إذا لا يتصور ذهاب النبي محمد إلي أي مكان آخر إثر رجوعه إلي بيته بعد الذي نزل به من الرعب و الفزع عند نزول الوحي عليه ، كما أن هذا يتفق مع ما عرف عن خديجة من فرط شفقتها ورحمتها بالنبي محمد .

و الذي يدل علي هذا ما أسلفناه من طمأنتها له فور رجوعه إلي بيته قبل ذهابها إلي ورقة .

و إذا كانت خديجة أول من آمن بالنبي محمد و الوحي المنـــزل عليه فإن إيمانها لم يكن بدافع العاطفة دون دليل يقويه .

فقد روى ابن إسحاق عن إسماعيل بن أبي حكيم مولي آل الزبير أنه حدث عن خديجة – رضي الله عنها – أنها قالت لرسول الله – صلي الله عليه و ســـلم – أي ابن عم أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك ؟

قال " نعم " قالت : فإذا جاءك فأخبرني به ، فجاءه جبريل عليه السلام – كماكان يصنع فقال رسول الله صلي الله عليه و سلم – لخديجة " يا خديجة هذا جبريل قد جاءني ، " قالت : قم يا ابن عم فأجلس علي فخدي اليسرى ، قال : فقام رسول الله – صلي الله عليه و سلم – فجلس عليها ، قالت : هل تراه ؟ قال نعم" قالت : فتحول فاجلس علي فخدي اليمني ، فقالت : هل تراه ؟ قال : " نعم " ، قال فتحول و اجلس في حجري قالت : فتحول رسول الله صلي الله عليه و سلم – فجلس في حجرها ، قالت : هل تراه ؟ قال : نعم قال : فتحسرت و ألقت خمارها ، و رسول الله جالس في حجرها ، ثم قالت : هل تراه ؟ قال : لا قالت : يا ابن عم ، اثبت و أبشر فو الله إنه لملك و ما هذا بشيطان) .[1]

و بهذا العقل الراجح استحقت خديجة أن يرسل إليها ربها السلام مع رسوليه جبريل و محمد – عليهما السلام – و أمر الله رسوله – عليه السلام – أن

١- ابن هشام / سيرة النبي / ج١ ص٢٧٥ ، ٢٨٥ ، ابن سيد الناس / عيون الأثر / ج١ ص٨٧

يبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه و لا فصب (و القصب هو اللؤلؤ المجوف) .[1]

لم يدم سرور النبي محمد – صلي الله عليه و سلم – طويلا بعد أن تأكد من اصطفاء الله له كي يبلغ الناس الدعوة إلي رسالة هي خاتمة الرسالات ، ذلك أن الوحي الذي نزل عليه بسورة العلق علي الراجح انقطع عنه لفترة عرفت عند المؤرخين بفترة انقطاع الوحي .

فتـــــور الوحـــــي :

اختلفت العلماء في المدة التي انقطع فيها الوحي عن النبي محمد – صلي الله عليه و سلم- فذكر بعضهم أنها زهاء سنتين و نصب أو ثلاث[2] . و قيل إن ذلك لم يستمر إلا أياما .

فقد روى محمد بن عمر عن ابن عباس أن رسول الله – صلي الله عليه و سلم – لما نزل عليه الوحي بحراء مكث أياما لا يرى جبريل فحزن حزنا شديدا)[3]

و لم يكن فتور الوحي عن النبي محمد – صلي الله عليه و سلم – يخلو عن حكمة أرادها الله ، و قد حاول بعض الباحثين أستنباط الحكمة من ذلك ،

١- ابن عبد الوهاب / مختصر سيرة الرسول / ص ٦٨

٢- ابن كثير / البداية و النهاية / ج٣ ص١٧ ،، الطهطاوي / نهاية الإيجاز ج١ ص ٨٨

٣- ابن سعد / الطبقات الكبرى / ج١ ص ١٩٦،، الطيب النجار / السيرة النبوية / ص ٥٤

فقال إن هذا قد حدث (ليذهب عنه ما وجده من الروع و ليزيد تشوقه إلي العود) ، و من ثم حزن لذلك حزنا شديدا .

و مهما يكن من أمر فإن فترة الانقطاع سواء طالت أم قصرت ، فإنها مرت علي النبي محمد –صلي الله عليه و سلم – بطيئة نزل به أثناءها من الآلام مـــالا يوصف ، فقد روى الإمام أحمد في مسنده و البخاري في صحيحة عن الزهـــري عن عروة عن عائشة فتر الوحي فترة حتى حزن رسول الله صلـــي الله عليـــه و سلم –حزنا شديدا ، و غدا مرارا كي يتردى من شواهق الجبال ، و كلما أوفي بذروة ليلقي نفسه تبدي له جبريل ، فقال : يا محمد إنـــك رســـول الله حقـــا فيسكن لذلك جأشه و تقر نفسه فيرجع إذا طالت عليه فترة انقطاع الوحي غدا لمثل ذلك ، فإذا أوفي بذررة جبل تبدى له جبريل ، فقال مثل ذلك)[1] .

و قد اختلف المفسرون المؤرخون فيما بينهم حول " أول سورة نزلت من القرآن بعد فترة الانقطاع فذكر السواد الأعظم منهم أن سورة المدثر هي أول ما نزل من القرآن بعد انقطاع هذه الفترة .

يدل ذلك ما رواة الزهري عن أبي سلمة عن جابر قال سمعت رسول الله يحدث عن فترة الوحي قال : بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتا من السماء فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس علي كرسي بين السماء و الأرض فجئت منه رعبا ، فرجعت فقلت : زملوني فدثروني ، و نزلت (يأيها المدثر) إلي قوله (و الرجز فاهجر) (و هي الأوثان) متفق عليه .

١- الحافظ الذهبي / السيرة النبوية / ص ٦٤ ، ابن عبد الوهاب / مختصر سيرة الرسول / ص ٥٤ ، سرور / قيام الدولة العربية / ص ٧١

قال الذهبي : إن ذلك نص علي أن (يا أيها المدثر ، أنزلت بعد فترة الوحي الأول ، و هو (اقرأ باسم ربك) فكان الوحي الأول للنبوة و الثاني للرسالة).[1]

و يرى قليل من العلماء (أن سورة الضحى هي أول ما أنزل من القرآن بعد مدة الانقطاع بيد أن ابن كثير لم يرتض ذلك ، و ذكر أنه قول بعيد ، و أن سورة الضحى نزلت بعد فترة أخرى كانت ليالي يسيرة[2] ، كما ثبت في الصحيحين و غيرهما من حديث الأسود بن قيس عن جندب بن عبد الله المحلي قال : اشتكي رسول الله – صلي الله عليه وسلم . فلم يقم ليلة أو ليلتين أو ثلاث ، فقالت امرأة ما أري شيطانك إلا تركك ، فأنزل الله (و الضحى و الليل إذا سجى ما ودعك ربك و ما قلي) .[3]
و مهما يكن من أمر فإن النبي محمدا صلي الله عليه و سلم . بعد عودة الوحي إليه بدأ في دعوة قومه للإسلام .

الدعـوة للإســلام

اتبع النبي محمد –صلي الله عليه و سلم – في دعوته للناس إلي هذا الدين الحنيف مرحلتين أولهما سريه ، و ثانيهما – جهرية .
و قد تميزت كل مرحلة منهما بسمات بارزة ، فالأولي اقتصرت علي الخاصة من آل بيته و أصدقائه .

١- السيرة النبوية / ص ٦٩

٢- اختلف العلماء في تحديدها فمنهم من قال خمسة عشر يوما ، و منهم من قال خمسة عشر يوما ، ومنهم من قال خمسة و عشرين يوما و قال مقاتل أربعين يوما (القرطبي / الجامع لأحكام القرآن / ج٢٠ ص ٩٢ ،، البخاري / فتح الباري / ج٨ص ٥٨٠،٥٨١

٣- البداية و النهاية ج٣ ص ١٧

و الثانية : كانت للقوم كافة ، فمنهم من قبل هذه الدعوة ، و هم القلة و منهم من شهر في وجهها الحسام بعد اللسان ، فقد تفنن أصحابها في صد الناس عن الدخول في هذا الدين الحنيف ، و لسوف نتحدث عن كل مرحلة من المرحلتين علي حد ى .

أولا : الدعوة للإسلام سرا :

ذكر المؤرخون المحدثون أكثر من سبب في تبرير بدء النبي محمد- صلي الله عليه و سلم – الدعوة سرا .

فذكر بعضهم أن هذا راجع إلي طبيعة مكة فهي مركز دين العرب و بها ســدنه الكعبة ، و القوامة علي الأوثان و الأصنام المقدسة عند سائر العرب ، فـللوصول إلي المقصود من الإصلاح فيها يزداد عسرا و شدة عما لو كان بعيدا عنــها ، فالأمر يحتاج إلي عزيمة لا تزلزلها المصائب و الكوارث ، لذلك كان من الحكمـة أن تكون الدعوة في بدء أمرها سرية لئلا يفاجيء أهل مكة بما يهيجهم[1]

و منها أن الإسلام بمبادئه (قد كان علي النقيض مما كان عليه العرب في مكة وفي غيرها من شتي أنحاء الجزيرة ، كان يدعو إلي وحدانية الله و كانوا و ثنين ينحتون آلهتهم من الحجر و يصنعونها من الشجر ، و كان يدعو إلي الحرية و المساواة و كانوا بغاة يظلم بعضهم بعضا و يعلوا بعضهم علي بعض ، و كان يدعو إلي الحق و الفضيلة و كانوا مقلدين لا يحيدون عما كان عليه الآباء و الأجداد ، و لو كان موغلا في الشر و مرتطما في الرذيلة ، و ليس من

١- مصطفى أبو ضيف / دراسات في تاريخ العرب / ص ٨٢

المعقول و القوم هكذا أن يجابههم محمد- عليه الصلاة و سلام بدينة الجديد من ترتيب و لا تمهيد) .[1]

و قد اصطلح المؤرخون علي تسمية الذين أجابوا النبي محمد صلي الله عليه و سلم – أثناء دعوته في هذه المرحلة بالسابقين إلي الإسلام .

و ذكروا أن خديجة كانت أول من آمن بالنبي محمد- صلي الله عليه و سلم – من البشر . ثم اختلفوا فيما بينهم حول من أسلم بعد خديجة – رضوان الله عليها – فذكر بعضهم أنه علي بن أبي طالب ، و قال اليعض الآخر أنه أبو بكر الصديق .

<u>إسلام علي بن أبي طالب</u> :

هيأ الله لعلي بن أبي طالب أن ينشأ منذ نعومة أظفاره في كنف النبي محمد – صلي الله عليه و سلم فطفق يتعلم منه كل فعل طيب

و يرجع سبب أخذ النبي محمد- صلي الله عليه و سلم لعلي كما يقول ابن أسحق عن عبد الله ابن أبي نجيح عن الحجاج .

(إن قريشا أصابتهم أزمة شديدة ، و كان أبو طالب ذا عيال كثير ، فقال رسول الله صلي الله عليه و سلم – للعباس – و كان من أيسر بني هاشم -يا عباس إن أخاك أبا طالب كثير العيال ، و قد أصاب الناس ما تري من هذه الأزمة فانطلق بنا إليه فلنخفف عليه من عياله فتأخذ من بنيه رجلا فنكلها عنه فقال العباس حتى أتيا أبا طالب ، فقالا له : إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك

١- عبد العزيز غنيم / فلسفة السيرة / ص ٧٧

حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه فقال لهما أبو طالب إذا تركتما لي عقيلاً[1] فاصنعا ما شئتما .

أخذ رسول الله صلي الله عليه و سلم عليا فضمة إليه ، و أخذ العباس جعفرا فضمه إليه فلم يزل علي مع رسول الله عليه و سلم حتى بعثه الله . تبارك و تعالي – نبيا فاتبعه علي – رضي الله عنه – و آمن به و صدقه و لم يـــزل جعفر عند العباس حتى أسلم و استغنى عنه) .[2]

و قد اختلف الرواة فيما بينهم حول سن علي عند اعتناقه الإسلام فذكروا أنه صلي و له إحدى عشرة سنه ، كما يقول ابن الكلبي ، و ذلك هو الثابت و يقال إنه صلي ابن عشر و يقال ابن تسع و يقال ابن سبع .[3]

و هذا يتنافي مع ما رواه أبو كريب عن عمرو بن مرة عن زيد بن أرقم أن عليا أول رجل صلي مع رسول الله صلي الله عليه و سلم ، لأن لفظ الروايــــة يعني أن عليا فعل ذلك و هو في مرحلة الرجولة ، و أضعف من ذلك مـــا روى عن أحمد ابن الحسن الترمذي عن عباد بن عبد الله قال : سمعت عليا يقـــول : أنا عبد الله و أخو رسوله و أنا الصديق الأكبر ، لا يقولها بعـــدي إلا كـــاذب

١- أعلم قريش بأيامها و مآثرها هو أسن من علي بعشرين سنة ، ظل علي شركة إلي موقعة بدر فأخرجته قريش كرها فشهدها معهم و أسرة المسلمون ففداه العباس ، أسلم بعد الحدبية ، توفي في أواخر أيام معاوية وقيل خلافة يزيد (ابن سعد/ الطبقات الكبرى / ج٤ ص ٢٨ ،، ابن قتيبه المعارف / ص ٢٠٤.٢٠٣

٢- ابن هشام / سيرة النبي / ج١ ص ٢٦٤ ،، محمد كاظم القزويني / علي من المهد إلي اللحد /ص ٣٠.٢٩

٣- ابن قتيبة / المعارف / ص١٦٩ ،، البلاذري / أنساب الأشراف / ج١ ص ١١٣، ١١٤ ،، ابن عبد البر / الدرر في اختصار المغازي و السير / ص ٣٨

مغتر ، صليت مع رسول الله – صلي الله عليه و سلم قبل الناس بسبع سنين) [1]

لأن هذا يعني أن عليا قد اعتنق الدين قبل دعوة الناس إليه بسبع سنوات علي علي أساس أن النبي محمدا أخذ يؤدي الصلاة بعد نزول الوحي عليه .
و هذا لم نقف عليه في أي رواية من الروايات في المصادر التي بين أيدينا و الذي يؤد ما ذهبنا إليه من أن الصلاة أعقبت الوحي ، ما رواه زكريا بن يحيي الضرير عن جابر قال : بعث النبي – صلي الله عليه و سلم – يوم الإثنين و صلي علي يوم الثلاثاء) .[2]

و قد روي لنا الواقدي هذا فقال (رأي علي النبي – صلي الله عليه و سلم تصلي معه خديجة ، فقال : ما هذا يا محمد ؟ فقال رسول الله صلي الله عليه و سلم – يا علي هذا دين الله الذي اصطفاه و اختاره ، و أنا أدعوك إلي الله وحده ، و أن تذر اللات و العزي ، فإنهما لا تنفعان و لا تضران ، فقال علي : ما سمعت بهذا الدين إلي اليوم ، و أنا أستأمر أبي فيه فكره النبي –صلي الله عليه و سلم أن يفشي ذلك قبل إستعلان أمره فقال : يا علي إن فعلت ما قلت لك ، و إلا فأكتم ما رأيت ، فمضي ليلة ثم غدا علي رسول الله صلي الله عليه و سلم فقال له : أعد ما قلت، فأعاده فأسلم ، و مكث يأتي رسول الله – صلي الله عليه و سلم – فيصلي معه علي خوف من أبي طالب ، و كان هو و زيد بن حارثة يلزمان رسول الله صلي الله عليه و سلم – فكان رسول الله يخرج إلي الكعبة أول النهار ، و يصلي صلاة الضحى ، و كانت تلك صلاة لا تنكرها قريش و كان إذا صلي الله عليه و سلم في سائر اليوم بعد ذلك قعد

١- ابن قتيبة / المعارف / ص ١٦٩
٢- الطبري / تاريخ الأمم و الملوك / ج٢ ص ٣١٠

علي أبو زيد يرصد له و إن أبا طالب فقد عليا ذات مرة فقالت له فاطمة بنت أسد أمة : قد رأيته يلزم محمدا ، و أنا أخاف أن يأتيك من قبله في أمر ابنك مالا تطيقة فقال : ما كان ابني ليغتاب علي بأمر ، واتبع أبو طالب أثر النبي – صلي الله عليه و سلم – إثر علي فوجدهما و الرسول – صلي الله عليه و سلم ليصلى العصر في شعب أبي دب أو غيرة علي ينظر له : فقال للرسول : صلي الله عليه و سلم -: ما هذا الدين يا محمد ؟ قال : دين الله الذي بعثني به ، فدعاه إلي التوحيد و ترك عبادة الأوثان ، فقال أبو طالب : و أما دين آبائي فإن نفسي غير مشايعة علي تركة ، و ما كنت لأترك ما كان عليه عبد المطلب ، و لكن انظر الذي بعثت به فأتم عليه فو الله لأسلمتكما ما كنت حيا حتى يتم الذي تريد ، و قال لعلي : " أما أنت يا بني فما بك رغبه في الدخول فيما دخل فيه ابنك عمك ، فاشتد ظهور رسول الله صلي الله عليه و سلم و سر بقول أبي طالب ، و أتي أبو طالب منزلة فقالت له امرأته : أين ابنك ؟ قلل : و ما تصنعين به ؟ قالت : أخبرتني مولاتى أنها رأته علي محمد و هما يصليان في شعب بأجياد ، افترى ابنك صبأ ؟ قال أبو طالب : اسكني ودعي عنك هذا ، فهو و الله أحق من آزر ابن عمه ، و لولا أن نفسي لا تطاوعني علي ترك دين عبد المطلب لا تبعت محمدا ، فإنه الحليم الأمين الطاهر فسكتت)[1].

و من السابقين في الإسلام عبد الله بن أبي قحافة المكي بأبي بكر الصديق فتذكر المصادر القديمة للتاريخ الإسلامي أن النبي محمدا صلي الله عليه و سلم – قد أفضي إليه بأمر الدعوة الإسلامية فاستجاب له علي الفور ؛ لما علم عن النبي صلي الله عليه و سلم .من صدق في القول ، و حسن الخلق و قال عنه رسول

---

١ - البلاذري / أنساب الأشراف / ج١ ص ١١٢ ، ١١٣،، ابن سيد الناس / عيون الأثير / ج١ ص ٩٢ ، ٩٣،، الطيطاوي / نهاية الإيجاز / ج١ ص ٩١

الله صلي الله عليه و سلم – (ما دعوت أحدا إلي الإسلام إلا كانت فيه عنـــده كبوه و نظر و تردد فيه) .[١] إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة و ما عام عنه حين ذكرته له وما تردد فيه

و قد أسهم – رضوان الله عليه – في نشر الدعوة الإسلامية فبذل ماله في إعتاق الأرقاء الذين اعتنقوا الإسلام إلي حد أن الله أنزل فيه قرآنا فقال ابن عبد الـــبر[٢] إن قوله تعالي (و سيجنبها الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى ، و ما لأحد عنـــــده من نعمه تجزي ، إلا أبتغاء وجه ربه الأعلى ، و لسوف يرضي) .[٣]

و قد دعي الصديق إلي الإسلام كثيرا من الرجال الأحرار ، فذكرت المصــادر أن ممن أسلم بدعوته عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بــــن عبد مناف بن قص و الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى ، و عبد الرحمن بن عوف بن الحارث بن زمرة بن كلاب ، و طلحة بن عبيـــد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن مرة ، فجاء بهم إلي رســـول الله صلي الله عليه و سلم – حين استجابوا له فأسلموا و صلوا) .[٤]

و من الرجال الذين اختلفت الرواة في ترتيب سبقهم للإسلام زيد بن حارثـة ابن شرحبيل بن كعب بن العزى بن امريْ القيس بن عامر بن النعمان بن عامر بن عبد ود بن عوف بن كنانة بن بكر بن عوف بن عذره بن زيد الله بن رقيدة

١- ابن سيد الناس / عيون الأثر / ج١ ص ٩٥

٢- الدرر / ج١ ص ٤٦

٣- سورة الليل / الآيات رقم ١٧:٢١

٤- ابن قتيبه / المعارف / ص ١٦٨ ،، ابن سيد الناس / عيون الأثر / ج١ ص ٩٣ ،٩٤،، الغزالي / فقه السيرة / ص ٩٩ ،، محمد ممدوح العربي / دولة الرسول في المدينة / ص ١٣٣ ، ١٣٤

ابن ثور بن كلب بن وبرة ، كان قد سبي في غزوة من الغــــزوات ، فاشـــتراه حكيم بن حزام ، قدم به من الشام : (فدخلت عليه عمته خديجة بنت خويلــد ، فقال اختاري أي هؤلاء الغلمان شئت فهو لك ، فاختارت زيدا ، فأخذتـــه فرآه النبي –صلي الله عليه و سلم – فاستوهبه فوهبته له ، فأعتقه ة تبناه قبـــل الوحي ، ثم قدم أبوه حارثا لوجدته عليه و جزعة ، فقال النبي صلي الله عليـه و سلم – لزيد إن شئت فأقم عندي ، و إن شئت فانطلق مع أبيك ، قال بل أقيـم عندك ، و كان يدعي زيد بن محمد فلما نزل (أدعوهم لآبائهم قال (إنا زيــد بن حارثة[1]) .

و لم يذكر أحد من الصحابة في القرآن باسمه إلا هو .[2]و قد حـــاول ابــن الصلاح التوفيق بين الروايات التي تقدم إسلام شخص علي آخر مــن الثلاثــة الذين أسلفنا الحديث عن إسلامهم فقال (الأورع أن يقال أول من أسلم مــن الرجال الأحرار أبو بكر و من الصبيان الأحداث علي ومن النساء خديجة و مـن الموالي زيد بن حارثة و من العبيد بلا ل) .[3]

و قد أثمرت هذه المرحلة السرية عن اعتناق زهاء ثلاثين رجلا الإسلام اتخــذ الرسول لهم دارا يجتمع بهم فيها علي جبل الصفا ، منعزلة عن مكة ، و أخــذ يعلمهم أصول دينهم ، و يدبر فيها حركة الإسلام و طرق تنشيطه .

تلك هذه دار الأرقم بن أبي الأرقم [4]، و هو أحد السابقين إلي هذا الديــن ، و ظل النبي – صلي الله عليه و سلم – يدعو إلي دينه سرا حتى أمره الله أن ينــذر قومه جهرا .[1]

١- ابن سيد الناس / عيون الأثر / ج١ ص ٩٤ ،، الذهبي / السيرة النبوية ص ٧٧ ،،

٢- الطهطاوي / نهاية الإيجاز / ج١ ص ٧٠

٣- ابن عبد الوهاب / مختصر سيرة الرسول / ص ٧٠

٤- وهو أبو عبد الله الأرقم بن عبد مناف بن أبي الأرقم المخزومي ، ولد بمكة سنة ثلاثين ق.هـ في أسرة ثرية ، دخل الإسلام حدثا ، فكان سابع الرجال الذين بادروا إلي اعتناق الإسلام . هاجروا إلي يثرب

ثانيا : الدعوة للإسلام جهرا :

قضى النبي محمد – صلى الله عليه و سلم – ثلاث سنوات في دعوة خلصائه و أصفياء أتباعه إلى هذا الدين ملتزما السرية[٢] حتى نزل عليه قوله تعالى : (فاصدع بما تؤمر و أعرض عن المشركين)[٣]، ثم قوله تعالى : (و أنذر عشيرتك الأقربين ، و اخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين فإن عصوك فقل إني بريء مما تعلمون) .[٤]

و هنا تختلف الروايات فيما بينهما حول ما فعله النبي محمد – صلى الله عليه و سلم – بعد نزول هذا الأمر الإلهي له ، فبعض الروايات تذكر أن النبي أبلغهم ذلك في بيته عندما دعاهم إلى وليمة أقامها لهم مرتين و البعض الآخر يذكر أن ذلك كان في بيته دون وليمة .
و رواية ثالثة تذكر أن إبلاغ النبي الناس بهذا الأمر الإلهي كان لعشائر قومه المقيمين بمكة عامة و أن هذا كان عند جبل الصفا .

فمن الأول ما رواه ابن عباس عن علي قال لما نزلت (و أنذر عشيرتك الأقربين) قال رسول الله صلى الله عليه و سلم – عرفت أني إن بادأت قومي رأيت منهم ما أكره فصمت عليها ، فجاءني جبريل ، فقال : يا محمد إنك إن لم تفعل ما أمرك به ربك عذبك ، قال علي : فدعاني ، فقال : يا علي : إن الله

المدينة و شهد المشاهد كلها مع النبي ، اختلف في تاريخ وفاته قيل سنة ثلاث و خمسين هـ، و قيل سنة خمس و خمسين من الهجرة ابن العماد : شذرات الذهب ، جـ١ ص ٦١

١- التاجي / سيرة النبي العربي / ج١ ص ١٤٨ ،، أحمد عطية الله / القاموس الإسلامي / ج١ ص ٧١

٢- الطبري / تاريخ الأمم و الملوك / ج٢ ص ٣١٨،، ابن سيد الناس / عيون الأثر / ج١ ص ٩٨،٩٩

٣- سورة الحجر / آية رقم ٩٤

٤- سورة الشعراء / آيات ٢١٤: ٢١٦

قد أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين ، فعرفت إن بادلتهم بذلك رأيت منهم ما أكره فصمت ، ثم جاءني جبريل ، فقال : إن لم تفعل ما أمرت به عذبك ربك ، فاصنع لنا يا علي شاه علي صاع من الطعام ، و أعد لنا عيس لبن ثم اجمع لي بني عبد المطلب ففعلت فاجتمعوا له و هم يومئذ أربعون رجلا يزيدون رجلا أو ينقصون ، فيهم أعمامه ابو طالب و حمزة و العباس و أبو لهب ، فقدمت إليه تلك الجفنه ن فأخذ رسول الله صلي الله عليه و سلم – منها جزيه فشقها بأسنانه ثم رمي بها في نواحيها و قال كلوا باسم الله ، فأكل القوم حتى نهلوا عنه ما ترى إلا آثار أصابعهم ، و الله إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها ، ثم قال رسول الله صلي الله عليه و سلم – اسقهم ياعلى ، فجئت بذلك العقب فاشربوا منه حتى نهلوا جميعا ، و ايم الله إن كان الرجل منهم ليشرب مثله فلما أراد النبي – صلي الله عليه و سلم – أن يتكلم بدره أبو لهب فقال : لهم سحركم صاحبكم ، فتفرقوا و لم يكلمهم ، فقال لي النبي – صلي الله عليه و سلم – من الغد عدلنا يا علي بمثل ما صنعت بالأمس ففعلت و جمعتهم فصنع رسول الله صلي الله عليه و سلم – كما صنع بالأمس ، فأكلوا حتى نهلوا و شربوا من ذلك العقب حتى نهلوا ، فقال النبي – صلي الله عليه و سلم – يا بني عبد المطلب إني و الله ما أعلم شابا من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم ، إني قد جئتكم بأمر الدنيا و الآخرة)[1].

وزاد ابن كثير نقلا عن ابن عباس علي ذلك أن النبي قال : (قد أمرني الله أن أدعوكم إليه فأيكم يؤازرني علي هذا الأمر علي أن يكون أخي " كذا و كذا ، قال فأحجم القوم عنها جميعا ، و قلت و لأني لأحدثهم سنا و أرمصهم

١- الذهبي / السيرة النبوية / ص ٨٢، ٨٣ ،، الطهطاوي / نهاية الإيجاز ج١ ص ٩٢ .. محمد كاظم القزويني / علي من المهد إلى اللحد . ص ٣٤ :٣٦

عينا ، و أعظمهم بطنا و أحشهم ساقا و أنا يا نبي الله أكون وزيــــرك عليــه ، فأخذ برقبتي فقال : إن هذا أخي كذا و كذا فاسمعوا له و أطيعوا " قال : فقـــام القوم يضحكون و يقولون لأبي طالب قد أمرك أن تسمع لابنك و تطيع) .

و لم يرتضي هذا المؤرخ الكبير الأخذ بهذه الرواية فذكر أن عبد الغفار ابــــن القاسم أبو مريم تفرد بها ، و قد عرف عنه الوضع في الأحاديث [١]. ومن ثم فإنها غير مقبولة لدية .

و من الثاني ما روي عن محمد بن سعد عن جعفر بن عبد الله بن أبي الحكـــم قال لما نزلت علي النبي – صلي الله عليه و سلم – " و أنذر عشيرتك الأقربـــين " اشتد ذلك عليه ، و ضاق به ذرعا ، فمكث شهرا و نحوه جالسا في بيته حــتى ظن عماته أنه شاك فدخلن عليه عائدات ، فقال : ما اشتكيت شيئا ، و لكــــن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين ، فأردت جمع عبد المطلب لأدعوهـــم إلي الله ، قلن : فادعوهم و لا تجعل عبد العزى فهيم – يعنين أبا لهب – فإنـــــه غــــير مجيبك إلي ما تدعوه إليه ، و خرجن من عنده و هن يقلن : إنما نحن نساء فلمــــا أصبح رسول الله صلي الله عليه و سلم – بعث إلي بني عبد المطلب فحضـــــروا معهم عدة من بني مناف و جميعهم خمسة و أربعون رجلا و سارع إليه أبــــــو لهب و هو يظن أنه يريد أن ينـــز ع عما يكرهون إلي ما يحبون

فلما اجتمعوا قال أبو لهب " هؤلاء عمومتك و بنو عمك فتكلم لما تريـــد ودع الصلاة ، و اعلم أنه ليست لقومك بالعرب قاطبة و أن أحق من أخذك و بنــــو أبيك إن قمت علي أمرك فهو أيسر عليهم أن يثبت بك بطون قريش و غدهـــا العرب ، فما رأيت يا ابن أخي أحد قط جاء بني أبيه بشر مما جئتــــــهم بـــه و سكت رسول الله – صلي الله عليه و سلم – فلم يتكلم في ذلك المجلــــس ، و

---

١ - البداية و النهاية / ج٣ ص ٣٩ ، ٤٠ .

مكث أياما ، و كبر عليه كلام أبي لهب فنـــزل جبريل ، فأمره بإمضاء ما أمــره الله به ، و شجعه عليه فجمعهم رسول الله صلي الله عليه و سلم- ثانية فقــلل : " الحمد لله أحمده و أستعينه و أومن به و أتوكل عليه و أشهد أن الله وحــده لا شريك له " ثم قال :" " إن الرائد لا يكذب أهلة ، و الله لو كذبت علي النــاس جميعا ما كذبتكم ، و لو غررت الناس ما غررتكم ، و الله الذي لا إله إلا هــو إني رسول الله إليكم خاصة و إلي الناس كافة ، و الله لتموتن كما تنـــامون ، و لتبعثن كما تستيقظون ، و لتحاسبن بما تعلمون ، و لتجزون بالإحسان إحســانا ، و بالسوء سوءا ، و إنها للجنة أبدا و النار أبدا ، و أنتم لأول من أنذر " .

" فقال أبو طالب : " و ما أحب إلينا معاونتك و مرافدتك و أقلنا لنصيحتك و أشد تصديقا لحديثك ، و هؤلاء بنو أبيك مجتمعون ، و أني أنا أحدهم غــير أني و الله أسرعهم إلي ما تحب فامض لما أمرت به ، فـــوالله لا أزال أحوطــك و أمنعك غير أني لا أجد نفسي تطوع إلي فراق دين عبد المطلب حتى أموت علــي ما مات عليه ، و تكلم القوم كلاما لينا غير أبي لهب ، فإنه قال : " يا بني عبــد المطلب ، و هذه و الله لسوءه ، خذوا علي يديه قبل أن يأخذ علي يده غـــيركم فإن أسلمتموه حينئذ ذللتم و إن منعتموه " قتلتم " فقال أبـــو طـــالب (و الله لنمنعنه ما بقينا) . [١]

أما ثالث الروايات فإن معظمها منقول عن ابن عباس مع وجود اختلاف بين بعضها البعض و سوف نعرض لروايتين من هذه الروايات لوفائـــهما بـــالغرض الذي نتوفاه من دراستنا تلك ضار بين ذكرا عن باقيها حتى لا يكـــون هنـــاك تكرار .

١- البلاذري / أنساب الأشراف / ج١ / ص ١١٨ ، ١١٩ ،، الغزالي فقه السيرة / ص ١٠٢ ، ١٠٣

فقد روى بن سعد و البلاذري كلاهما عن ابن عباس أنه قال : (لما أنزلت : و أنذر عشيرتك الأقربين صعد رسول الله صلي الله عليه و سلم علي الصفا فقال :

يا معشر قريش فقالت قريش : " محمد علي الصفا يهتف ، فاقبلوا و اجتمعوا فقالوا مالك يا محمد ؟ قال : أر أيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقوني ؟ قالوا : نعم ، أنت عندنا غير متهم ، و ما جربنا عليك كذبا قط ، قال : " فإني نذيرا لكم بين يدي عذاب شديد ، يا بني عبد المطلب ، يا بني عبد مناف يا بني زهرة ، حتى عدد الأفخاذ من قريش ، إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين ، و إني لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيبا إلا أن تقولوا لا إله إلا الله ، قال :

أبو لهب : تبا لك ، سائر اليوم لهذا جمعتنا ؟[1] فأنزل الله تبارك و تعالي : (تبت يد أبي لهب و تب) إلي آخر السورة .[2]

و قد نسب لابن عباس رواية أخرى فمنها أن رسول الله صلي الله عليه و سلم – لما نزل الوحي بقول الله (و أنذر عشيرتك الأقربين) خرج حتى علي المروة ثم قال : يا آل فهر ، فجاءته قريش ، فقال أبو لهب " بن عبد المطلب : هذه فهر عندك ؛ فقل ، فقال : يا آل غالب : فرجع بنو محارب و بنو الحارث ابنا فهر فقال : يا آل لؤى بن غالب فرجع بنو تيم الأ ردم بن غالب ، فقال : يآل كعب لؤي فرجع بنو عامر ، فقال : يآل مرة ، فرجع بنو عدى و بنو سهم و بنو جمح ابنا عمرو بن حصص ، فقال : يا آل كلاب : فرجع بنو

١- الطبقات الكبرى / ج١ ص ٢٠٠،، أنساب الأشراف / ج١ / ص ١٢٠،، الذهبي / السيرة النبوية " ص ٨٣ ،، سرور / قيام الدولة العربية ص ٧٣،٧٢

٢- سورة المسد

مخزوم و بنو تيم ابن مرة ، فقال : يا آل قصي : فرجع بنو زهرة ، فقال : يا آل عبد مناف فرجع بنو عبد الدار و بنو عبد بن قصي ، فقال : أبو لهب : هـــذه بنو عبد مناف عندك فقل فقال : : رسول اله صلي الله عليه و ســـلم – إن الله قد أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين ، و أنتم الأقرب من قريش ، و إني لا أملـك لكم من الله حظا ، و لا من الآخرة نصيبا إلا أن تقولوا لا إله إلا الله فاشهد بهـا لكم عند ربكم ، و تدين لكم العرب ، و تذل لكم العجم ، فقال أبو لهـــب : تبا لك ، فلهذا دعوتنا ، فأنزل الله (تبت يد أبي لهب) .[1]

و الذي نكاد نميل إليه بعد استقرائنا للروايات السالفة هو أن النبي محمـدا – صلي الله عليه و سلم – قد أنذر عشيرته الأقربين في بيته بغض النظر عن كونـه قد أو لم لهم ، أم لا ؛ لأن هذا يتفق مع المنطق فإن دعوة النبي لعشيرته لابـــد و أن تكون بعيدة عن باقي العشائر حتى يستطيع إطلاعهم في هدوء علي ما جـاء به الوحي، و الأصول التي تقوم عليه الدعوة الإسلامية فلما أخفق رسـول الله في إقناعهم صعد إلي الصفا و دعا الناس إليه فأتوه مسرعين ، فدعاهم إلي الديـــن الحنيف فيكون بذلك رسول الله صلي الله عليه و سلم – قد تدرج في الجـــهد بدعوة قومه في مكة فبدأ بعشيرته من بني هاشم ، ثم أتبع ذلك بدعـــوة كافـة العشائر القاطنة في مكة .

و من ثم حدثت مواجهه بين قريش و النبي محمد – صلي الله عليه و ســلم – و هذا ما سنفصله من خلال تناولنا لموقف قريش من هذا النبي و أصحابه .

موقف قريش من النبي محمد و أصحابه

١- ابن سعد " الطبقات الكبرى " ج٢ ص ٧٤
القرطبي " الجامع لأحكام القرآن " ج٢ ص ٢٣٤
البخاري " فتح الباري " ج٢ ص ٦٠٩

و قفت قريش موقف المعارض من الدعوة الجديدة فاستخدمت كافه الوسائل السياسية و الاقتصادية ناهيك عن الايذاء الجسدي و النفسي الذي صبته على النبي و صحبه و قبل أن نعرض لهذه المواقف و تلك الوسائل بالتفصيل لابد لنا من كشف النقاب عن الأسباب الحقيقية التي جعلت قريش تتصدر المعارضين للدعوة الإسلامية .

أسباب معارضة قريش للدعوة :-

تعزي معارضة قريش للدعوة الإسلامية إلي عده أسباب .

أولها : السبب الديني :-

اعتقدت قريش أن الذي دعا إليه النبي محمد من نبذ عبادة الأصنام الموضوعة حول الكعبة سيؤدي إلي فقدان مكانتها الدينية التي كانت تتباهى بها بين العرب و تحظى من أجلها بتقديرهم لها ، و علي هذا فإن رؤساء قريش وقفوا بكل قوة في وجه الحق من أجل الإبقاء علي باطل يتيم لهم هذه المكانة الدينية التي يريد النبي محمد سلبها منهم علي حد زعمهم ، ووهموا في ذلك ، لأنهم لو تدبروا في دعوة النبي الكريم لوجدوها تزيد من المكانة الدينية لهذه البقعة المشرفة .[1]

ثانيها : نظام الحكم في مكة :

وجد زعماء قريش أن ما دعي إليه النبي محمد – صلي الله عليه و سلم – سيهدم نظام الحكم الذي ارتضوه لأنفسهم ، فكان يحكم مكة رؤساء العشائر

١- حسن إبراهيم حسن " تاريخ الإسلام السياسي و الديني " ج١ ص ٨٢ الغزالي " فقه السيرة " ص ١٥١، ١٥٢

سرور " قيام الدولة العربية " ص ٧٣ عبد المنعم ماجد " التاريخ السياسي للدولة العربية " ج١ ص ١٠٢

و البطون ، و يختارون منهم ما عرف بالملأ ، و هو مجلس الرياسة في قريش ، و قد كان هؤلاء الزعماء حريصين علي مبدأ التناظر بينهم كزعماء ، و علي ألا يسودهم أحدهم من الممكن أن ينالها كلهم و معني أن يؤمنوا بهذه النبي أيلولة أمر الحكم إليه فيؤدي ذلك إلي سيادته علي زعمائهم ، و بالتالي عشيرته علي عشائرهم ، و لهذا ناصبوا مجتمعين دعوته العداء " .[1]

ثالثهما : المساواة بين الطبقات :

لم يرق لسادة قريش تقبل مبدأ المساواة الذي دعا النبي محمد -صلي الله عليه و سلم- إليه فأنفوا من مساواة طبقات المجتمع بعضها ببعض في التمتع بالحقوق الطبيعية التي كفلها الله لهم ، و تصدوا للمفهوم الذي جاء به الإسلام بخصوص الأرقاء و القاضي بأن للعبد حقوق في العيش ، و أن الاسترقاق لا يعني سلب الإنسان حقه في الزواج و التفكير في حريته .فلما أقبل العبيد علي الإسلام بكثرة لما وجدوا فيه من مبادئ كريمة قال سادتهم : إن محمدا ما يريد إلا أحداث تمرد وفتنه في المجتمع تؤدي إلي خروج الأرقاء علي طاعة السادة ومن هنا تصدي سادة للقوم لمعارضة الدعوة الإسلامية .[2]

رابعها : المكانة الاقتصادية و الأدبية لقريش

حظيت قريش بمكانه أدبية و اقتصادية مرموقة بين القبائل فكانت تجارات قريش تمر في الطريق آمنة لا تستطيع قبيلة ما التعرض لها بسوء ، و كانت القبائل تذهب ببضائعها إلي مكة و الأسواق المنعقدة فيها قبيل مواسم الحج و أثناءه في

١- إبراهيم الشريف / دور الحجاز في الحياة السياسية / ص٧،، محمد ممدوح العربي / دولة الرسول في المدينة / ص ١٣٦

٢- أحمد شلبي / موسوعة التاريخ الإسلامي / ج١ ص ١٩٤ ،، الشامي / تاريخ العرب و الإسلام / ص ٦٦ ،، محمد ممدوح العربي / دولة الرسول في المدينة ص ١٣٧

أمن فتسهم في تنشيط اقتصاد مكة و اقتصادهم في آن واحد ، و معني أن تدخل قريش في دين محمد ضياع كل ذلك منها ، فحسبت أن الحجيج لن يأتوا ثانية إلي مكة إذا ما انتشرت هذه الدعوة ، كما أن انتشارها سيؤدي إلي إلحاق ضرر مادي كبير لدي تجار الأصنام الذين كانوا ينحتونها من حجارة مكة لبيعها لأفراد القبائل أثناء تأديتها الحج

ليس هذا فحسب ، بل إن الضرر البالغ سيصيب القائمين علي سدانة الكعبة عند نجاح هذه الدعوة ، حيث إن هذا يؤدي بلا ريب إلي إزالة مكانتهم الآدبيه و منع الأموال الطائله التي كانوا يحصلونها نتيجة رعايتهم للكعبة .لهذا كله صممت قريش علي معارضة الدعوة .[1]

خامسها : العصبية القبلية :

وقفت العصبية حائلا أمام انتشار الدعوة الإسلامية عند مجاهرة النبي محمد قريشا بها ، فأعمت أعين القوم عن الحق ، و تأمل ما جاء به هذا النبي ، و قد حفظت لنا مصادر التاريخ الإسلامي ما يؤكد هذا .

فقد روى البيهقي عن أبي عبد الله الحافظ عن المغيرة بن شعبة قال : (إن أول يوم عرفت رسول الله صلي الله عليه و سلم- أني أمشي أنا و أبو جهل بن هشام في بعض أزقة مكة إذا لقينا رسول الله صلي الله عليه و سلم – فقال رسول الله لأبو جهل : " يا أبا الحكم ، هلم إلي الله و إلي رسوله أدعوك إلي الله "فقال أبو جهل : يا محمد ، هل أنت منته عن سب آلهتنا ؟ هل تريد إلا أن

١- أحمد شلبي / موسوعة التاريخ الإسلامي / ج١ / ص١٩٦ ،، إبراهيم الشريف دور الحجاز في الحياة السياسية العامة / ص ٧١،، التاجي / سيرة النبي العربي / ج١ / ص ٥١

نشهد أنك قد بلغت ؟ فنحن نشهد أنك قد بلغت . فو الله لو أني أعلـــم مـــا تقول حق لاتبعتك ، فانصرف رسول الله صلي الله عليه وسلم – و أقبل فقـــال : و الله إني أعلم ما يقول حق و لكن يمنعني شيْ إن بني قـــص قـــالوا : فينـــا الحجابه، فقلنا : نعم ، ثم قالوا : فينا السقاية ، فقلنا : نعم ، ثم قـــالوا : فينـــا القدوة ، فقلنا : نعم ثم قالوا : فينا اللواء ، فقلنا : نعم ، ثم أطعموا و أطعمنـــا حتى إذا تحاكت الركب قالوا : منا نبي ، و الله لا أفعل) .[١]

و هناك أنواع أخر ي من العصبية القبلية غير ما تحدثت عنه الروايـــة مثـــل التعصب للتقاليد الموروثة من الآباء ، فإن قريشا دافعت عن هذه التقـــاليد دون أن تكلف نفسها النظر في الأصول المستمدة منها .[٢] قال تعالي : (و إذا قيـــل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آبائنا) .[٣]

و نوع ثالث صرف القوم عن قبول ما جاء به النبي محمد و أعني به العصبيـــة المالية فأبو جهل و حزبه لا ينكر علي محمد سوي أنه يتيم من عبـــد منـــاف ، فكيف يكون له زعامة في قريش و فيهم من هو أكثر منه مالا وولدا ، و لمـــاذا تختص به عبد مناف دون سائر قريش ، فكان أبو جهل و حزبه ممن عنـــاهم " الله بقولة : " لولا نزل هذا القرآن علي رجل من القريتين عظيم [٤]"

فهم يقولون كان أولي بالنبوة أن تعطي رجلا من عظماء مكة أو الطـــائف ، و العظمة عندهم في الغني و كثرة الأموال و الأولاد ، ظانين أن النبوات تقسم بين

١- ابن كثير / البداية و النهاية / ج٣ ص ٦٤ ،، الذهبي / السيرة النبوية / ص ٩٣ ،الغزالي / فقه السيرة / ص ٢٥

٢ - إبراهيم الشريف / دور الحجاز في الحياة السياسية / ص ٧٠

٣- سورة البقرة / آية ١٧٠

٤ - سورة الزخرف / آية ٣١

الناس ، كأعراض الحياة الدنيوية الرخيصة ، و يرد الله عليهم بقوله " أهم يقسمون رحمة ربك ، نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا .[١]"

ثم يقول الله بعض ذلك " و رحمة ربك خير مما يجمعون فسمي رسالة نبيه رحمة الله ، و استنكر علي الكفار أن يقسموها حسب هواهم ، فإنها منح الله لا توهب لكل الناس و لا تتأتى بالاجتهاد ، و يقول فيها " الله أعلم حيث يجعل رسالته "[٢] فالله سبحانه يهبها لأفراد يصطفيهم من عباده متميزين بصفاقم ، و هو أعلم بهم فلا محل للاعتراض علي اختياره إياهم " .[٣]

مما تقدم يتضح لنا أن قريشا ما عارضت الدعوة الإسلامية إلا للإبقاء علي مصالحها الشخصية مع اختلاف مسمياها

الدعوة الإسلامية ووسائل المحاربة القرشية :

باديء ذي بدء نقول : إنه ترتيب علي الأسباب التي أسفلها أن وطنت قريش نفسها علي مجاهدة النبي و أتباعه ، و منت نفسها بتحقيق نجاح سريع عليهم حيث إنهم ما يزالون قله .

و من ثم بدأت مجابهتها للنبي محمد من خلال مرحلة أولي ، يمكننا أن نطلق عليها مرحلة المفاوضات و المحاورات .

و من البديهي أن تبدأ هذه المرحلة من خلال بني هاشم الذي تولي رعاية النبي – صلي الله عليه و سلم – بعد رحيل جده ، و أعني به أبا طالب فقد التقت به

١- سورة الزخرف / آية ٣٢

٢- سورة الأنعام / آية ١٢٤

٣- التاجي / سيرة النبي العربي / ج١ ص ٢٥٤ ، ٢٥٥

قريش مرات عدة من أجل مفاوضته في أمر النبي محمد ، و هذا ما سـنوضحه فيما يلي .

المفاوضات بين أبي طالب و قريش

أ : المرحلة الأولي :

لم تكن قريش آبهة بما يفعله محمد و أتباعه حتى أخذ يعيب آلهتـهم ، فـأزمعوا رأيهم علي عرض الأمر علي عمه فروي الحارث بن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه أن رجالا من قريش (مشوا إلي أبي طالب : عتبه بن ربيعه ، و شيبه بن ربيعه .[1] و أبو البختري بن هشام ، و العاص بن وائل ، ونبيه ، و منبـه بن الحجاج – أو من مشي إليه منهم – فقالوا : يا أبا طالب ، إن ابن أخيك قـد سب آلهتنا و عاب ديننا و سفه أحلامنا ، و ضلل آباءنا ، فإما أن تكفه عنـا و إما أن تخلي بيننا و بينه ، فإنك علي ما نحن عليه من خلافة فنكفيكه ، فقال لهم أبو طالب قولا رقيقا وردهم ردا جميلا فانصرفوا عنه ، و مضي رسـول الله – صلي الله عليه و سلم – علي ما هو عليه يظهر دين الله و يدعو إليه) .[2]

١- ابن عبد شمس بن عبد مناف من زعماء قريش في الجاهلية . كان أحد سبع عشرة رجلا من قريش اقتسموا عقبات مكة في بدء ظهور الإسلام لمعارضة [illegible] صلي الله عليه و سلم فنزل فيهم قوله تعالي (كما أنزلنا علي المقتسمين) الحجر آية ٩٠، كان من [illegible] المشركين الذين قتلوا ببدر [illegible] ابن الزبير "نسب قريش" ص ١٥٢ تاريخ الأمم و الملوك " ج٢ / ص ٤٤٥ ، عبد السلام الترمانيني "أزمنة التاريخ الإسلامي" ج٢ / ص ٦٦٣، ٦٦٤.

٢- الطبري "تاريخ الأمم و الملوك" ج٢ ص ٣٢٢، ابن سيد الناس "عيون الأثر" ج١/ ص ٩٩، [illegible] سرور "قيام الدولة العربية" ص ٧٣، ٧٤.

ب :المرحلة الثانية :

لما أخففت قريش في جني ثمر سعيها في المرة الأولي ، تداعي زعماؤهـــا و إلي التجمع للمسير ثانيا لأبي طالب ، علّهم يظفرون منه بوعد يضع حدا لدعـــوة النبي محمد ، فروى السدي و ابن أبي حاتم كلاهما (أن ناسا من قريشا اجتمعوا فيهم أبو جهل بن هشام ، و العاص بن وائل ، و الأســـود بـــن المطلـــب ، و الأسود بن عبد يغوث في نفر من مشيخة قريش – فقال بعضهم لبعض انطلقـوا بنا إلي أبي طالب فلتكلمه فيه ، فلينصفنا منه ، فليكف عن شتم آلهتنا ، و ندعـه و إلهه الذي يعبده فإنا نخاف أن يموت هذا الشيخ فيكون إليه فتعيرنا به العرب ، يقولون تركوه حتى إذا مات عمه تناولوه فبعثوا رجلا منهم ، يدعي المطلـــب فاستأذن لهم علي أبي طالب فقال هؤلاء مشيخة قريش و ســـراقم يســـتأذنون عليك ، قال : أدخلهم ، فلما دخلوا عليه ، قالوا ، يا أبا طالب : أنت كبيرنا و سيدنا ، فأ صفنا من أبن أخيك ، فمره فليكف عن شتم آلهتنا ، و ندعه و إلهـه قال فبعث إليه أبو طالب فلما دخل رسول الله صلي الله عليه و سلم .قال يا بن أخي هؤلاء مشيخة قومك و سراقم قد سألوك أن تكف عن شـــتم آلهتـــهم و يدعوك و إلهك ، قال يا عم !، فلا تدعوهم إلي ما هو خير لهم ؟ قـال و إلي ما تدعوهم؟ قال أدعوهم إلي أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب ، و يملكون بها العجم ، فقال أبو جهل من بين القوم ما هي و أبيك لنعطيكـــها و عشـــر أمثالها؟

قالوا تقولون لا إله إلا الله .. فنفروا و قالوا سلنا غيرها ، قال لـــو جئتمـــوني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها .. فقاموا من عنده غضبـــا و قالوا : و الله لنشتمنك و إلهك الذي يأمرك بهذا ، (و انطلق الملأ منهم أن امشوا

و اصبروا علي آلهتكم إن هذا لشيءٌ يراد) .[١]

ج : المرحلة الثالثة :

لم تضعف عزيمة زعماء قريش أمام موقف أبي طالب الذي أبـــداه لهـــم في لقائهم الثاني ، فحاولوا إغرائه باستبدال عمارة بن الوليد بمحمد ثم يعمـــدوا إلى قتلة و يبقي عمارة لأبي طالب يشد من أزره ، فيكونوا قد عرضوه في زعمـــهم بمن هو خير من ابن أخيه

فيروى ابن هشام أن أبا طالب لما أبي خذلان محمد و إسلامه للقوم و مشوا إليـه بعمارة بن الوليد بن المغيرة فقالوا له — فيما بلغني :

يا أبا طالب هذه عمارة ابن الوليد ، أنهد فتي في قريش و أجمله ، فخذه فلـــك عقله و نصره ، و اتخذه ولدا ، فهو لك و أسلم إلينا أبن أخيك هـــذا الـــذي خالف دينك و دين آبائك و فرق جماعة قومك وسفه أحلامهم فنقتله فإنما هـــو رجل برجل .

قال : و الله لبئس ما تساوموني ، أتعطونني أبنكم أغذية لكم و أعطيكم ابـني تقتلوه هذا و الله ما لا يكون أبدا ، قال : فقال المطعم بن عدي بن نوفل بـــن عبد مناف بن قصي : و الله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك وجـــهدوا علـــي التخلص مما تكرهه ، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئا ، فقـــال أبـــو طـــالب للمطعم : و الله ما أنصفوني و لكنك قد أجعت خذلاني و مظاهرة القوم علـــي فاصنع ما بدا لك)[٢]

١- ابن سعد " الطبقات الكُبرى " ج١ ص ٢٠٢

الطبري " تاريخ الأمم و الملوك " ج٢ ص ٢٣

ابن سيد الناس " عيون الأثر " ج١ ص ٩٩، ١٠٠، ابن عبد الوهاب " مختصر سيرة الرسول " ص ٧٦

٢- ابن هشام / سيرة النبي / ج١ / ص ٢٧٩/ .. ابن سيد الناس " عيون الأثر / ج١/ ص ١٠٠ "

تلك كانت إلماعة عما دار بين أبي طالب و قريش في أمر النبي – صلـــي الله عليه و سلم و لا يعني هذا الذي ذكرناه أنهم لم يتحاوروا مع النـــبي محمـــد – صلي الله عليه و سلم بدون واسطة ، فإن كل زعيم من زعمائهم قد كانت لـــه مع النبي محمد – صلي الله عليه و سلم – مواقف عديدة بقصد محاربة الدعـــوة الإسلامية ، من هؤلاء أبو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمـــر بن مخزوم[١] الذي التقي مع النبي محمد- صلي الله عليه و سلم – برفقة جماعة من المشركين ذات يوم ، فقالوا له : (و الله لتتركن سب آلهتنا ، و لنسبن إلهـــك الذي تعبد ، فأنزل الله تعالي : " و لا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيســـبوا الله عدوا بغير علم "[٢] فأمتنع رسول الله من سب آلهتهم .[٣]

و لم يأل أبو جهل جهدا في صد الناس عن دين النبي محمد-صلي الله عليه و سلم -فيروى محمد بن سعد عن أبيه قال (كان أبو جـــهل يـــأتي الرجـــل الشريف إذا أسلم فيقول له : أتترك دين أبيك و هو خير منك و تقبل رأيـــه و تضع شرفة ؟

و إن كان تاجرا قال : ستكسد تجارتك ، و يهلك مالك ، و إن كان ضعيفـــا أغري به حتي يعذب .[٤]

و من ذلك أيضا ما رواه ابن إسحق أن عشرين رجلا أو قريب من ذلك مـــن النصارى قدموا إلي مكة حين بلغهم خبر رسول الله- صلي الله عليه و ســـلم – فوجدوه في المسجد فجلسوا إليه و كلموه و سألوه و تلا عليهم القرآن ، فلمـــا

١- البلاذري / أنساب الأشراف / ج١ ص ١٢٠

٢- سورة الأنعام / أية ١٠٨

٣- الطبري / جامع البيان في تفسير القرآن / ج٥/ص ٢٠٧ ،، ابن عبد الوهاب مختصر سيرة الرسول / ص ١٠٧ ،، الرازي / التفسير / ج١ ص ١٤٧

٤- البلاذري / أنساب الأشراف / ج١ ص ١٩٨

سمعوه فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا له و آمنوا به و صدقوه و عرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره ، فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش فقال لهم : خيبكم الله من ركب بعثكم من ورائكم من أهل دينكم لتأتوهم بخبر هذا الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم ، و صدقتموه بما قال ما نعلم ركبا أحمق منكم [1].
و قد صرفهم هذا القول عن إيمانهم بالنبي محمد- صلي الله عليه و سلم – و ظلوا عن ما كانوا عليه من الدين .

و كان أبو جهل شأنه شأن معظم زعماء قريش الذين عارضوا النبي محمدا – صلي الله عليه و سلم – يدرك أن الحق هو الذي جاء به هذا النبي غير أنه كان يظهر خلاف ما يبطن لما أسلفناه من أسباب معارضة قريش للدعوة ، يدل علي ذلك ما رواه الزهري (أن أبا سفيان بن حرب ، و أبا جهل بن هشام ، و الأخنس بن شريق[2] خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله- صلي الله عليه و سلم – و هو يصل من الليل في بيته ، فأخذ كل منهم مجلسا يستمع فيه ، و كل لا يعلم بمكان صاحبه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق فتلاموا ، و قال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رآكم سفهائكم لأوقعتم في أنفسهم شيئا ، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلي مجلسة ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض ، مثل ما قالوا . أول مرة ، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسة فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض لا نبرح حتى نتعاهد أن لا نعود فتعهادوا

١- ابن سيد الناس / عيون الأثر / ج١ ص ١٢٩

٢- هو علاج بن أبي سلمة بن عوف بن عقبه ، عرف بهذا اللقب لكونه خنس بالقوم يوم بدر . (ابن هشام / سيرة النبي / ج١ / ص ٩٩)

علي ذلك ، ثم تفرقوا فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم ذهب حتى أتى أبا سفيان في بيته فقال : أخبرني يا أبا حنظله عن رأيك فيما سمعت من محمد ، قال : ماذا سمعت ، تنازعنا نحن و بنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، و قالوا منا نبي يأتية الوحي من السماء فمتى نـدرك هـذه و الله لا نؤمن به أبدا و لا نصدقه) [١]

و لما كان أبو جهل من أشد أعداء الإسلام فإن النبي محمدا صلي الله عليه و سلم – و هو الذي كناه بهذه الكنية ، و كان يكني سلفا " بابي الحكم " و حث رسول الله – صلي الله عليه و سلم – الناس من أتباعه علي ألا يكنوه إلا بما كناه به النبي محمد – صلي الله عليه و سلم – فقال (من قال لأبي جهل " أبا الحكم " فقد خطأ خطيئة يستغفر الله منها) :

و روى عنه أنه قال : (لكل أمة فرعون و فرعون هذه الأمة أبو جهل) . [٢]

و من وجهاء قريش الذين عارضوا الدعوة الإسلامية عتبه بن أبي ربيعة و قد اختلفت الروايات حول ما إذا كان هو الذي عرض علي القوم أن يلقي بالنبي محمد فيحاوره حتى يكفهم إياه أم إن أبا جهل أو النطر بن الحارث[٣] ذكر في

١- ابن سيد الناس / عيون الأثر / ج١ / ص ١١١، ١١٢

٢- البلاذري / أنساب الأشراف / ج١ ص ١٢٥

ابن علقمة بن كارة بن عبد مناف من بني عبد الدار ، كان من وجهاء قريش ، تولي الدعاية المضادة للإسلام بين المكيين ، و كان يزعم أنه يملك مالم يملكه محمد ، من صدق الأخبار عن الأمم السالفة كان من حاملي رأية المشركين يبدر أسره المسلمون ثم قتلوه الطبرى /تاريخ الأمم و الملوك ج٢ ص ٢٧٠، ٤٧٣، ٤٨٥ عبد السلام الترپانيتي / أزمنة التاريخ م٢ ص ٩٠٧، ٩٠٨

٣-الذهبي – السيرة النبوية – ص ٩٠-٩١،، ابن عبد الوهاب " مختصر سيرة الرسول " ص ١٠٤ ،، التاجي " سيرة النبي العربي " ج١ / ص ١٨١

٤- رجل سخل أي رذيل الطبع ضعيف في قومه (ابن منظور – لسان العرب مادة سخل ص ١٩٦٤م)

ناديهم التفرق الذي عليه القوم في الحكم علي النبي محمد – صلـــي الله عليـه سلم – فهم تارة يقولون عنه أنه شاعر ، و أخرى يقولون إنه كاهن أو مجنـــون .. فقال عتبة : أنا من أعلم بالكهانة و الشعر ، و سأقوم إليه حتى أوقفكم علـي خبرة ، فتوجه إلي النبي ليكلمه .[1]

و الذي يعنينا هنا هو ذكر الاختلاف الذي وقع بين الروايات حول ما دار مـــن حوار بين النبي محمد و عتبة .

فقد روى محمد بن فضيل عن جابر بن عبد الله قال : أن عتبه لما ألتقي بـــالنبي محمد – صلي الله عليه و سلم – قال فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقـد عبدوا الآلهة التي عبت و إن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حـــتى نســمع قولك ، إنا ما رأينا سخلة[2] قط أشام علي قومك منك ، فرقت جماعتنا و شتت أمرنا ، و عبت ديننا ، و فضحتنا في العرب لقد طار فيهم أن في قريش ســاحرا ، و أن في قريش كاهنا ، و الله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنـــا إلي البعض بالسيوف حتى نتفانى ، أيها الرجل إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش و إن كان إنما بك البـــاءة فـــاختر أي نســـاء قريـــش فلتزوجنك عشرا .. فقال رسول الله صلي الله عليه و سلم : فرغت .. قـــال : نعم ، فقال رسول الله صلي الله عليه و سلم -:

" بسم الله الرحمن الرحيم . حم. تنــزيل من الرحمن الرحيم " حتى بلغ " فـــإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد و ثمـــود "[3] .. فقـــال عتبـــه : حسبك حسبك ما عندك غير هذا ؟ قال : لا فرجع إلي قريش فقـــالوا : مـــا ورائك ؟ قال : ما تركت شيئا لكم تكلمونه به إلا كلمته فيه ، قالوا : فـــهل

١- رجل سخل أي رذيل الطبع ضعيف في قومة (ابن منظور – لسان العرب مادة سخل ص ٤:٤١٥)

٢- سورة فصلت / آية ١:٣١ .

أجابك ؟ قال نعم ، و لا و الذي نصبها بنيه (أي الكعبة) ما فهمت شيئا مما قال غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد و ثمود) [١].

و ذكر الذهبي ما يخالف ذلك فقال : إن عتبه ذهب إلي بيته إثر فراغه من لقاء النبي محمد ، و لم يخرج إلي أهلة و احتبس عنهم ، فقال : أبو جهل : يا معشر قريش و الله ما نري عتبة إلا قد صبأ إلي محمد ، و أعجبه طعامه ، و ما ذاك إلا من حاجة أصابته ، انطلقوا بنا إليه فأتوه ن فقال : أبو جهل : و الله يا عتبه ما حسبنا إلا أنك صبأت ، فإن كانت بك الحاجة جمعنا لك ما يغنيك عن طعام محمد ، فغضب و أقسم بالله لا يكلم محمدا أبدا ، و قال لقد علمتم أني أكثر قريش مالا "[٢] و ذكر لهم ما أسلفناه .

و روى ابن هشام ما يخالف ذلك في بعض تفاصيله ، فقال : إن عتبه لما جلس بين يدي النبي قال له : " يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من السلطة في العشيرة ، و المكان في النسب ، و إنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، و سفهت به أحلامهم ، و عبت به آلهتهم ، و دينهم ، و كفرت به من مضي من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنتظر فيها لعلك تقبل منها بعضها قال : فقال له رسول الله صلي الله عليه و سلم – " قل يا أبا الوليد أسمع " .. قال : يا ابن أخي ، إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، و إن كنت إنما تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك ، و إن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، و إن كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه لا تستطيع ردة عن نفسك

١- ابن عبد الوهاب " مختصر سيرة الرسول " ص ١٠٤

٢- السيرة النبوية ص ٩١

طلبنا لك الطب و بذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع علـــي الرجل حتى يداوى منه ، أو كما قال له حتى إذا فرغ عتبه و رسول الله صلـــي الله عليه و سلم – يستمع منه قال :

" أقد فرغت يا أبا الوليد " قال نعم قال " فاستمع منى " قال : أفعل ، فقـــال " بسم الله الرحمن الرحيم حم . تنـــزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياتـه قرانا عربيا لقوم يعلمون ، بشيرا و نذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يســـ ـن ، ز قالوا قلوبنا في أكنه مما تدعونا إليه) ثم مضي رسول الله صلي الله عليه و ـلم – فيها ، يقرؤها عليه فلما سمعها منه عتبه أنصت لها ، و ألقي يديه خلف ظهره ، معتمدا عليها ، يسمع منه ثم أنتهي رسول الله صلي الله عليه و ســـلم – إلي السجدة منها فسجد ، ثم قال : " قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فـأنت و ذاك ، " فقام عتبه إلي أصحابه ، فقال بعضهم لبعض نحلف بالله لقد جـــاءكم أبـــو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به ، فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يـــا أبـــا الوليد ؟ قال : ورائي إن سمعت قولا ، و الله ما سمعت مثله قط ، و الله ما هـــو بالشعر ، و لا بالسحر ، و لا بالكهانة ، يا معشر قريش ، أطيعوني و اجعلوهـــا بي وخلوا بين هذا الرجل و بين ما هو فيه ، فاعتزلوه فو الله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بعدكم ، و إن يظهر علـي العرب فملكه ملككم ، و عزه عزكم ، و كنتم أسعد النـــاس بـــه ، قـــالوا : سحرك و الله يا أبا الوليد بلسانه قال : هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم) .[1]

١- سيرة النبي " ج١ ص ٣١٣ : ٣١٤

هيكل " حياة محمد " ص ١٦٨

و الذي نراه أنه لا تعارض بين الروايتين المذكورتين ؛ لأنه لا مانع من أن يكون عتبه قد بدأ حواره " مع النبي أولا بما ذكره ابن هشام ثم أعقب ذلك بطرح التساؤلات التي ذكرتها رواية محمد بن فضل .

و نكاد نرجح ذهاب عتبه إلي قومه إثر فراغه من لقاء النبي محمد لاطلاعهم علي ما سمعه ، لأنه كما تقول الروايات قد توجه إليه بناء علي طلب قومه منه أو إخبارهم بعزمه علي الذهاب إليه فمن الطبيعي و الحالة هذه أن يعود إلي إطلاعهم علي ما كان من أمر النبي معه ، و يبثهم النتائج التي وصل إليها بعد هذا اللقاء و ما يترتب عليها من النصح لهم .

و علي كل حال فإن جميع الروايات التي ذكرت الحوار بين عتبه و النبي محمد – صلي الله عليه و سلم – أجمعت علي أن عتبه بن ربيعه ظل علي شركة بعد هذا الحديث بغض النظر عن السبب الذي جعله يتمسك بدين آبائه .

و من زعماء قريش الذي حرص النبي محمد صلي الله عليه و سلم – علي إسلامهم الوليد بن المغيرة فقد اهتم النبي محمد بمحاورته و دعوته للإسلام اهتماما كبيرا إلي حد أن هذا قد شغله عن الالتفات لعبد الله بن أم مكتوم الأعمى الذي جاء متجشما الصعاب من أجل لقاء النبي ليدخل الإسلام إلا أن رسول الله – صلي الله عليه و سلم – لم يعره اهتماما حتى انصرف عنه الوليد ، فعاتب الله محمدا علي ذلك في القرآن الكريم ، حيث قال عز من قائل : (عبس و تولي ، أن جاءه الأعمى ، و ما يدريك لعله يزكي ، أو يذكر فتنفعه الذكر ، أما من أستغني ، فأنت له تصدي ، و ما عليك إلا يزكي ، و أما من جاءك يسعي ، وهو يخشى فأنت عنه تلهي) .[1]

١- سورة عبس / الآيات من ١ : ١٠

فكان كلما يلقي النبي محمد عبد الله يقول له مرحبا " بمن عاتبني فيـه ربي "[١]
و يروى البلاذري أن الوليد بن المغيرة ، و معه عدة من قريش منهم (الأسـود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى ، و العاص بن وائل السهمي ، و أمية بـن خلف

قالوا : " يا محمد ، هلم فلنعبد ما تعبد ، و تعبد ما نعبد فنشترك نحن و أنـت في الأمر فإن كان ما نعبد خيرا كنا قد أخذنا بحظنا ، و إن كان ما نعبـد خـيرا كنت قد أخذت بحظك ، فأنزل الله عز و جل سورة (قل يا أيها الكـافرون لا أعبد ما تعبدون و لا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم أعبد، ، و لا أنا عـابدا ما عبدتم ، و لا أنتم عابدون ما أعبد ، لكم دينكم و لي دين) .[٢]

و الوليد بن المغيرة كما تقول معظم المصادر القديمة للتاريخ الإسلامي هـو الذي جعل القوم يجمعون علي رأي واحد في النبي محمد – صلـي الله عليـه و سلم – يقولونه للقبائل عند مجيئها لموسم الحج فيمنعهم ذلك من الاسـتماع إلي دعوته بعد ما أبت قريش الأخذ بنصيحة عتبه بن ربيعه لهم بأن يخلوا بين النبي و العرب .

فيروى ابن هشام (أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش و كـان ذا سن فيهم ، و قد حضر الموسم فقال لهم : يا معشر قريش ، إنه قد حضر هـذا الموسم ، و إن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، و قد استمعوا بأمر صـاحبكم هذا ، فاجمعوا فيه رأيا واحدا ، و لا تختلفوا ، فيكذب بعضكم بعضا ، قـالوا فأنت يا أبا عبد شمس فقل و أقم لنا رأيا نقل به ، قال : بل أنتم ، فقولوا أسمـع نقول كاهن ، قال لا ، قالوا فنقول مجنون ، قال : و ما هو بمجنون ، لقد رأينـا الجنون و عرفناه فما هو بخنقه و لا تخالجه و لا وسوسته ، قالوا : فنقول شـاعر

١- ابن عبد الوهاب / مختصر سيرة الرسول / ص ١٠٩ ،. هيكل / حياة محمد / ص ١٨٨ .
٢- أنساب الأشراف ج١ / ص ١٣٤ ،. القرطبي / الجامع لأحكام القرآن / ج٢ / ص ٢٢٥،٢٢٦

، قال ما هو بشاعر لقد عرفنا الشعر كله ، رجزه و هزجه و قوفيه و مقبوضـــه و مبسوطه ، فما هو بالشعر ، قالوا : فنقول ساحر قال : و ما هو بســـــاحر ، لقد رأينا السماء و سحرهم ، فما هو بنفسهم و لا عقدهم قالوا : فما نقول يــا أبا عبد شمس ؟ قال : و الله إن لقوله لحلاوة و إن أصله كغدق

و إن فرعه لجناه .... و ما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه بــاطل ، و إن أقرب القول فيه لأن تقولوا هو ساحر جاء يقول سحر يفرق به بين المــــرء و أبيه ، و بين المرء و أخيه ، و بين المرء و زوجه ، و بين المــــرء و عشــــيرته ، فتفرقوا عنه بذلك ، فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم .. لا يمــــر بهم أحد إلا حذروه إياه ، و ذكروا لهم أمره فأنزل الله تعـــالي في الوليـــد بـــن المغيرة[1] ذرني ومن خلقت وحيدا ، و جعلت له مالا ممدودا ، و بنين شهودا ، و مهدت له تمهيدا ، ثم يطمع أنه أزيد ، كلا إنه كان لاياتنا عنيــــدا ، ســـأرهقه صعودا ، إنه فكر و قدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، و ثم نظـــر ثم عبس و بسر ، ثم أدبر و استكبر ، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قـــول البشر) .[2]

و من الوسائل التي حاربت بها قريش الدعوة الإسلامية إطلاقــــهم العنـــان لألسنتهم للنيل من النبي محمد — صلي الله عليه و سلم — فطفق صناديد الكفــر يهزأ ون من النبي كلما مر بيهم ظانين أن فعلهم هذا سيثنيه عن السير في دعوتـه فهذا الأسود بن عبد يغوث و هو من المستهزئين ، كان إذا رأي المسلمين قـــال لأصحابه : و قد جاءكم ملوك الأرض الذين يرثون ملك كسري و قيصر ،

١- سيرة النبي / ج١ / ص ٢٨٣ .. فخر الدين الرازي / التفسير الكبير / ص ٢٦٤

٢- سورة المدثر / الأيات ١١ : ٢٥ .

و يقول للنبي – صلي الله عليه و سلم - :أما كلمت اليوم السماء يا محمد ؟ [١]

و منهم من كان يتغامز و يتهامس كلما مر به النبي أو أحد المسلمين و لم يتورعوا عن فعل كل ما من شأنه إحراج النبي محمد أمام الناس في مجالسهم .

فيذكر البلاذري (أن رجلا من إراش قدم بإبل له مكة فباعها لأبي جهل فمطلة بأثمانها فوقف الرجل علي نادي قريش ، فقال : إني رجل غريب ابن سبيل ، و إن أبا الحكم ابتاع مني ظهرا فمطلني بثمنه ، و حبس حتى شق علي ، فمن رجل يقوم معي فيأخذ لي بحقي منه ؟ و كان رسول الله صلي الله عليه و سلم – جالسا في عرض المسجد فقالوا و هم يستهزئون أترى الرجل الجالس ؟ انطلق إليه يأخذ لك بحقك فأتي رسول الله– صلي الله عليه و سلم – فقال : يا محمد ، إني رجل غريب و قص عليه قصته ، فقاء رسول الله –صلي الله عليه وسلم – حتى ضرب باب أبي جهل فقال أبو جهل من هذا ؟ قال رسول الله صلي الله عليه و سلم – محمد بن عبد الله فاخرج إلي ، ففتح الباب ، و خرج ، فقال له : أخرج إلي الرجل من حقه ، قال : نعم ، فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم –لن أبرح أو تعطيه حقه ، فدخل البيت و خرج إليه بحقه و أعطاه إياه ، فانطلق نبي –الله صلي الله عليه و سلم -.و انصرف الرجل إلي مجلس قريش ، فقال جزي الله محمدا عني خيرا فقد أخذ لي بحقي بأيسر الأمر ، ثم أنصرف و جاء أبو جهل ، فقالوا له : ماذا صنعت ؟ فو الله ما بعثنا الرجل إلي محمد إلا هازئين ، فقال : دعوني فو الله ما هو إلا أن ضرب بابي حتى ذهب فؤادي فخرجت إليه و إن علي رأسه لفحلا ما رأيت مثل هامته و أنيابه قط

١- البلاذري / أنساب الأشراف / ج١ ص ١٣١ ،، القرطبي / جامع لأحكام القرآن / ج ١٩/ص ٧٤

مانحا فاه والله لو أبيت لأكلني ، فأعطيت الرجل حقه ، فقال القوم : ما هــو إلا بعض سحرة) .[١]

و أنت ترى أن الله قد نصر النبي محمدا – صلي الله عليه و سلم – فــأوصل للرجل حقه عن طريق هذا الذي زعم القوم أنه سيصبح مسار ســـخريه مــن الجميع بعد أن يؤوب الرجل إليهم يجر ذيول إخفاقه للجوئه للنبي محمد .

فصدق قولة تعالي لنبيه (إن كفيناك المستهزئون) أي سنتولى عنــك الــرد عليهم ؛ فيقال : إن الأسود بن عبد يغوث لما خرج من عنــد أهلــه أصابتــه السموم فاسود وجهه حتى صار حبشيا فأتي أهله فلم يعرفوه و أغلقــوا دونــه الباب فرجع متلددا حتى مات عطشا .[٢]

و لما أخفقت قريش في مفاوضتها لأبي طالب و محاورتها مع النبي و الاستهزاء به تفتق ذهن زعمائها عن شئ جديد ، اعتقدوا أنه سيظهر كذب النبي محمــد أمام الناس فأرسلوا إليه فجاءهم رسول الله –صلي الله عليه و سلم –و ســألوه أن يحدث لهم أشياء تجعلهم يؤمنون به مثل تحويل بئر زمزم إلي ينبوع يدفع المــاء دفعا ، ورقي النبي إلي السماء حتى يأتي بأربعة ملائكة يشهدون له بصدق مــا قال ، أو يدعوا الله بمنحه جنات من نخيل و أعنابا فيصبح أغنى قريش .[٣]

١- أنساب الأشراف / ج١ ص ١٢٨ . ١٢٩، النويرى / نهاية الأرب / ج ١٦ ص ٢١٨، ٢١٩
٢-البلاذري أنساب الأشراف / ج١ / ص ١٣١ ،، ابن عبد البر / الدرر / ص ٤٧
٣- ابن سيد الناس / عيون الأثر / ج١ ص ١٠٧ ،، فخر الدين الرازي / التفسير الكبير / ج٢/ ص ٤٤٦،، الألوسي / روح المعاني / ج١٥ / ص ١٧٠ . ١٧١، هيكل / حياة محمد / ص ١٦٠

و قد روي لنا القرآن الكريم ذلك في قوله تعالي (بسم الله الرحمن الرحيم و قالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل و عنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله و الملائكة قبيلا أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء و لن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقروه قل سبحان ربي . هل كنت إلا بشرا رسولا) [1]

و مهما يكن من أمر فإن قريشا بعد أن أيقنت أن النبي صلي الله عليه و سلم – لن يجيب زعماءها إلي ما طلبوه منه ، لأنه ليس إلا بشر كسائر البشر ، سوى أن الله اصطفاه و اختصه بوحي يتزل عليه حتى يبلغه للناس – طفقت تعارض

هذا المفهوم الذي لم ترتضيه ، مما جعلها تفكر في وسيله جديدة تضع بها حدا لنشاط هذا النبي فكان ما يعرف اصطلاحا بإيذاء قريش للنبي و أصحابه .

إيذاء قريش للنبي :

لما نفد صبر قريش من محاورة النبي محمد أخذت تنزل به صنوف شتى من الإيزاء الجسدي بقصد إثنائه عن الاستمرار في دعوة الناس إلي هذا الدين الجديد و كان النبي محمد – صلي الله عليه و سلم – كلما نزل به أذى من أحد القرشيين قابلة بصبر و رحابه صدر و لم يكن هذا إلا دافعا لقريش لارتكاب المزيد من الإيذاء لشخص هذا النبي ، و لسوف نعرض البعض ألوان هذا الإيذاء علي سبيل المثال لا الحصر بقصد الإيجاز .

---

١ - سورة الإسراء آية ٩٠ : ٩٣

فيروى ابن اسحق أن أم جميل !! سمعت ما نزل في حقها علي النبي محمد – صلي الله عليه و سلم – بسورة المسد حسبته من ضروب الهجاء الشائعة لدي القوم فتوجهت إلي النبي محمد و أبي بكر و هما يجلسان عند الكعبة واضعة بعين يديها فهرا من حجر ، و قالت لأبي بكر (أين صاحبك ؟ قد بلغني أنه يهجوني ، و الله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه أما و الله إني لشاعرة ثم قالت :-

مذما عصينا ... و أمره أبينا ... و دينه قلينا

ثم انصرفت فقال أبو بكر : يا رسول الله ، أما تراها رأتك ؟! فقال ما رأتني لقد أخذ الله ببصرها عني) .[١]

و لم يتورع زوجها أبو لهب في الإتيان بأحد الصبية و يوعز إليه خفيه بإلقاء الأذى علي رأس النبي محمد – صلي الله عليه و سلم – عند خروجه من بيته [٢].

و قد روت عائشة عن النبي محمد – صلي الله عليه و سلم – أنه قال : (كنت بين شر جارين بين أبي لهب و عقبه بن أبي معيط ، إن كانا ليأتيان بالفروث فيطرحها علي بابي ، حتى إنهم ليأتون ببعض ما يطرحون من الأذى فيطرحونه علي بابي فيخرج به رسول الله صلي الله عليه و سلم – فيقول : يا بني عبد مناف أي جوار هذا ثم يلقيه بالطريق .[٣]

و إذا كان هذا فعل النبي -صلي الله عليه و سلم – بعد إلقاء القاذورات عند داره فإن هذا الأمر الذي تكرر من غير واحد من المشركين المجاورين لدار النبي

١- ابن هشام " سيرة النبي " ج١ ص / ٣٧٩

٢- البلاذري " أنساب الأشراف " ج١ ص ١٣١ المباركفوري " الرحيق المختوم " ص / ٩٩

٣- ابن سعد " الطبقات الكبرى " ج١ ص ٢٠١

محمد آثار حفيظة طليب بن عمير بن وهب بن قصي بن كـــلاب الـــذي رأي عقبه بن أبي معيط و هو يلقي مكتلا عند بيت النبي محمد و قد مـــلأه عـــذرة فأخذه منه طليب و ضرب به عقبه و أخذ بأذنيه و نشب به فسار عقبه بطليـب إلي أمة و خاطبها قائلا : (ألا ترين ابنك صار غوضا دون محمد ؟ فقالت : و من أولي منه بذلك ؟ هو ابن خاله ، أموالنا و أنفسنا دون محمد " و جعلـــت تقول :

إن طليبا نصر ابن خاله ، **** آساه في ذي دمه و ماله [١]

(الرجز)

و تذكر المصادر الأصيلة للتاريخ الإسلامي أن زعماء قريش ما كانوا يتحدثـون كلما جلسوا في نادلهم عن شئ قدر حديثهم عن النبي محمد – صلي الله عليه وسلم و كيفية إيذائه و محاربة دعوته .

فيروى ابن إسحاق عن يحيي بن عروة بن الزبير عن أبيه ابن الزبير عن عبـــد الله بن عمرو بن العاص قال : قلت له : (ما أكثر ما رأيت قريشا أصـــــابوا فيـــه رسول الله –صلي الله عليه و سلم –فيما كانوا يظهرون من عدواته ؟ قـــال : حضرتهم و قد أجتمع أشرافهم يوما في الحجر ، فذكروا رسول الله صلـــي الله عليه وسلم – فقالوا : ما رأيت مثل ما صبرنا عليه من آمر هذا الرجل قـــط : سفه أحلامنا و شتم آبائنا و عاب في ديننا و فرق جماعتنا و سب آلهتنا ، لقـــد صبرنا منه علي أمر عظيم أو كما قالوا فبينما هم في ذلك (إذا طلع رســول الله صلي الله عليه و سلم – فأقبل يمشي حتى استلم الركن ثم مر بهم فغمزوه ببعض القول .. قال : فعرفت ذلك في وجه رسول الله ، ثم مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها ، فوقف ثم قال : أتسمعون يا معشر قريش أما و الذي نفسي بيده لقد جئتكـم بالذبح " .. قال فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا كأنما علي رأســـه

١- البلاذري " أنساب الأشراف " ج١ ص ١٤٧

طائر واقع حتى إن أشدهم فيه وصاه قبل ذلك ليرفوه بأحسن ما يجد من القـول حتى إنه ليقول انصرف يا أبا القاسم فو الله ما كنت جهولا ، قال : فـانصرف رسول الله -صلي الله عليه و سلم - حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر ، و أنا معهم فقال بعضهم لبعض : ذكرتم ما بلغ منكم و ما بلغكم عنه ، حـتى إذا بدأكم بما تكرهون تكتموه ، فبينما هم في ذلك طلع رسول الله -صلـي الله عليه و سلم فوثبوا إليه وثبه رجل واحد و أحاطوا به يقولون أنت الذي تقـول كذا و كذا لما كان يقول من عيب آلهتهم و دينهم ، فيقـول ، رسـول الله - صلي الله عليه و سلم -" نعم ، أنا الذي أقول ذلك " قال " فلقد رأيت رجـلا منهم أخذ يجمع ردائه قال : فقام أبي بكر - رضي الله عنه - دونه يبكي ، و يقول : أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ، ثم انصرفوا عنه فإن ذلك لأشد مـا رأيت قريشا نالوا منه قط) [1]

و قد روى ابن يونس أن الذي هم بخنق النبي محمد و هو عقبه بن أبي معيط و نقل عن آل أبي بكر أنه رجع يومئذ و قد صدعوا فدق رأسه ممـا جذبـوه بلحيته . و كان رجلا كثير الشعر .

و قد روى أبو سفيان أن النبي محمدا صلي الله عليه و سلم - قد ضرب مـن قريش ضربا شديدا حتى غش عليه في هذا الموقف الذي أسلفنا الحديث عنه و أن أبا بكر قد ناله ما ناله لمحاولاته حجب الضرب عن النبي محمد - صلـي الله عليه و سلم -.[2]

١- ابن هشام / سيرة النبي ج١ ص ٣١٠ ،٣١١ - الذهبي / السيرة النبوية ص ٩٦

٢- الطبري / تاريخ الأمم و الملوك / ج٢ / ص ٣٣٢ ، ٣٣٣ ،، ابن عبد البر / الدرر ص ٤٣،، الذهبي السيرة النبوية / ص ٩٦ ، ٩٧

و كانت قريش تشتاط غضبا كلما رأت النبي محمدا -صلي الله عليه و سلم – يصلي ، فقد حوت المصادر القديمة للتاريخ الإسلامي العديد من الروايات التي تدل علي أن كفار مكة قاموا بأكثر من محاولة الإلحاق الأذى بالنبي و هو يصلي من ذلك ما رواه أبو هريرة في صحيح مسلم أن أبا جهل قال : (هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم ؟ فقيل : نعم . فقال : و اللات و العزى لئن رأيته يفعل ذلك لاطأن رقبته و لأعفرن وجهه في التراب ، قال فأتى رسول الله – صلي الله عليه و سلم – وهو يصلي ليطأ علي رقبته فما فجئهم منه إلا و هو ينكص علي عقبيه ، و تبقي بيديه فقالوا مالك يا أبا الحكم ؟ قال إني بيني وبنيه لخندقا من نار ، و هو لاو أجنحة ، فقال : رسول الله صلي الله عليه وسلم – لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوا عضوا) .[١]

و من هذا أيضا ما رواه ابن مسعود الذي قال (كنا يوما في الكعبة والرسول يصلي و يتعبد ، و نحن من حوله فقال أبو جهل لجماعة من قريش : ألا رجل منكم يقوم إلي بني فلان فقد ذبحوا بشاه فيأتي بكرشها و قدرها فيلقيه علي محمد و هو ساجد فننظر ماذا يصنع ذلك الذي يزعم أن يتطهر لكل صلاة ، فقام عقبه بن أبي معيط من بين القوم ، و ذهب إلي الشاه و جاء بكرشها و أنجاسها ثم ألقي ذلك علي النبي و هو ساجد في صلاته ، قال ابن مسعود فلم يقدر واحد منا نحن المسلمين الذين حول النبي – صلي الله عليه و سلم – علي إبعاد ذلك عنه ، فقد كنا حينئذ فله و كانوا كثرة ، و كنا ضعفاء و كانوا أقوياء ، و لم يزل الرسول ساجدا كذلك حتى جاءت ابنته فاطمة فلما رأته صرخت في وجوه القوم ، و أخذت تنحي الكرش عن أبيها ، و هي تبكي ، ثم

٢- ابن هشام / سيرة النبي / ج١ / ص ٣١٨ ، ٣١٩ ،، النووي / نهاية الأرب / ج١٦ / ص ٢١٧ ،، ابن عبد الوهاب / مختصرة سيرة الرسول ص ١٠٦ ، ١٠٧

جاءت بالماء و أخذت تطهر له ثوبه و لما قضى رسول الله- صلـــي الله عليـــه وسلم – صلاته رفع صوته بالدعاء عليهم ، و كان إذا دعا دعا ثلاثا و إذا سأل ربه سأله ثلاثا ، ثم قال : " اللهم عليك بقريش " ثلاثا ، فلما سمعـــوا صوتـــه وهو يدعو عليهم و كانوا يضحكون منه و يسخرون تنا هوا عـــن الضحـــك وخافوا دعوته ، ثم قال الرسول : و اللهم عليك بأبي جهل بن هشام ، و عتبـــه ابن ربيعه و شيبه بن ربيعه ، و الوليد بن عتبه ، و أميه بن خلف ، و عقبه بـــن أبي معيط ، قال ابن مسعود و ذكر شخصا سابعا لم أحفظه ، ثم قال : و الـــذي بعث محمدا بالحق لقد رأيت الذين سماهم النبي صرعى يوم بدر) .[١]

مما تقدم نلخص إلي أن قريشا استنفذت جل ما لديها من وسائل مع النـــــبي محمد و عمه ، و إن إيذاءها لهذا النبي لم يزد الدعوة إلا انتشارا و لم يصب النبي بسوء ، فالله يعصمه من الناس فراحت تصب جم غضبها علي أتباع هذا النـــبي حتى يتخلوا عنه فتحقق الأمر الذي طالما راودها من خلال ذلك و نعـــني بـــه القضاء علي الدعوة الإسلامية .

إيذاء قريش لأصحاب النبي :-

نال المسلمون الأوائل و لا سيما المستضعفين منهم من كفار قريش صنوفـــا من الأذى مما لا سبيل إلي استقصائه لضيق المقام .

و من ثم فإن ما نتناوله هنا من إيذاء قريش لبعض الصحابة لا يعدو عن كونـــه أمثلة يقصد منها توقيف القاريء علي مدي المعاناة التي تحملها المســـلمون قبـــل الهجرة من مكة إلي المدينة .

١- الذهبي / السيرة النبوية / ص ١٣٦ ،، الناجي سيرة النبي العربي / ج١ / ص ٢٢٤، ٢٢٥

و من المسلمين الأوائل الذين صبروا علي إيذاء قومهم بلال بن رباح ، وكان رباح والد بلال عبدا حبشيا لخلف بن وهب والد أميه و كان يرعي له الإبل ، ثم صار يصرف علي عبيده الآخرين ، و لما كبر زوجة جاريه حبشية اسمها (حمامة) فولدت له بلالا ، و مات رباح و مات سيده (خلف) " ، و حين سمع بلال بالدين الجديد الذي يدعو الناس إلي الله وحده و يسوي بينهم في الحقوق و الوجبات و أن النبي – صلي الله عليه و سلم – يقول في دعوته أيها الناس لا فضل لعربي علي أعجمي إلا بالتقوى ، الناس لآدم و آدم من تراب . فبادر بلال إلي النبي محمد و أعلن إسلامه ، و كان بلال –رضوان الله عليه – صادق الإسلام ، طاهر القلب ، و كان أمية بن خلف يخرجه إذا حميت الظهيرة ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع علي صدره ثم يقول له ، لا و الله لا تزال هكذا حتي تموت أو تكفر بمحمد – صلي الله عليه و سلم – و تعبد اللات والعزى .[1]

و قد روى عمرو بن العاص أن سيد بلال كان يعذبه علي رمضاء ، لو وضع عليها قطعت لحم لنضجت ، و يذكر محمد بن سعد عن الواقدى أي حسان ابن ثابت قال : حججت أو قال اعتمرت فرأيت بلالا في حبل طويل تمده الصبيان و معه فيه عامر بن فهيرة [2]. وهو يقول ، أحد .. أحد أنا كفرت باللات و العزى و هبل و إساف و نائلة و بوانه فأضجعه أمية في الرمضاء [3]

١- ابن كثير " البداية و النهاية " ج٣ ص ٥٧

النويري (نهاية الأرب " ج ١٦ ص ٢٢٩

التاجي " سيرة النبي العربي " ج١ ص ١٧٠ ، ١٧١

٢- التيمى ، اشتراه أبو بكر من الطفيل بن عبد الله بن سخبرة ، ثم أعتقه كان ممن استشهد ببئر معونة (ابن حجر / الإصابة / ج٣ / ص ٥٩٤ ، ٥٩٥

٣- البلاذري / أنساب الأشراف / ج١ / ص ١٨٥

و قد مر أبو بكر ببلال و هو يعذب ..

فقال : لأمية : إلي متي تعذب هذا الرجل .

قال أمية : و ما شأنك ؟ عبد لنا نصنع به ما نشاء

أبو بكر : أنزع الله الرحمة من قلبك فلا تحس بألمه ؟

أمية : أنتم أفسدتموه بدينكم .

أبو بكر : هل لك في أمر خير ما تصنع ؟

أمية : و ما هو ؟

أبو بكر : أشتري منك هذا الرجل قبل أن يموت بين يديك .

أمية : أو تدفع فيه سبع أوق فضة ؟

أبو بكر : إنك تغالي في ثمنه حين عرفت رغبتي في شرائه و مع ذلك أقبل ما تعرض علي ثمنه !

و اشتري أبو بكر بلالا من سيده الكافر[١] .

و تذكر بعض الروايات أن أبا بكر لما رأى أمية بن خلف يعذب بلالا قال له ألا تتقي الله في هذا المسكين ؟ حتى متي ؟ قال : أنت الذي أفسدته فأنقذه مما ترى ، فقال أبو بكر : أفعل عندي غلام أسود أجلد منه و أقوي علي دينك أعطيكه به قال قد قبلت ، قال : هو لك فأعطاه أبو بكر الصديق رضي الله عنه – غلامة ذلك ، و أخذه فأعتقه ، ثم أعتق معه علي الإسلام قبل أن يهاجر إلي المدينة ست رقاب بلال سابعهم ".[٢]

و لم يكن بلال هو الوحيد الذي أوذي من صحابة رسول الله – صلي الله عليه و سلم – بل شاركهم في تحمل هذا الأذى أكثر من صحابي مستضعف منهم

١- ابن سيد الناس / عيون الأثر / ج١ ص ١١١ ،، التاجي / سيرة النبي العربي / ج١ ص ٧١ ، ٧٢

٢- ابن هشام / سيرة النبي/ ج١ / ص ٣٢٩ ،، النويري / نهاية الأرب / ج ١٦ ص ٣٢٩، ٢٣٠ ،، الشامي / تاريخ العرب الإسلام / ص ١٦٩

آل ياسر ، فيذكر البلاذري أن ياسر بن عامر و أخوه الحارث و مالك قدموا مكة من اليمن يطلبون أخا لهم فرجع الحارث و مالك إلي اليمن و أقام ياسر[١] بمكة و حالف أبا حذيفة بن المغيرة بن مخزوم فزوجة أبو حذيفة أمة له ، يقال لها سمية بنت خياط فولدت له عمارا الذي ظل مع أبي حذيفة إلي أن مات .

و لما جاء الإسلام اعتنقه ياسر وسمية و عمار و أخوه عبد الله بن ياسر فأصيبوا نتيجة ذلك بأذى شديد .

فيروى أن أبا جهل كان يعذب الثلاثة بالنار ، و إلقائهم في الماء بعد ذلك و قد مر رسول الله صلي الله عليه و سلم – بهم و هم يعذبون فالتمسوا منه الدعاء لهم فقال النبي محمد- صلي الله عليه و سلم – صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة .[٢]

فزاد هذا القول من إيمان ياسر و آله ، و أحس أبو جهل أن ما يصبه عليهم من عذاب لن يفيد في زعزعه إيمانهم بالنبي محمد .

(فاقترب أبو جهل من سمية و قال لها : إنك لا تزالين هكذا حتى تكفري بدين محمد و تعودي إلينا .. فقالت سمية غاضبة .. تعسا لك أيها الكافر و تعسا لآلهتك التي لا ترى و لا تسمع .. الموت أحب إلي من أن أراك يا عدو الله الله ربنا و محمد نبيا ، فجن جنون الكافر من كلامها ، و طعنها بحربته طعنه قضت عليها ، فكانت سمية أول شهيدة في الإسلام ، و نظر ياسر و عمار إلي ما أصاب سمية فقال لأبي جهل ، قتلتها يا عدو الله تعسا لآلهتك ، موعدنا الجنة يا سمية ، إن وعد الله حق ، ووعد رسوله صدق ، و ذاد هذا غضب أبي جهل فأخذ يضرب الوالد أشد الضرب حتى شهق شهقة خرجت بعدها روحة تشكو إلي ربها ظلم الظالمين ، و مات ياسر كما ماتت سمية تحت العذاب و لما رأى

١- أنساب الأشراف / ج١ / ص ١٥٧

٢- ابن القيم الجوزيه / زاد المعاد / ج٢ ص ٤٢ ، علي سامي النشار / شهداء الإسلام

رجال قريش ما صنعه أبو جهل بالوالدين خشوا أن يهلك عمار بين يديه فسعوا إليه ليطلق سراحه حتى يدفن والدية و يقضي ما عليه من حقوق)[١].
و ظل عمار علي دينه بعد وفاه والدية بازلا في سبيل هذه العقيدة كل نفيـــس و رخيص ، وهو الذي نزل فيه قوله تعالي (من كفر بالله من بعد إيمانه إلا مـــــن أكره و قلبه مطمئن بالإيمان) .[٢]

فيذكر علماء التفسير أن هذه الآية نزلت علي النبي محمد – صلي الله عليـــــه و سلم – بعد ما جاءه عمار مكتئبا فلما سأله النبي محمد عن سبب ذلك ، قـــال له : لقد أكرهت علي الكفر بلساني ليخفف عني أذى القوم فطمأنه النبي محمـــد – صلي الله عليه و سلم – علي إيمانه ما دام القلب لم يوافق اللسان فيما نطـــق به[٣] و هو من الذين أعتقهم الصديق رضوان الله عليه .
و من المستضعفين الذين أو ذو لسبب اتباعهم للنبي محمد عبد الله ابن مســـــعود .. فيذكر الطيالسي عن زرعن عبد الله بن مسعود أنه حبب إليه الإسلام عندمـــا كان غلاما يافعا (و مر به رسول الله –صلي الله عليه و سلم – و أبـــو بكـــر وقد فرا من المشركين فقالا يا غلام هل عندك لبن تسقينا ؟ قلت إني مؤتمـــــن و لست بساقيكما ، فقال هل عندك من جذعه لم ينز عليـــــها الفحـــل ؟ قلـــت فأتيتهما بها ، فأعتلقها أبو بكر و أخذ النبي – صلي الله عليه و سلم – الضـــوع فدعاه فحفل الضرع و أتاه أبو بكر بصخرة منقعره ، فحلب فيها ثم شـــــربا و

١- النويري / نهاية الأرب / ج١٦ / ص ٢٣٠،٢٣١ ،، المقريزى / امتناع الأسماع / ص ٤٤ ،، التاجي / سيرة النبي العربي / ج١ / ص ١٦٦ ،١٦٧،، عبد الرازق الطنطاوي / تاريخ العرب و صدر الإسلام / ص ٢٠٠

٢- سورة النحل / آية ١٠٦

٣- القرطبي / الجامع لأحكام القرآن / ج١٠ / ص ١٨٠،، عبد الرازق الطنطاوي تاريخ العرب و صدر الإسلام / ص ٢٠٠ ، ٢٠١

سقياني ، ثم قال للضرع اقلص فقلص ، فلما كان بعد أتيت رسول الله صلـــي الله عليه و سلم – فقلت علمني من هذا القول الطيب ، يعني القرآن الكـــريم ، فقال إنك غلام معلم ، فأخذت من فيه سبعين سورة ما ينازعني فيها أحد) .[١]
و كان عبد الله بن مسعود أول من جهر بالقرآن بعد النبي محمد – صلـــي الله عليه و سلم – غير مبال بما سينـــزل به من إيذاء القوم عند مواجهتـــهم بمـــا يكرهون سماعة .

فيروى ابن حميد عن يحيي بن عروة بن الزبير عن أبية .. قال (كان أول مـــن جهر بالقرآن بعد رسول الله –صلي الله عليه و سلم – بمكة عبد الله بن مسعود ، قال اجتمع يوما أصحاب رسول الله – صلي الله عليه و سلم – فقالوا :
و الله ما سمعت قريش بهذا القرآن يجهر لها به قط فمن رجل يسمعوه ؟ فقـــال عبد الله بن مسعود أنا ، قالوا : إنا نخشاهم عليك إنما نريد رجلا لـــه عشـــيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه فقال : دعوني فإن الله سيمنعني .. قال : فغدا ابـــن مسعود حتى أتي المقام في الضحى و قريش في أنديتها حتى قام عند المقام ثم قـــال (بسم الله الرحمن الرحيم) .. رافعا بها صوته .. (الرحمن علم القرآن خلـــق الإنسان علمه البيان) قال : : ثم استقبلها يقرأ فيها ، قال : و تأملوا و جعلـــوا يقولون ما يقول ابن أم عبد ١١ ثم قالوا : انه ليتلوا بعض ما جاء به محمـــد ، فقاموا إليه فجعلوا يضربون في وجهه ، و جعل يقرأ حتى بلغ منها ما شـــاء الله أن يبلغ ثم انصرف إلي أصحابه ، و قد أثروا بوجهه ، فقـــالوا : هـــذا الـــذي

١-الذهبي " السيرة النبوية " ص ٨٠
ابن العماد الحنبلي " شذرات الذهب " ج١ ص ٣٨ ، ٣٩

تخشيناه عليك فقال : ما كان أعداء الله أهون علي منهم الآن لئن شئتم لأغـــاد ينهم غدا بمثلها ، قالوا : لا حسبك فقد أسمعتهم ما يكرهون .[١]

و عبد الله بن مسعود من الذين شهد لهم النبي محمد بالجنة ، و من أولئـــك الذين هاجروا الهجرتين ، و من القراء الأربعة للقرآن الكريم[٢]م .

و لم يكن إيذاء صناديد الكفر للمستضعفين بمكة قاصرا علي إنزال العقوبـــة بالأجساد ، بل شملا السخرية من عبادتهم لربهم الواحد الأحد ، زاعمين أن هذا سيجعل هؤلاء الأتباع يؤبون إلي الشرك و الضلال ، و قد وهموا في ذلك فـــإن هذه الفئة القليلة التي آمنت بالنبي محمد منذ عهد مبكر ، أنساها إيمانها كل شـئ يحرص الآخرون عليه في ديناهم غير آبهين بأخراهم ، فهذا سعد بن أبي وقـــاص يتصدى لأمة التي حاولت رده إلي دين قومه ، قد فعل هذا علي الرغم من حبـــه لها فلما يئست من إجابته لها تركته و شأنه .[٣]

و يذكر محمد بن الوليد عن سعد بن أبي وقاص " قال (خرجت أنا وسـعيد ابن زيد ، و خباب بن الأرت ، و عمار بن ياسر ، و عبد الله بن مســـعود إلي شعب أبي دب نتوضأ و نحن مستخفون فظهر علينا نفر من المشـــركين، وقـــد كانوا يرصدوننا فاتبعوا أثرنا : أبو سفيان بن حرب ، و الأخنس بـــن شـــريق وغيرهما من المشركين ، فعابوا علينا و أنكروا فعلنا حتى بطشوا بنا فأخذت لحي جمل فأضرب به رجلا من المشركين فأشجه شجه أوضحت ، و انكسر

١- ابن هشام " سيرة النبي " ج١ ص ٢٣٦،٢٣٧
٢- ابن العماد الحنبلي " شذرات الذهب " ج١ ص ٣٨ ،٣٩
٣- الناجي " سيرة النبي العربي " ج١ ص ١٥٧ ، ١٥٧

المشركون ، و قوى أصحابي ، فطردناهم حتى خرجوا من الشعب فكنـــت أول من هراق دما في الإسلام " .[١]

و إذا كانت هذه إشارة موجزة إلي البعض المستضعفين الذين نالهم الإيـــذاء من قريش فإن بعض الرجال من ذوى المنعة في قومهم قد وقع عليـــهم أيضـــا الإيذاء و إن كان بشكل لا يقارن بما حدث للمســـلمين المســتضعفين مثـــل الصديق – رضوان الله عليه ، .

فيروى ابن اسحق عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبية القاسم بن محمد قـال : (لقي أبا بكر سفيه من سفهاء قريش ، و هو عامد إلي الكعبة فحثا علي رأســه ترابا ، قال : فمر بابي بكر الوليد بن المغيرة و العاص بن وائل ، قال ؛ فقال أبـو بكر ألا ترى ما يفعل هذا السفيه ؟ قال : أنت فعلت ذلك بنفســـك ، و هـــو يقول أي رب ما أحلمك أي رب ما أحلمك ؟[٢]
و قد زاد من إيذاء المشركين لأبي بكر أن قومه تخلوا عن حمايتـــه لـــا اعتنـــق الإسلام ، مما جعله يفكر في الهجرة إلي الحبشة مع من هاجر إليها من المسـلمين[٣] . و بينما هو يسير في الطريق لقيه ابن الدغنة ، فسأله إلي أين يا أبا بكر ؟ فقـال : أخرجني قومي ، و إني أريد أن أسيح في الأرض و أعبد ربي ، فقال : مثلـــك يا أبا بكر لا يخرج ، و أنت في جواري و حماي ، فرجع مع ابن الدغنة وعرفت قريش أن أبا بكر في جواره و حماه ، فطلبت قريش من ابن الدغنـــه أن يـــأمره

١- ابن عمرو بن نفيل العدوى القرشي ، و لد بمكة ، هاجر إلي المدينة مع المسلمين ، شهد المشاهد كلها الابدلرا ، لغاية عن المدينة في مهمة بعثة إليها الرسول – صلي الله عليه و سلم أحد العشرة المبشرين بالجنة توفي سنة ٥١ هـــ ابن سعد/ الطبقات الكبرى / ج٣ / ص ٢٧٥

٢- ابن عبد الوهاب / مختصر سيرة الرسول / ص ٩٦

٣- ابن عبد البر " الدرر" ص ٤١

بعباده ربه في داره ، و لا يجهر بصلاته و قراءته لخشيتها افتتان الناس به ، فبني مسجدا بفناء داره فلبث أبو بكر في داره يعبد ربه ، فكان يصلي فيه و يقرأ القرآن ، فيهرع إلي المكان نساء المشركين و أبناؤهم ينظرون إليه و يستمعون إلي ما يقرأ و كان أبو بكر رجلا لا يملك عينية إذا قرأ القرآن .

فلما وقفت قريش علي حقيقة تجمع النساء و الأبناء عند بيت الصديق أرسلت إلي ابن الدغنه قائلة إن أبا بكر مجاهر بالقرآن ، ناقضا ما اتفقنا عليه معك ، فقال ابن الدغنه لأبي بكر : إما أن تلتزم شروط الجوار أو ترد إلي ذمتي ، فقال : إني أرد عليك ذمتك و أرضي بجوار الله ، و كان ذلك سببا بأن لحق أبا بكر الكثير من الأذى و الاضطهاد [١].

و لم يكن تعذيب قريش قاصرا علي المسلمين من الرجال ، بل تعداه إلي النساء اللاتي أسلمن وهن مستضعفات في قومهن ، علي غرار لبيبه جارية المؤمل بن عدي بن كعب و قد أسلمت قبل عمر – " رضوان الله عليه – " فكان يعذبها .

و يروي حسان بن ثابت أنه لما قدم مكة معتمرا ، و النبي – صلي الله عليه و سلم – يدعو الناس ، و أصحابه يؤذون و يعذبون فوقف علي عمر و هو مؤتزر يخنق جارية بني عمر بن المؤمل حتى تسترخي في يديه ، فأقول : قد ماتت ثم يخلي عنها و يثب علي قرينتها في الدين ، يقال لها زنيرة فيفعل بها مثل ذلك .[٢]

١- البلاذري / أنساب الأشراف / ج١ ص ٢٠٥ – الطيب النجار السيرة النبوية ص ٦٤ – التاجي / سيرة النبي العربي / ج١ ص ١٥٦ .

٢- ابن هشام " سيرة النبي " ج١ ص ٣٤١ البيلاذري / أنساب الأشراف " ج١ ص ١٩٥ البيهقي دلائل النبوية " ج٢ ص ٢٨٢ ، ٢٨٣ ابن حجر الإصابة ج٨ ص ١٠٠ ، ج٧ ص ٦٦٤، ٦٦٥ الشامي تاريخ العرب و الإسلام ص ١٧١

و يذكر البلاذري أن أبا جهل كان يقول : (ألا تعجبون لهؤلاء و أتباعهم فلو كان أمر محمد ا خيرا و حقا ما سبقونا إليه أفسبقتنا زنيره إلي رشد و هما من ترون ؟ و كانت زنيره قد عذبت حتى عميت ، فقال لها أبو جهل : إن اللات و العزى فعلتا بك ما ترين فقالت و هي تبصرة ، و ما تدري اللات والعزى ممن يعبدهما و لكن هذا أمر من السماء و ربي قادر علي أن يرد بصري ، فأصبحت من تلك الليلة و قد رد الله عليها الله بصرها ، فقالت قريش هذا من سحر محمد ، فاشتري أبو بكر " رضي الله عنه "- جاريه بني المؤمل و زنيرة و أعتقهما ") .[١]

مما تقدم نخلص إلي أن قريشا قد أخفقت في استئصال شأن المسلمين ، فلم يرهبهم الإيذاء الجسدي ، كما لم يرهب نبيهم محمدا – صلي الله عليه و سلم- و من ثم صممت قريش علي استخدام الوسيلة الأخيرة معهم ، علي أمل أن تحقق لها مآربها التي طالما منوا النفس بتحقيقها ، و هي بقاء الحالة الدينية لقريش غير متأثرة بالدعوة الجديدة فكان ما يعرف في التاريخ بمقاطعة قريش لبني هاشم و بني المطلب ، التي سنفصل الحديث عنها إثر فراغنا من الهجرة الأولي و الثانية إلي الحبشة و ما تخللها من أحداث عظيمة كان لها الأثر البين في الدعوة الإسلامية مثل إسلام حمزة و عمر و فرية الغرانيق .

الهجرة الأولي للحبشة :

لم تكن هجرة المسلمين الأولي إلي الحبشة من الأمور التي ليس لها ما يبررها بل علي النقيض من ذلك فإن هذه الهجرة الأولي عزاها العديد من الباحثين إلي سببين أحدهما ما هو ديني و ثانيهما ما هو سياسي .

١- أنساب الأشراف ج١ ص ١٩٦ .

أولا : الدافع الديني :

وجد رسول الله- صلي الله عليه و سلم – أن قريشا تزيد كل يوم في إيذائها للمؤمنين ، و لا سيما المستضعفين منهم ، بينما يعيش – صلوات الله و سلامة عليه . في منعه من الله تقيه شر إيذائهم ثم حماية عمه أبي طالب .

فيروى عنه صلوات الله و سلامة عليه – أنه قال لجماعات المؤمنين (لو خرجتم إلي أرض الحبشة ، فإن لها ملكا لا يظلم عنده أحد ، و هي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه) .[1] فامتثل المسلمون لهذا الأمر فكانت أول هجرة في الإسلام .

و علي الرغم من أن دافع الإيمان كان هو الحافز الأوحد للمسلمين كي يتركوا مكة إلي الحبشة ، فإن المستشرق الإنجليزي (مونتجوغيري ويت) حاول .

التشكيك في هذا ونعت من هاجروا من مكة إلي الحبشة بضعف الإيمان في الوقت الذي نعت فيه من بقي في مكة و لم يهاجر بقوة التدين ، و لم يقبل القول الذي أجمع عليه المؤرخون المسلمون من أن النبي محمدا – صلي الله عليه و سلم -ما سمح لهذه الفئة التي هاجرت إلا بدافع خوف الفتنه التي هاجرت إلا بدافع خوف الفتنة عليهم من شده إيذاء القوم لهم ، فقال " إن هذا افتراض ضعيف جدا لأنه كان بين هؤلاء أنفسهم من عرف عنهم قوة الإيمان الذي لا يخشى معه عليه الفتنة و الاضطهاد و أن القلة التي بقيت مع الرسول و لم تهاجر لم يكونوا أكثر إيمانا من الذين هاجروا ، ولهذا لا يعقل مطلقا أن يكون الرسول قد خاف علي هؤلاء المهاجرين دون غيرهم من المسلمين ، ثم يتساءل (ويت) و يقول : إذا كانت هجرة هؤلاء النفر من المسلمين خشيه أن يفتنوا في دينهم أمام إيذاء قريش و ضغطها علي من دخل في الإسلام فلماذا لم يرجع هؤلاء

١- ابن هشام / سيرة النبي / ج١ ص ٣٤٣ ،، الطبري / تاريخ الأمم و الملوك / ج٢ ص ٣٢٨ ،، ابن عبد البر / الدرر / ص ٤٨ .

المهاجرون إلي المدينة بعد هجرة الرسول إليها مباشرة خاصــــة و أن الإســـلام أصبح قادرا علي حماية أتباعه و يتسأل لماذا بقي هؤلاء المهاجرون حتى الســـنة السابعة من الهجرة في أرض الحبشة " ؟[١]

و نحن لا نجد كبير عناء في الرد علي هذه الأدلة الواهية التي استند إليها هــذا المستشرق ، فالقول بأن العديد من الصحابة الذين هاجروا لم يكونوا أقل إيمانـا من الذين بقوا في مكة و لم يهاجروا أمر صحيح ؛ و لكننا نقـــول إن هجـــرة هؤلاء الصحابة من ذوي الإيمان القوي الصحيـــح ، مـــع هـــذه الفئـــة مـــن المستضعفين ربما يقصد منها تقوية هؤلاء الناس علـــي الهجـــرة و أن هـــؤلاء الصحابة الأقوياء من ذوى المنعة في قومهم أرادوا لأنفسهم توفير جـــو آمـــن يعبدون الله فيه دون خوف من أذى هذا أو ذاك .

و تساؤله عن السبب الذي جعل المسلمين يقيمون بالحبشـــة حـــتى الســـنة السابعة من الهجرة إلي المدينة تساؤل لا محل له ، ذلك أن النبي محمدا — صلـــي الله عليه و سلم — عندما هاجر إلي المدينة مع جماعات المهاجرين عاش الجميـــع علي مبدأ المؤاخاة الذي يعني مقاسمه المهاجرين للأنصـــار في عيشـــهم ، حـــتى يستطيع المهاجرون الاعتماد علي أنفسهم فكيف و الحالة هذا يطلب من نيـــف وثمانين مسلم العودة من الحبشة إلي المدينة بعد أن استطاعوا توطين أنفسهم علي العيش هناك في رغد مادي و أمن ديني ، ناهيك عن كون الإسلام لم يكن قـــد استقر الاستقرار الأمن بهذه الدار الجديدة إلا بعد سنوات علي دخوله إليـــها ، فلا بد من مضي وقت يسمح لهؤلاء المهاجرين بأن يطمئنوا علي أنه صـــــارت

١- الشامي " تاريخ العرب و الإسلام " ص ١٧٢ ،١٧٣ .

للإسلام منعه بالمدينة و لا سيما أنه لم تغب عن أذهالهم تجربة عودة مـــهاجري الهجرة الأولي إلي مكة بعد علمهم بإسلام حمزة و عمر – كما سأوضحه .

ثانيا : الدافع السياسي :

ذكر المؤرخون المحدثون أن النبي محمدا- صلي الله عليه و سلم – شــــخص ببصرة يمينه و يسرى باحثا عن مكان صالح حتى يأمر المسلمين بالهجرة إليـــه ، فلم يجد إلا بلاد الحبشة مكانا صالحا لتلك الهجرة الأولي ، ذلـــك أن القبـــائل العربية لم تكن ترضي بهجرة المسلمين إليها ، إما تمسكا بالعقيدة الوثنيـــة الـــتي تنافي الدين الجديد ، أو مجاملة لقريش ، و لم تكن يثرب في ذلك الوقت صالحـــة للهجرة للخلافات المستشرية بين الأوس و الخزرج و اليهود الذيـــن انشـــغلوا بمصالحهم الخاصة عن كل شئ و بلاد اليمن كان الصراع الديني فيها علي أشده ، و الفرس الذين يتولون أمرها كانوا من اشد أعداء الدين الإسلامي ، و مـــا قلناه هنا ينطبق علي ، إمارتي الغساسنة و المناذرة ، و علي هذا تكون الأحـــوال الدينية و السياسية للبلاد هي التي ألجأت المسلمين للـــهجرة إلي الحبشـــة دون غيرها من الأماكن الأخرى .[1]

و من المؤرخون المحدثين من يري أن النبي محمدا صلي الله عليه و سلم – أراد من هجرة المسلمين إلي الحبشة تحقيق غرضين :

١- هيكل / حياة محمد / ص ١٧١ ،، حسن إبراهيم حسن / تاريخ الإسلام السياسي و الديني / ج١ / ص ٨٧،، أحمد شلبي / موسوعة التاريخ الإسلامي / ج١ ص ١٩٩ عبد المنعم ماجد / التاريخ الإسلامي / للدوله العربية / ج١ ص ١٥٠،، الشامي تاريخ تاريخ العرب و الإسلام / ص ١٧١،١٧٩،، عبد الرازق الطنطاوي / تاريخ العرب و صدر الإسلام / ص ٢١٠،٢١١

أولهما : أن المهاجرين الذين هاجروا إلي أرض الحبشة – سيجدون ترحيبا من ملكها من أجل أن يجدد رغبته التي تسمح له بالتدخل من جديد في شئون مكة بعد الإخفاق الذي صاحب حملتهم التي قاموا بها عليها بقيادة أبرهة الأشرم .
ثانيهما : لإشعار قريش بأن عدوانها علي المسلمين قد يضطرهم إلي الإلتجاء إلي قوة خارجية ربما تتدخل لحمايتهم فتتعرض مكة لغزو خارجي أو تتعرض مصالحها الاقتصادية للضرر ، و لكي تتجنب هذا فإنه يجب أن تكف عدوانها عن المسلمين) [1]

غير أن ما ذهب إليه هذا المؤرخ لم يرتض الأخذ به كثير من المؤرخين المحدثين الذين قال أحدهم (أما فيما يختص بالأمل الذي رواد ملك الحبشة من التدخل في شئون مكة عن طريق مساعدة المهاجرين له ، ففي رأينا أنه احتمال بعيدا جدا و لن يقبل به النبي – صلي الله عليه و سلم – الذي يدعو إلي دين جاء بالقيم الأخلاقية و العدالة الإنسانية و هذان مبدأ لا يتفقان مطلقا مع الرأي الأول لأنه لو صح – افتراضا تدخل النجاشي في شئون مكة الداخلية كما يعو هذا الرأي ، فماذا يكون موقف النبي صاحب الكلمة و السيادة المرتقبة إذا جاء غريب من البلاد و تدخل في أمورها و أصبح المهيمن عليها و المدبر لسياستها و شئونها ، وردنا علي المغزى الثاني و هو الالتجاء إلي قوة خارجية لحماية المسلمين تعارضا هو الآخر تعرضا كاملا مع ما عرف من أخلاق النبي – صلي الله عليه و سلم – و رأفته و حبه لبني قومه خاصة ، رغم إيذائهم له و تعذيبهم للمسلمين ، و دليلنا علي ذلك أنه حينما اشتد إيذاء المشركين للنبي عندما حاول الالتجاء إلي الطائف دعي لقومه بالهداية و الرحمة . [2]

١- أحمد إبراهيم الشريف / دور الحجاز في الحياة السياسية العامة / ص ٧٢
٢- الشامي / تاريخ العرب و الإسلام / ص ١٧٦،١٧٧

و مهما يكن من أمر فإن المسلمين هاجروا من مكة إلي الحبشة في رجب سنة خمس من البعثة علي سفينة للتجارة استقلوها من الشعيبه و كانوا اثنا عشر رجلا و أربع نسوة فخرج عثمان بن عفان بزوجته ، و أبو حزيفه ولد عتبه بن ربيعه بن عبد شمس بزوجته سهله بنت سهيل بن عمرو فولدت له بالحبشة محمدا ، و الزبير بن العوام ، و مصعب بن عمير العبدى ، و عبد الرحمنُ بن عوف ، و أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومى [1] ، و زوجته أم سلمة أم المؤمنين ، و عثمان بن مظعون الجمعي [2] و عامر بن ربيعه حليف آل خطاب و امرأته ليلي بنت أبي حثمة العدوية ، [3] و أبو سبرة ابن أبي رهم بن عبد العزى العلمري ، [4] و سهيل بن بيضاء [5] و هو سهل بن وهب الحارثى .

و قد أقاموا بهذه البلاد ثلاثة أشهر عادوا بعدها إلي مكة عندما علموا بإسلام حمزة و عمر ، و سجود المشركين مع النبي بعد فراغه من قراءة سورة النجم . [6]

١- هو عبد الله بن الأسد ، ابن عمه النبي – صلي الله عليه و سلم ، من السابقين للإسلام ، شهد بدرا ثم أحد حيث جرج فيها جرحا اندمل ثم انتقض فمات في جمادى الآخر سنة ثلاث من الهجرة (ابن الأثير / أسد الغابة / ج٥ / ص ٢١٨) .

٢- أول من توفي من المهاجرين بالمدينة و أول من دفن بالبقيع من الصحابة كانت وفاته في السنة الثانية من الهجرة بعد شهوده بدرا (ابن حجر الإصابة / ج٤ / ٤٦١ ، ٤٦٢)

٣- من السابقات إلي الإسلام ، أول طعينة هاجرت إلي المدينة علي حد قول بعض المؤرخين ، صلت إلي القبلتين و م نقف علي تاريخ لوفاتها (ابن حجر الإصابة / ج٨ ، ص ١٠٢ ،، عمر رضا كحالة

٤- من السابقون إلي الإسلام ، ابن عمة رسول الله – صلي الله عليه و سلم – جعله ابن حجر من مهاجر الهجرة الثانية شهد بدرا

٥-قرش من بني فهر ، ممن هاجروا إلي المدينة و عاش فيها حتى سنة تسع من الهجرة حيث توفي ، و صلي عليه النبي محمد صلي الله عليه و سلم (ابن الأثير-أسد الغابة – ج٢ ص ٢٧٠)

٦- ابن سيد الناس / عيون الأثر / ج١ ص ١١٥ ،، الذهبي / السيرة النبوية / ص ١١٠ ،، الطهطاوي / نهاية الإيجاز / ج١ ص ٩٦ ،، الطيب النجار / السيرة النبوية / ص ٦٨ ،، عبد العزيز غنيم فلسفة السيرة / ص ٨٧ .

إسلام حمـــزة :

كان حمزة بن عبد المطلب من أعظم شباب قريش ، و من الذيـــن رفضـــوا الدعوة الإسلامية منذ إعلان النبي لها علي الملأ في مكة ، و قد هيأه الله لاعتنـــاق هذا الدين الحنيف في السنة السادسة من البعثة .[1]

و يروي لنا ابن إسحاق سبب إسلامه فيقول : حدثني رجل من أسلم كـــان واعية (أن أبا جهل مر برسول الله- صلي الله عليه و سلم – عند الصفا فـــآذاه و شتمه و نال منه بعض ما يكره من العيب لدينة و التضعيف لأمره فلم يكلمـــه رسول الله ، و مولاه لعبد الله بن جدعان بن كعب بن سعد بن تيم بن مـــرة في مسكن لها تسمع ذلك ، ثم انصرف عنه فعمد إلي نادي من قريش عند الكعبـــة فجلس معهم فلم يلبس حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه أن أقبل متوشـــحا قوسه راجعا من قنص له ، و كان صاحب قنص يرميه و يخرج له ، و كـــان إذا رجع من قنصه لم يصل إلي أهله حتي يطوف بالكعبة ، و كان إذا فعل ذلـــك ، لم يمر علي نادي من قريش إلا ووقف و سلم و تحدث معهم ، و كان أعز فـــتي في قريش ، و أشد شكيمة ، فلما مر بالمولاة و قد رجع رسول الله صلـــي الله عليه و سلم – إلي بيته قالت له : يا أبا عمارة لو رأيت مالقي ابن أخيك محمـــدا أنفا من أبي الحكم ابن هشام !! وجده هنا جالسا فآذاه و سبه و بلغ منـــه مـــا يكره ثم انصرف عنه ، و لم يكلمه محمد – صلي الله عليه و سلم – فـــاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامته فخرج يسعي ، و لم يقف علـــي حـــد معدا لأبي جهل – إذا لقيته – أن يوقع به فلما دخل المسجد نظرا إليه جالســـا في القوم فأقبل نحوه حتي إذا قام علي رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شـــجه منكرة ثم قال : أتشتمه ؟ فأنا علي دينه أقول ما يقول ، فرد علي ذلك علـــي إن

١- ابن العماد / شذرات الذهب / ج١ ص ١٠ ، ١١

استطعت فقامت رجال من بني مخزوم إلي حمزة لينصروا أبا جهل ، فقال أبو جهل : دعوا أبا عمارة : فإني و الله قد سببت ابن أخيه سبا قبيحا ، و تم حمزة – رضي الله عنه – علي إسلامه و علي ما تابع عليه رسول الله – صلي الله عليه و سلم – من قولة ، فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله صلي الله عليه و سلم – قد عز و امتنع ، و أن حمزة سيمنعه ، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه .[1]

و يبدو أن إسلام حمزة كان بدافع الحمية في أول أمره فيروى البيهقى أنه لما رجع لبيته أخذ الشيطان يوسوس له و يقول (أنت سيد قريش اتبعت هذا الصابئ و تركت دين آبائك ، الموت خير لك مما صنعت فأقبل حمزة علي نفسه ، و قال ما صنعت " اللهم إن كان رشدا فاجعل تصديقه في قلبي و إلا فاجعل لي مما وقعت فيه مخرجا " فبات بليله لم يبت بمثلها من و سوسة الشيطان حتى أصبح فغدا علي رسول الله صلي الله –عليه و سلم – فقال : يا ابن أخي قد وقعت في أمر و لا أعرف المخرج منه و إقامة مثلي علي مالا أدري ما هو أرشد أم هو غي شديد ، فحدثني حديثا ، فقد اشتهيت يا ابن أخي أن تحدثني ، فأقبل رسول الله ، فذكره ووعظه و خوفه و بشرة ، فألقي الله في قلبه الإيمان بما قال رسول الله – صلي الله عليه و سلم – فقال : أشهد أنك الصادق شهادة الصدق) .[2]

١- ابن هشام " سيرة النبي " ج١ ص ٣١٢ .
ابن سيد الناس " عيون الأثر " ج١ ص ١٠٤،١٠٥
الذهبي " السيرة النبوية " ص ١٠١ ، ١٠٢
٢-أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي " دلائل النبوية " ج٢ ص ٢١٣
ابن كثير " البداية و النهاية " ج٣ ص ٣٣
ابن عبد الوهاب " مختصر سيرة الرسول " ص ٨٥

و بهذا يكون إسلام حمزة قد صار قويا الأمر الذي زاد من فزع قريش و جعلها تفكر عشرات المرات قبل محاولة إيذائها للنبي محمد – صلي الله عليه و سلم- و قد قوي من فزعها هذا دخول عمر الإسلام .

<u>إسلام عمر :</u>

عرف عمر بن الخطاب بالشدة علي مخالفيه إلي حد أن الناس في مكة هابوا منازعته ، و كان من الذين تصدوا لانتشار الدعوة الإسلامية كما أسلفنا فهو الذي عذب بعض النسوة اللاتي أسلمن مثل لبيبة و غيرها .

علي أن هذه الشدة أخذت تنازعها مشاعر رقيقة ، بدأت تتسلل لقلب عمر ابن الخطاب الذي رأي أن صبر هؤلاء الناس علي العذاب يدعو إلي الإشفاق عليهم (و من ثم أخذ يرق لبعض المسلمين حينا و يشتد عليهم أحيانا و آية ذلك ما رواه عبد الرحمن بن الحارث عن عبد العزيز بن عبد الله بن عامر بن ربيعه عن أمه ليلي قالت : (كان عمر من أشد الناس علينا في إسلامنا ، فلما تهيأ للخروج إلي الحبشة جاءني عمر و أنا علي بعير نريد أن نتوجه فقال : إلي أين يا أم عبد الله ؟ فقلت : قد آذيتمونا في ديننا فسنذهب في أرض الله حيث لا نؤذي في عبادة الله ، فقال صحبكم الله ، ثم ذهب فجاء زوجي عامر بن ربيعه فأخبرته بما رأيت من رقة عمر بن الخطاب ، فقال : ترجين أن يسلم ؟ قلت : نعم ، قال : فو الله لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب يعني من شدته علي المسلمين) .[1]

و قد اختلفت الروايات في إسلام عمر اختلافا ليس بالكبير .

---

١ - البيهقي " دلائل النبوة " ج٢ ص ٢٢٢ الذهبي " السيرة النبوية ص ١٠٩
ابن حجر " الإصابة " ج٨ ص ١٠٢
الغزالي " فقه السيرة " ص ١٢٢
الخضري " نور اليقين في سيرة سيد المرسلين " ص ٥٤

و من ثم فإننا سنعرض لهذه الروايات بشكل إجمالي فقد وجدنا بعد استقرائنا لها أن العديد منها يقول بإسلام عمر بعد سماعة القرآن من النبي محمد- صلى الله عليه و سلم – و هو يصلي و البعض الآخر يقول : إن عمر أسلم بعد قراءته القرآن من صحيفة ببيت أخته ، فمن الأول ما رواه ابن اسحق عن أصحابه عطاء و مجاهد (إن إسلام عمر – فيما تحدثوا به عنه – أنه كان يقول : كنت للإسلام مباعدا و كنت صاحب خمر في الجاهلية أحبها و أشربها ، و كان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش بالحزوره عند دور آل عمران بن عبد عمران المخزومى ، قال : فخرجت ليله أريد جلسائي أولئك في مجلسهم ، ذلك ، قال : فجئتهم فلم أجد فيهم منهم أحدا قال : فقلت لو أني جئت فلانا الخمار ، و كان بمكة يبيع الخمر لعلي أجد خمرا فأشرب منها قال : فخرجت فجئت فلم أجده قال المسجد أريد أن أطوف بالكعبة فإذا رسول الله – صلى الله عليه و سلم – قائم يصلي ، و كان إذا صلي استقبل الشام و جعل الكعبة بينه و بين الشام ، و كان مصلاه بين الركنين : الركن الأسود و الركن اليماني ، قال : فقلت حين رأيته : و الله لو أني استمعت من محمد الليلة حتى أسمع ما يقول فقلت : لئن دنوت منه أستمع منه لأرد عنه فجئت من قبل الحجر ، فدخلت تحت ثيابها فجعلت أمشي ، رويدا ، و رسول الله- صلى الله عليه وسلم -قائم يصلي يقرأ القرآن حتى قمت في قبلته مستقبله ما بيني و بينه الأثياب الكعبة ، قال : فلما سمعت القرآن رق له قلبي فبكيت و دخلني الإسلام ، فلما أزل قائما في مكاني حتى قضي رسول الله صلاته ثم انصرفت و كان إذا انصرف خرج علي دار ابن أبي حسين ، و كانت طريقة حتى يجز ع المسعى ثم يسلك بين دار عباس بن عبد المطلب و بين دار بني أزهر عبد عوف الزهري ، ثم علي دار الأخنس بن شريق ، حتى يدخل بيته ، و كان مسكنه – صلى الله عليه و سلم – في الدار الرقطاء التي كانت بيدي معاوية بن أبي سفيان – قال

عمرو رضي الله عنه – فتتبعته حتى إذا دخل بين دار عباس و دار بـــن أزهـــر أدركته فلما سمع رسول الله حسي عرفني ، فظن رسول الله أني إنما أتبعه لاوذيـه فنهضني ، ثم قال : " وما جاء بك يا ابن الخطاب هذه الساعة " قال : قلـــت جئت لأومن بالله و برسوله و بما جاء من عند الله : قال : فحمد الله رســـول الله- صلي الله عليه و سلم – ثم قال : " قد هداك الله يـــا عمـــر " ثم مســـح صدري ، و دعا لي بالثبات ثم انصرفت عن رسول الله – صلي الله عليه و سلم – و دخل رسول الله بيته) .[١]

و من الثاني ما رواه أسامة بن زيد عن أبيه عن جده أسلم قال : قال لنا : عمـــر بن الخطاب (أتحبون أن أعلمكم كيف كان بدء الإسلام قلنا نعم قال كنت من أشد الناس علي رسول الله – صلي الله عليه و سلم – فبينما أنا في يوم حـــــار شديد بالهاجرة في بعض طرق مكة إذا لقيني رجل من بعض قريش فقال لي أيـــن تذهب يا أبا الخطاب أنت تزعم أنك هكذا و قد دخل عليك هــــذا الأمـــر في بيتك قال : قلت و ما ذاك. قال : أختك قد صبأت . قال : فرجعت مغضبـــا وقد كان رسول الله يجمع الرجلين إذا أسلم عند الرجل به فيكونـــان معـــه و يصيبان من طعامه قال : و قد ضم إلي زوج أختي رجلين قال : فجئت حـــتى قرعت الباب فقيل من هذا قلت : بن الخطاب قال : و كان القـــوم جلوســـا يقرأون صحيفة معهم ، فلما سمعوا صوتي تبادروا و اختفوا و تركـــوا أونسوا الصحيفة من أيديهم قال : فقامت المرأة ففتحت لي . قال : فقلت يـــا عـــدوة نفسها ، قد بلغني أنك قد صبأت . قال : فأرفع شيئا في يدي فأضربها به ، قـال

١- ابن هشام " سيرة النبي العربي " ج١ ص ٣٦٨
ابن سيد الناس " عيون الأثر " ج١ ص ١٢٥
الطهطاوي " نهاية الإيجاز " ج١ ص ٩٧.
هيكل " حياة محمد " ص ١٧٤

: فسال الدم فلما رأت المرأة الدم بكت ، ثم قالت : يا ابن الخطاب ما كنــت فاعلا فافعل فقد أسلمت ، قال : فدخلت و أنا مغضب ، قال فجلست علــي السرير فنظرت فإذا بكتاب في ناحية البيت فقلت ما هذا الكتاب أعطينــه .. فقالت : لا أعطيكه ، لست من أهله أنت لا تغتسل من الجنابة و لا تطــهر ، و هذا لا يسمه إلا المطهرون .. فقال : فلم أزل بها حتى أعطينه فإذا فيه (بســم الله الرحمن الرحيم) فلما مررن (بالرحمن الرحيم) ذعرت و رميت الصحيفــة من يدي قال ثم رجعت إلي نفسي فإذا فيها (ســبح لله مــا في الســموات و الأرض و هو العزيز الحكيم) قال فكلما مررت باسم من أسماء الله عز و جــل ذعرت ثم ترجع نفس إلي حتى بلغت (آمنوا بالله و رسوله و أنفقوا مما جعلكــم مستخلفين فيه) حتى بلغ إلي قولة (إن كنتم مؤمنين) قال : فقلت أشــهد أن لا إله إلا الله و أن محمد رسول الله ، فخرج القوم يتبادر ون بالتكبير استبشــارا بما سمعوا مني و حمدوا الله عز و جل و قالوا : يا ابن الخطاب أبشر فإن رســول الله دعا يوم الإثنين ، فقال : (اللهم أعز الإسلام بأحد الرجلين ، إما أبو جــهل بن هشام و إما عمر بن الخطاب ، و إنا نرجو أن تكون دعوة رســول الله – صلي الله عليه و سلم – لك فأبشر ، قال : فلما أن عرفوا مني الصدق ، قلــت لهم أخبروني بمكان رسول الله ، قالوا هو في بيت أسفل الصفا و صفوة ، قــال : فخرجت حتى قرعت الباب ، قيل من هذا قلت ، ابن الخطاب : قالوا و عرفــوا شدتي علي رسول الله صلي الله عليه و سلم – و لم يعلموا إسلامي ، فقــال : فما اجترأ أحد أن يفتح الباب ، قال : فقال رسول الله – صلي الله عليه و سلم – افتحوا له فإن يرد الله به خيرا يهده قال ففتحوا لي ، و أخذ رجلان بعضــدي حتى دنوت من النبي محمد – صلي الله عليه و سلم – فقال : أرسلوه ، قــال فأرسلوني فجلست بين يديه قال : فأخذ بمجمع قميصي فجذبني إليــه ثم قــال

أسلم يا ابن الخطاب ، اللهم أهده ، قال : قلت أشهد أن لا إله إلا الله ، و أنك رسول الله ، قال فكبر المسلمون تكبيرة سمعت بطرق مكة) [١]

و علي أية حال فإن الروايات قد أجمعت أن عمر عندما خرج لم يكن يريـــد الإسلام ، و أن الله لما هداه إليه زاد المسلمين به عزه و منعه .

و قد اختلفت الروايات كذلك حول الطريقة التي أعلن بها عمر إسلامه علــــي قومه ، فذكر نافع عن بن عمر قال : لما أسلم عمر قــال (أي قريــش أنقــل للحديث قيل جميل بن معمر الجمعي [٢] فغذا عليه قال بن عمر و غـــدوت أتبـــع أثرة و أنا غلام أعقل حتى جاءه فقال أعلمت أني أسلمت ؟ فو الله ما راجعــــه حتى قام يجرد رداؤه حتى قام علي باب المسجد صرخ بأعلى صوته يا معشـــــر قريش ألا أن الخطاب قد صبأ قال : يقول عمر من خلفـــه كـــذب و لكـــني أسلمت و ساروا إليه فما برح يقاتلهم و يقاتلونه حتى قامت الشـــمس علـــى رؤوسهم قال و طلع و قعدوا و قد قاموا علي رأسه و هو يقول : أفعلوا ما بـــدا لكم فأحلف بالله أن لو كنا ثلاثمائة رجل لقد تركنا هالكم و تركتموهـــا لنـــا فبينما هو علي ذلك إذا أقبل شيخ عليه حله حبره ، و قميص موشـــر ، حـــتى وقف عليهم فقال : ما شأنكم قالوا : صبأ عمر قال فمه رجل اختار لنفسه أمرا فماذا تريدون ، أترون بني كعب بن عدي يسلمونه خلو عنه ، قال : فـــو الله لكأنما ثوبا كشط عنه فقلت لأبي بعد أن هاجر : يا ابه من الرجل الذي زجـــر

١- البيهقي / دلائل النبوة / ج٢ ص ٢١٦:٢١٩ ،، ابن سيد الناس / عيون الأثر / ج١ ص ١٢٢ ،١٢٣ ،، الذهبي / السيرة النبوية / ص ١٠٨ ،، ابن عبد الوهاب / مختصر سيرة الرسول / ص ٨٧،٨٦

٢-عرف بذي القلبين ، أسلم يوم الفتح و شهد مع الرسول غزوة حنين ، لم نقف علي تاريخ لوفاته (ابن الأثير / أسد الغابة / ج١ ص ٢٩٦،٢٩٥) .

عنه فقلت لأبي بعد أن هاجر : يا ابه من الرجل الذي زجر القوم عنك ؟ قال : العاص بن وائل و أخرجه ابن حبان)[١] .

و قد روي عن أسامة بن زيد ما يخالف ذلك في بعض التفاصيل فقال : قال عمر بن الخطاب : (كان الرجل إذا أسلم استخفي ثم خرجت فكنت لا أشاء أن أرى رجلا إذا أسلم ضرب إلا رأيته قال : فلما رأيت ، ذلك قلت لا أحب أن يصيبني ما يصيب المسلمين ، قال: فذهبت إلي خالي و كان شريفا فيهم فقرعت الباب عليه فقال من هذا ؟ قلت : ابن الخطاب قال : فخرج إلي فقلت أشعرت أني قد صبوت ؟ قال : نعم ، فقلت : نعم قال ، قلت بلي ، قد فعلت ، قال : لا تفعل فأجاف الباب دوني و تركني ، قال : فقلت ما هذا بشيْ قال فخرجت حتى جئت رجلا من عظماء قريش فقرعت عليه الباب ، قال : من هذا ؟ قلت : عمر بن الخطاب ، قال : فخرج إلي فقلت له : هل شعرت أني قد صبوت ؟ فقال : أو فعلت ، قلت : قد فعلت ، قال لا تفعل ثم دخل فأجاف الباب دوني ، قال فلما رأيت ذلك انصرفت فقال لي رجل تحب أن يعلم إسلامك قال : قلت : نعم ، قال : فإذا جلس الناس في الحجر و اجتمعوا أتيت فلانا لرجل لم يكن يكتم السر فاصنع إليه فقل له فيما بينك و بينه أني قد صبوت ، فإنه سوف يظهر عليك ذلك ويصبح و يعلنه ، قال : فلما اجتمع الناس في الحجر جئت إلي الرجل فدنوت منه فأصغيت إليه فيما بين و بينه فقلت أعلمت أني قد صبوت ؟ قال : فقال : أصبوب ! قلت : نعم قال : فرفع صوته بأعلاه ، قال : ألا إن ابن الخطاب قد صبأ ، قال فما زال الناس يضربونني و ضربتهم ، قال : فقال خالي ما هذا : فقيل ابن الخطاب ، قال : فقال علي في الحجر فأشار بكم فقال ألا إني قد أجرت ابن أختي : فانكشف

١- البيهقي / دلائل النبوة / ج٢ / ص ٢٢١،، الذهبي / السيرة النبوية ص ١٠٤،١٠٥،، النووي / نهاية الأرب / ج١٦ ص ٢٥٦، ٢٥٧،، العدوى / الرسول بشيرا و نذيرا / ج١ / ص ١٨٢ ، ١٨٣

الناس عني ، قال / وكنت لا أشاء أن أري أحدا من المسلمين يضرب إلا رأيتـه و أنا لا أضرب ، قال : فقلت ما هذا شئ حتى يصيبني مثل ما يصيب المسـلمين ، قال فأمهلت حتى إذا جلس الناس في الحجر وصلت إلي خالي فقلت : اسمـع. فقال : ما أسمع . قال قلت : جوارك عليك رد ، قال : فقال لا تفعل يا ابـن أختي ، قال : قلت بلي هو ذاك ، فقال ما شئت قال فمازلت أضرب و أضـرب حتى أعز الله الإسلام).[١]

و نحن لا نري تعارضا بين الروايتين المذكورتين ، فلا مانع أن يكون عمر بن الخطاب قد قرع الأبواب ، ثم لما لم يجد من أصحابها سبيلا إلي إعلان إسـلامه علي القوم ذهب إلي هذا الذي عرف بين القرشين بنقلة للأخبار و أبلغه إسلامه فكان ما كان من أمر القوم مع عمر .

فريه الغرانيق :

ذكر غير واحد من المؤرخين القدامى و المفسرين أمر هذه الفريه المزعومـة علي الرغم من عدم تصديقهم لها حتى يبرزوا الأدلة التي تنفي حدوثها ، ذلـك أن الزنادقة روجوا لهذه الفرية من أجل الطعـن في الإسـلام ، و مـا يـزال المستشرقين في عصرنا هذا يحاولون ابتداع الأدلة و تأويل الألفاظ من أجل جعل ضعاف الإيمان يشكون في صدق رسالة النبي محمد- صلي الله عليه و سلم - .

و من ثم فإننا حين نعرض لهذه الفرية لا نريد إلا الاسهام في دحض هذه التهمـة المنسوبة إلي النبي محمد ، و لسوف نعرض أولا لروايـة القصـة المزعومـة في

١- ابن سيد الناس / عيون الأثر / ج١ ص ١٢٣ ، ١٢٤

المصادر القديمة ثم نتبع ذلك بردود علماء التفسير مزيلين هذا بردود المؤرخـــين المحدثين علي القصة و أدلة المستشرقين .

روي محمد بن كعب القرظى و موسى بن عقبه كلاهما :

(لما رأى رسول الله – صلي الله عليه و سلم – تخلي قومة عنه وشق عليه مـــا يري من مباعدتهم ما جاءهم به من الله تمني في نفسه أن يأتيه من الله ما يقـــارب بينه و بين قومه ....فأنزل الله عز و جل (و النجم إذا هوى ، مـــا ضل صاحبكم و ما غوى ، و ما ينطق عن الهوى) فلما انتـــهي إلي قومـــه إلي قولة (افرأيتم اللات و العزى ، و مناة الثالثة الأخرى) ألقي الشـــيطان علـــي لسانة لما كان يحدث به نفسه ، و يتمني أن يأتي به قومه (تلك الغرانيق العـــلا و إن شفاعتهن لترتجي) فلما سمعت ذلك قريش فرحوا و سرهم و أعجبهم مـــا ذكر به آلهتهم فأصاخوا له و المؤمنون مصدقون نبيهم فيما جاءهم به من ربهـــم ، و لا يتهمونه علي خطأ و لا هم و لا زلل – فلما انتهي إلي السجدة منـــها و ختم السورة سجد فيها فسجد المسلمون بسجود نبيهم...... و سجد مـــن في المسجد من المشركين من قريش و غيرهم لما سمعوا من ذكر آلهتهم فلم يبقـــي في المسجد مؤمن و لا كافر إلا سجد إلا الوليد بن المغيرة فإنه كان شيخا كبـــيرا فلم يستطع السجود ، فأخذ بيده حفنه من البطحاء فسجد عليها ثم تفرق الناس من المسجد ، و خرجت قريش و قد سرهم ما سمعوا من ذكر آلهتهم يقولون : قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر ، قد زعم فيما يتلو (أنها الغراقيق العلا و أن شفاعتهن لترتجي) ، و بلغت السجدة من بأرض الحبشة من أصحاب رســـول الله- صلي الله عليه و سلم – و قيل قد أسلمت قريش ، فنهض منهم رجـــال و تخلف آخرون ، و أتي جبريل رسول الله صلي الله عليه و سلم – فقال يا محمـــد ماذا صنعت ، لقد تلوت علي الناس ما لم آتك به عن الله – عـــز و جـــل – وقلت ما لم يقل لك ! فحزن رسول الله -صلي الله عليه و سلم – عند ذلـــك

حزنا شديدا . و خاف من الله خوفا كثيرا ... فأنزل الله عز و جـــل (و مـــا أرسلنا من قبلك من رسول و لا نبي إلا إذا تمنى ألقي الشيطان في أمنيته فينســـخ الله ما يلقي ثم يحكم الله آياته و الله عليم حكيم) فأذهب الله عز و جل عـــن نبيه الحزن و آمنة من الذي كان يخاف ما ألقي الشيطان علي لسانه من ذكـــر آلهتهم (إنها الغرانيق العلا و إن شفاعتهن لترتجي) يقول عز و جل حين ذكـــر اللات و العزى و مناه الثالثة الأخرى (ألكم الذكر و له الأنثي تلك إذا قســـمه ضيزي) أي عرجاء) (إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم و آبـــائكم) إلي قولـــه (لمن شاء و يرضي) أي فكيف تنفع شفاعته آلهتكم عنده فلما جاء من الله مـــا نسخ ما كان الشيطان ألقى علي لسان نبيه قالت : قريش ندم محمد علي مـــا ذكر من منـــزلة آلهتكم عند الله فغير ذلك و جاء بغيره ، و كان ذلك الحرفـــان اللذان ألقي الشيطان علي لسان رسول الله صلي الله عليه و سلم – قد وقعـــا في فم كل مشرك فازداد شرا إلي ما كانوا عليه و شدة علي من أســـــلم و أتبـــع رسول الله –صلي الله عليه و سلم – منهم .) .[1]

تلك كانت رواية فريه الغرانيق في المصادر القديمة ، و قـــد انـــبري الإمـــام النسفى لمناقشتها فقال : إنها باطلة من عدة وجوه :

أولهـــا : (إما أن يجري ذلك علي لسانه عمدا باختياره ، و هو لا يجوز ؛ لأنـــه كفر و هو صلي الله عليه و سلم – جاء داعيا إلي الإيمان ، ناهيا عن الكفـــر : طاعنا في الأصنام ، فكيف يمدحها و يعظمها باختياره ؟!!

ثانيـــها : و إما أن يجري الشيطان ذلك علي لسانه – صلي الله عليه و ســـلم – جبرا بحيث لم يقدر علي الامتناع عنه ، و هذا أيضا لا يجوز ، لأن الشـــيطان لا

١- ابن سعد / الطبقات الكبرى / ج١ ص ٢٠٦،، الطبري / تاريخ الأمم و الملوك ج٢ ص ٣٣٧، ٣٣٨ ،، ابن سيد الناس / عيون الأثر / ج١ ص ١٢٠ الذهبي / السيرة النبوية / ص ١١٢ ،، ابن عبد الوهاب / مختصر سيرة الرسول / ص ٧٧،٧٨

يقدر علي ذلك في حق غيره – صلي الله عليه و سلم – لقولة تبارك و تعالي (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان) و قولة تعالي حكاية عنه : (و ما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فكيف يقدر علي ذلك في حقه – صلي الله عليه و سلم .

ثالثا : و إما أن يقع علي لسانه – صلي الله عليه و سلم – سهوا أو نقلة من غير قصد ، و هو أيضا مردود ؛ لأنه – صلي الله عليه و سلم – كان أعقل الخلق و أعلمهم فكيف تجوز عليه هذه الغفلة ، خصوصا في حالة تبليغ الوحي ، و لو جاز ذلك لبطل الاعتماد علي قولة و الثقة به لقيام احتمال الغلط و الخطأ في كل واحد من الأحكام و الشرائع ، فلما بطلت هذه الوجوه كلها لم يبق إلا احتمال واحد ، و هو أنه – عليه الصلاة و السلام- وقف و سكت عند قوله و مناة الثالثة الأخرى و الشيطان حاضر عنده فتكلم الشيطان بهذه الكلمات متصلا بقراءته – صلي الله عليه و سلم [1])

و ذكر القاضي عياض أن قريه الغرانيق باطلة من وجوه عدة نذكر منها علي سبيل المثال أن الرواة الذين نقلوها إلينا اختلفوا فيما بينهم حول كيفية حدوثها (فمنهم من يقول إن الرسول كان يصلي و هو يقرأ سورة النجم فألقي الشيطان ذلك علي لسانة فسجد و سجد معه المشركون ، و منهم من يقول إن الرسول قرأ سورة النجم في نادي لقريش ، و ثالث يذكر أن الرسول أخذته سنة من النوم فألقي الشيطان ذلك علي لسانه فقرأه ، ليس هذا فحسب بل إن الأحاديث التي ذكرت القصة ضعيفة لم يصح منها إلا الحديث المروى في البخاري ، و الذي فيه أن الرسول قرأ سورة النجم فسجد و سجد معه المشركون دون ذكر لهذا القول المزعوم (تلك الغرانيق العلا) .

١- النسفي / تفسير سورة الحج / ص

الطهطاوي / نهاية الإيجاز / ج١ ص ١٠٤

أما اعتماد القائلين بحدوث هذه الفرية علي قولة تعالي : (و إن كـــادوا ليفتنونك) فهو غير صحيح لأن الله تعالي ذكر أهم كادوا يفتنونه حتى يفتري و أنه لولا أن ثبته لكاد يركن إليهم ، و مفهومة أن الله عصمه من أن يفتري وثبتـه حتى لم يركن إليهم قليلا فكيف كثيرا !

و هم يرون في أخبارهم الواهية أنه زاد علي الركون و الافتراء بمدح آلهتهم ، و أنه قال – عليه السلام – و افتريت علي الله و قلت مالم يقل " و هذا ضـــد مفهوم الآية ، و هي تضعف الحديث لو صح فكيف و لا صحة لـــه ، و روى عن ابن عباس رضي الله عنهما –أنه قال : كاما في القرآن كاد فهو ٠الا يكـون ، قال الله تعالي (يكاد سنا برقة يذهب بالأبصار) و لم يذهب .

و أشار القاضي عياض أنه لو افترضنا جدلا صحة الحديث الذي نقل إلينـــا هذه القصة فإنه يحمل علي أن النبي ربما قال تلك العبارة المزعومـــة و هـــو في الصلاة علي تقدير التقرير و التوبيخ للكفار لقول إبراهيم – عليه السلام (هذا ربي) علي أحد التأويلات يريد : أهذا ربي ، و لقولة (بل فعله كبيرهم هـــذا) بعد السكت ، و بيان الفصل بين الكلامين ، ثم رجع إلي تلاوته ، و هذا ممكـــن مع بيان الفصل ، و قرينه تدل علي المراد ، و أنه ليس من المتقي ، و لا يعـترض علي هذا بما روى أنه كان في الصلاة ، فقد كان الكلام فيها قبل غير ممنوع .

و هناك احتمال ثان يحمل عليه هذا الحديث في حاله صحته ، و هو أن المـراد من قوله (تلك الغرانيق العلا و إن شفاعتهم لترتجي) الملائكة كما يقول الكلبي ، و إن الكفار كانوا يعتقدون الملائكة بنات الله ، كما حكي الله عنـــهم ورد عليهم في هذه السورة بقولة : (ألكم الذكر و له الأنثى) فأنكر الله كل هـــذا من قولهم " و رجاء الشفاعة من الملائكة صحيح ، فلما تأوله المشركون علـــي أن المراد بهذا الذكر آلهتهم ، و لبس عليهم الشيطان و أحكم آياته و رفع تـلاوة

و هناك احتمال ثان يحمل عليه هذا الحديث في حاله صحته ، و هو أن المـراد من قوله (تلك الغرانيق العلا و إن شفاعتهم لترتجي) الملائكة كما يقول الكلبي ، و إن الكفار كانوا يعتقدون الملائكة بنات الله ، كما حكي الله عنـــهم ورد عليهم في هذه السورة بقولة : (ألكم الذكر و له الأنثى) فأنكر الله كل هـــذا من قولهم " و رجاء الشفاعة من الملائكة صحيح ، فلما تأوله المشركون علـــي أن المراد بهذا الذكر آلهتهم ، و لبس عليهم الشيطان و أحكم آياته و رفع تـلاوة تلك اللفظتين اللتين وجد الشيطان بهما للتلبيس سبيلا ، كما نسخ كثيرا مـــن القرآن و رفعت تلاوته) [١].

أما موقف ابن حجر فنراه بعد استقرائه للطرق العديدة التي نقلت إلينا فريـــه الغرانيق يقول (إن هذه الطرق منها ما هو ضعيف ، و منها ما هو منقطـــع ، باستثناء طريق سعيد بن جبير ، بيد أن تعددها يدل علي أن لها أصلا مما يحـــول بين المرء و بين إنكارها بالكلية ، و أية ذلك أن ثلاثة من الطرق التي نقلت إلينـا القصة أسانيدها علي شرط الصحيح ، و هي مراسيل يحتج بمثلها مــــن يحتـــج بالمرسل ، و كذا من لا يحتج به لاعتضاد بعضها ببعض ، و إذا تقرر ذلك تعـين تأويل ما وقع فيها مما يستنكر و هو قوله (ألقي الشيطان علي لســـانه تلـــك الغرانيق العلي . الخ.

فإن ذلك لا يجوز حملة علي ظاهرة لأنه يستحيل علية أن يزيد في القرآن ما ليس منه ، سواء كان ذلك عمدا أو سهوا لمكان عصمته) .[٢]

و ذكر أ. د / محمد عبد الطيب النجار ما يفيد نفي هذه الفريـــــة الـــتي نسبها الملحدون للنبي محمد —صلي الله عليه و سلم—فقال : (حسبنا في إبطـال

١- النويري / نهاية الأرب / ج ١٦ / ص ٢٣٥ : ٢٤٠

٢- فتح الباري ج٨ ص ٤٣٩ كتاب التفسير – سورة الحج

هذه القصة أن تقرأ الأيات القرآنية في سورة النجم لنري أها أبلغ رد ما تـــدل عليه الجملتان الموضوعتان و ذلك حيث يقول سبحانه (أفر أيتـــم الـــلات و العزى و مناه الثالثة الأخرى ألكم الذكر و له الأنثى تلك إذا قسمة ضـــيزى إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم و آبائكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعـــون إلا الظن و ما تهوى الأنفس و لقد جاءهم من رهم الهدي) فكيف يعق أن تحشـــر في هذه الآيات و قد وضحت دلالتها علي حقارة الأصنام وسفه من يقدســـوها جملتان ترافعان من شأن هذه الأصنام و تجعلان لها شفاعة مرجـــوة ؟ و كيـــف يمكن أن يسجد المشركون بعد أن يسمعوا هذه الآيات و فيها طعن صريح علي آلهتهم حيث يقول الله عنها " إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم و آباؤكم ما أنـــزل الله بها من سلطان و أما إن محمدا صلي الله عليه و سلم قد قبل قول المشـــركون إنهم معه ما دام قد جعل لآلهتهم نصيبا من الشفاعة فهذا كلام لا يتفـــق مـــع جوهر الدعوة الإسلامية ....و أما أن الرسول قد أوحي إليه بعد ذلـــك بتلك الآيات الكريمة و هي قوله تعالي " و إن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينـــا إليك لتفتري علينا غيره .... الخ

فلا شك أن هذه الآيات لا تؤيد مثل هذا الإدعاء و لا تفيد وقوع مثـــل هـــذا الافتراء لأن الله يقول " و لولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا "

و ما دام الله قد ثبته علي الحق فقد حال بينه و بين الافتراء علي الله و الركـــون إلي أعداء الحق و أماما ساقه هؤلاء الكاذبون الذين وضعوا هذه القصـــة مـــن الاستشهاد عل وقوعها بقول الله تعالي " و ما أرسلنا من قبلك من رســـول و لا نبي إلا إذا أتمني ألقي الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكـــم الله آياته و الله عليم حكيم " و تفسيرهم التمني بالقراءة و تعزيزهم لهـــذا للتفســـير ببيت من الشعر يحكي قصة عثمان بن عفان رضي الله عنه ليله مقتله فيقول :

تمني كتاب الله أول ليله *** و آخرها لاقي حمام المقادر

فهذه الآية الكريمة لا ينبغي أن يفسر التمني فيها بالقراءة لأن هذا التفسير بعيد كل البعد عن المقصود و ليس في الأساليب العربية وجود لها إلا في هذا البيت وحده و في ذلك دليل واضح علي أن هذا البيت قد وضع لهذا الغرض خاصة ، هذا و لو أننا فسرنا التمني بمعني القراء فإن معني ذلك أن يلقي الشيطان في قراءة كل نبي كلاما ليفتن به الناس ثم ينسخه الله بعد ذلك و هذا ما لم يقع للأنبياء من قبل كما عرفنا من تاريخهم و ذلك فضلا عن أن كثيرا من الأنبياء لن تتنزل عليهم كتب حتي يغير الشيطان فيها ثم ينسخ الله بعد ذلك ما يفعله الشيطان علي أن سمه الله في رسله و أنبيائه أن يولف حولهم القلوب في مبدأ دعوالهم بإجراء المعجزات و الخوارق علي أيديهم بدلا أن يمكن الشيطان من إلقاء الفتنه و إشعالها بين أتباعهم بنسخ ما ينزل عليهم فينفر الناس منهم و يضعف الثقة بهم و الآية حينئذ تفسر علي النحو الواضح المألوف في لغه العرب و يكون المعني و ما أرسلنا من قبلك من رسول و لا نبي إلا إذا تمني هدايه قومه ألقي الشيطان في أمنيته أي وضع الشيطان في طريق تحقيق أمنية العقبات و العراقيل فينسخ الله ما يلقي أي فيذهب الله ما وضعة الشيطان من تلك العقبات ثم يحكم الله آياته أي يظهر الحق و يثبت أسسه و دعائمه و الله عليم حكيم) [١]

و أما الشيخ الغزالي فنراه يعد فريه الغرانيق ضمن الخرافات الشائعة التي دست علي المصادر القديمة للتاريخ و التفسير دون تحكيم العقل في حقيقتها قبل وضعها في هذه المصادر .و من ثم لم يقبل الأخذ بها اعتمادا علي ما رواه البخاري من أن (الرسول عليه الصلاة و السلام قرأ سورة النجم في محفل يضم مسلمين و مشركين و خواتيم هذه السورة قوارع تطير لها القلوب فلما أخذ صوت الرسول صلي الله عليه و سلم يصدر بها و يرعد بنذرها حتي وصل إلي

١- السيرة النبوية / ص ٧٤ : ٧٦

قول الله تعالي " و المؤتكفه أهوى فغشاها ما غشي فبأي آلاء ربك تتمارى هـذا نذير من النذر الأولي ازفت الآزفه ليس لها من دون الله كاشـفة أفمـن هـذا الحديث تعجبون ؟ و تضحكون و لا تبكون ؟ و أنتم سامدون ، كانت روعـة الحق قد صدعت العناد في نفوس المستكبرين و المستهزئين فما تمـالكوا إلا أن يخروا لله ساجدين مع غيرهم من المسلمين فلما نكسوا علي رؤوسهم و أحسـوا أن جلال الإيمان لوى زمامهم ندموا علي ما كان منهم و أحبوا أن يعتذروا عنـه بأنهم ما سجدوا مع محمد صلي الله عليه و سلم عطف علي أصنامهم بكلمـة تقدير (كذا) و ليس يستغرب هذا من قوم كانوا يؤلفون النكـت للضحـك علي المسلمين) .[١]

أما المستشرقون فقد حاولوا ما وسعهم إثبات صحة هذه الفرية و من هـؤلاء ، (السير وليم موير) الذي قال إن المسلمين الذين هاجروا إلي الحبشة لم يـك قد مضي علي هجرتهم إليها غير ثلاثة أشهر أجـارهم النجاشـي أثناءهـا ، وأحسن جوارهم فلم يكن قد ترامى إليهم خبر الصلح بين محمد وقريـش لـما دفعهم دافع إلى العودة حرصا على الاتصال بأهلهم وأن يكون صلح بين محمـد وقريش إذا لم يسع محمدا إليه وقد كان في مكه أقل نفرا وأضعف قوة وقد كـان أصحابه أعجز من أن يمنعوا أنفسهم من أذى قريش دون تعذيبهم إياهم ! [٢]

ونحن نرى بطلان هذه الفرية المزعومة لما أسلفناه من أدلة للمؤرخين القدامـى والمحدثين على أساس أن هذه القمة تتنافى مع عصمة الله للنبي محمـد وتعـدد الروايات التي نقلت إلينا الجملة المقمحة في سورة " النجم " يدل بلا مراء علـى اختلاف الرواة لها .

١- فقه السيرة / ص ١١٧ ، ١١٨

٢- هيكل " حياة محمد " ص ١٧٦

وأما الأدلة التي أوردها " وليم موير " فإنها غير صحيحة إذ لا مانع من أن يكون السبب الذي أعاد المسلمين الذي أعاد المسلمين من الحبشة في المرة الأولى هو ما علموه من إسلام حمزة وعمر ، وهما من هما في القوة والمنعة فقد شجعهم ذلك على العودة إلى مكة ثم أتساءل لما لم يأخذ وليم موير بالقول الذي يقول إن النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – لم يقل في سورة " النجم " وتلك الغرانيق العلى " وأن القوم قد بُهروا بما سمعوه من القرآن فجعلهم ذلك يسجدون مع النبي والمسلمين دون شعور وأنهم لما أفاقوا راحوا يقبلون حقائق صدق كتاب الله ويزعمون زورا وبهتانا أنهم ما سجدوا مع النبي محمد إلا بعد ما قال في سورة وتلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى " فتجاهل وليم موير وأمثاله فهذا الرأي يدل بلا ريب على وجود تعصب بغيض للإسلام والمسلمين .

و مهما يكن من أمر فإن المسلمين الذين جاءوا من الحبشة إلى مكة ما لبثوا أن عادوا من حيث جاءوا بعدما تبين لهم استمرار إيذاء المشركين فكانت الهجرة الثانية للحبشة .

الهجرة الثانية إلى الحبشة :

هاجر المسلمون للمرة الثانية لبلاد الحبشة سنة خمسة من البعثة النبوية [١]، فرارا من إيذاء القوم لهم و قد جعل النجاح الذي حققته الجماعة الأولي في هذه البلاد أعداد المسلمين تكثر في الهجرة الثانية عنها في الأولي حيث هاجر في المرة الأخيرة من الرجال ثلاثة و ثمانين رجلا و من النساء إحدى عشرة امرأة قرشيه و سبع غرائب " [٢]

١- البيهقي / دلائل النبوة / ج٢ ص ٢٩٧

٢- ابن سعد / الطبقات الكبرى / ج١ ص ٢٠٧ ،، ابن عبد البر / الدرر / ص ٥٨ ابن القيم الجوزي / زاد الميعاد / ج٢ ص ٤٥ ،، الطهطاوي / نهاية الإيجاز / ج١ ص ١٣

لم يرق لقريش رؤية هذا العدد الكبير من المسلمين يغادر مكة إلي الحبشة مهاجرا فأرسلت إلي نجاشي الحبشة رسولين هما عمرو بن العاص ، و عمارة بن الوليد ، و قيل إن الذي رافق عمرو عبد الله بن أبي ربيعه وزودهما قريش بالهدايا للنجاشي و بطارقته .[١]

و قد اختلفت الروايات فيما بينهما حول الحوار الذي دار بين المسلمين والنجاشي بعد رفع عمرو بن العاص أمرهم إلي الملك فروايات تذكر أن المسلمين لم يقرءوا النجاشي سورة من القرآن عند لقائهم به أول مرة و أخرى تذكر قراءتهم لسورة " مريم " و سوف نجترىء هنا بايراد رواية تمثل كل مجموعة من هذه الروايات علي حده .

فمن الأول ما رواه موسى بن عقبه أن المسلمين (لما دخلوا علي النجاشي و لم يسجدوا له فقال : أيها الرهط ألا تحدثوني ما لكم لا تحيوني كما يحييني من أتانا من قومكم ؟ فأخبروني ماذا تقولون في عيسى و ما دينكم ؟ أنصاري أنتم قالوا : لا .. قال : أفيهود أنتم ؟ .. قالوا إلا قال فعلي دين قومكم ؟ .. قالوا لا .. قال : فما دينكم ؟ .. قالوا : الإسلام .. قال : و ما الإسلام .. قالوا : نعبد الله و لا نشرك به شيئا .. قال : من جاءكم بهذا ؟ .. قالوا جاءنا به رجل من أنفسنا قد عرفنا وجهه و نسبه بعثته الله إلينا كما بعث الرسل إلي من قبلنا فأمرنا بالبر و الصدقة و الوفاء و أداء الأمانة و نهانا أن نعبد الأوثان و أمرنا بعبادة الله وحده لا شريك له فصدقناه و عرفنا كلام الله و علمنا أن الذي جاء به من عند الله فلما فعلنا ذلك عادانا قومنا و عادوا النبي الصادق و كذبوه وأرادوا قتله و ما أرادونا علي عبادة الأوثان ففررنا إليك بديننا و دمائنا من قومنا قال : و الله إن هذا لمن المشكاة التي خرج منها أمر موسى .. قال جعفر

١- ابن هشام / سيرة النبي / ج١ ص ٣٥٧.، ابن قيم الجوزيه / زاد الميعاد / ج٢ ص ٤٥.

و أما التحية فإن الرسول صلى الله عليه و سلم – أخبرنا أن تحيه أهل الجنة السلام أمرنا بذلك فحييناك بالذي يحيى به بعضنا بعضا و أما عيسى بن مريم فعبد الله و رسوله و كلمته ألقاها إلي مريم و روح منه و ابن العذراء البتول فأخذ عودا و قال و الله ما زاد ابن مريم على هذا وزن هذا العود فقال : عظماء الحبشة و الله لئن سمعت الحبشة لتخلعنك .... فقال : و الله لا أقول في عيسى غير هذا أبدا و ما أطاع الله الناس في حين رد علي ملكي فأطمع الناس في دين الله معاذ من ذلك) [1]

و من الثاني ما ذكرته بعض المصادر أن النجاشي أرسل في طلب المسلمين بعد الذي سمعه من عمرو بن العاص فلما حضروا (صاح جعفر بن أبي طالب بالباب يستأذن عليك حزب الله فقال النجاشي : مروا هذا الصائح فليعد كلامه للفعل .. فقال : نعم فليدخلوا بأمان و ذمة فدخلوا و لم يسجدوا له فقال لهم : ما منعكم أن تسجدوا لي ؟ قالوا : نسجد لله الذي خلقك و ملكك و إنما كانت تلك التحية لنا و نحن نعبد الأوثان فبعث الله فينا نبيا صادقا و أمرنا بالتحية التي رضيها و هي السلام تحيه أهل الجنة فعرف النجاشي أن ذلك حق و أنه في التوراة و الإنجيل .. فقال : أيكم الهاتف يستأذن ؟ قال جعفر أنا ، قال : فتكلم .. قال : إنك ملك لا يصلح عندك كثرة الكلام و لا الظلم و أنا أحب أن أجيب عن أصحابي ، فمر هذين الرجلين فليتكلم أحدهما فتسمع كلامنا ، فقال عمرو بن العاص لجعفر تكلم : فقال جعفر للنجاشي سله أعبيد نحن أم أحرار ؟ فإن كنا عبيدا فقد أبقنا من موالينا فارددنا إليهم .. فقال عمرو بل أحرار كرام .. فقال : هل أرقنا دما بغير حق فيقتص منا ؟ قال لا و لا قطرة ،

١- ابن كثير " البداية و النهاية " ج٣ ص ٧٢
الذهبي " السيرة النبوية " ص ١١٤، ١١٥

٢- النويري " نهاية الأرب " ج١٦ ص ٢٤٨، ٢٤٩ ابن عبد الوهاب " مختصر سيرة الرسول " ص ١٢

قال : فهل أخذنا أموال الناس بغير حق فعلينا قضاؤها قال عمـــر و لا قـــيراط وقال النجاشي : فما تطلبون منهم ؟ قال كنا و هم علي دين واحـــــد آبائنـــا فتركوا ذلك و اتبعوا غيره فقال النجاشي لجعفر ما هذا الذي كنتم عليه و الذي اتبعوه ؟ و اصدقني .. فقال جعفر : أما الذي كنا عليه فتركنـــاه فـــهو ديـــن الشيطان كنا نكفر بالله و نعبد الحجارة و أما الذي تحولنا إليه فـــهو ديـــن الله والإسلام جاءنا به من الله و رسوله و كتاب بن مريم موافقا له . فقال النجاشي : تكلمت بأمر عظيم فعلي رسلك ثم أمر بضرب الناقوس فاجتمع إليـــه كـــل قسيس و راهب .. فقال أنشدكم الله الذي أنزل الإنجيل علي عيسي هل تجدون بين عيسي و بين القيمة نبيا مرسلا ؟ قالوا : اللهم نعم قد بشرنا به عيسي وقال من آمن له فقد آمن بي و من كفر به كفر بي ؟ فقال النجاشي لجعفر : مـــاذا يقول لكم هذا الرجل ؟ و ماذا يأمركم و ماذا ينهاكم عنه ؟ قال يقرأ عليكـــم كتاب الله ويأمرنا بالمعروف و ينهانا عن المنكر و يأمر بحسن الجوار و صلـــه الرحم و بر اليتيم و يأمرنا أن نعبد الله وحده لا شريك له ... فقال : اقرأ مـــا يقرأ عليكم فقرأ عليه سورة العنكبوت و الروم ففاضت عيني النجاشي و أصحابه من الدمع فقال زدنا من هذا الحديث الطيب فقرأ عليهم سورة الكهف فـــأراد عمرو أن يغضب النجاشي ... فقال إنهم يسبون عيسي و أمه فقـــرأ عليـــهم سورة مريم فلما أتي علي ذكر عيسي و أمة رفع النجاشي نفاثة من سواكه قـــدر ما يفتري العين .. فقال : و الله ما داذ المسيح علي ما يقول هؤلاء نقلة .

قال ابن اسحق : فلما قال ذلك تنافرت بطارقة فقـــال و إن نخـــرتم و الله اذهبوا فأنتم سيوم بأرض و السيوم الأمثل من سبكم غرم فلا هوادة اليوم علـــي حزب إبراهيم ما أحب أن دبرا من ذهب و أنا آذيت رجلا منكـــم و الدبـــر بلسان الحبشة الجبل ردوا عليهما هدايا هما فلا حاجة لي فيها فو الله ما أخذ الله

مني الرشوة حين رد علي ملكي فأخذ الرشوة فيه و ما أطاع الناس في فأطيعهم فيه)[١]

و تكاد النفس تميل إلي الأخذ بالرواية الثانية دون الأولي لأن عمرو بن العاص و هو من هو في الدهاء ما كان لتغيب عنه محاولة الإيقاع بين المسلمين و النجاشي عن طريق تلفيق التهم للمسلمين في أمر حساس كأمر عيسي بن مريم فلا يمكنه و الحالة هذه ترك هذا اللقاء الذي ضم المسلمين و النجاشي دون الجبر بهذه المحاولة كما أنه من المشكوك فيه أن يقبل النجاشي سعاية عمرو بالمسلمين إليه مرة ثانية بعد مرور وقت يسير ثم يأمر باستدعائهم علي غرار المرة الأولي لان الروايات التي تحدثت عن اللقاء الأول بين ملك الحبشة والمسلمين ذكرت ما يفيد تصميمه علي إكرام هذه الجماعة إذا هي لم تأت بشي يخالف ما جاء في التوراة و الإنجيل .

و يذكر البلاذري أن عمرا و عمارة بعد إخفاقها لم يعودا معا إلي مكة حيث إن الثاني قد هلك بالحبشة إما نتيجة لمؤامرة حاكها له عمرو بن العاص بعناية فأمر النجاشي بإحراقه كما تقول إحدى الروايات و إما أن يكون الأول قد ألقي بالثاني في البحر نتيجة محاولة عمارة نيل الأوتار من امرأة عمرو بن العاص الذي أخذته الحمية فألقي به في البحر و مات غريقا علي حد قول الرواية الأخرى[٢]

ظل المهاجرون بأرض الحبشة ينعمون بتأمين النجاشي لهم حتى أقام النبي للإسلام دولة في المدينة المنورة فبدأت جماعتهم تفد إليها ، فوصل جعفر بن أبي

١- الذهبي " السيرة النبوية " ص ١٢١

ابن عبد الوهاب " مختصر سيرة الرسول " ص ٨١

عبد الحليم محمود " دلائل النبوة و معجزات الرسول " ص ١٣٢

٢- أنساب الأشراف / ج١ ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣

طالب يوم فتح خيبر[١] و سربه النبي محمد – صلي الله عليه و سلم – فعانقه وقبل ما بين عينيه و قال " بأي الأمرين أسر . . أبقدوم جعفر أم بفتح خيبر "

أما عن حقيقة ما روى عن إسلام النجاشي فإن الروايات تختلف فيما بينهما حول الطريقة التي أسلم بها ملك الحبشة .فمنها من يقول إنه أسلم و علم قومه بذلك أرغموه علي التخلي عنه في الظاهر .

فمن الأول ما رواه بن كثير أن الرسول الله – صلي الله عليه و سلم – قال لأصحابه بعد مجي المهاجرين إلي الحبشة " هذا جعفر ما صنع به صاحبنا ؟ فقال : نعم ، فعل بنا كذا و كذا و حملنا وزودنا و شهد أن لا إله إلا الله و أنك رسول الله و قال لي قل لي يستغفر لي .. فقام رسول الله صلي الله عليه و سلم فتوضأ ثم دعا ثلاث مرات " اللهم أغفر للنجاشي " فقال المسلمون آمين ثم قال جعفر فقلت للرسول انطلق فأخبر صاحبك بما رأيت من رسول الله صلي الله عليه و سلم " غير أن بن عساكر لم يرضي الأخذ بهذا القول فقال هذا حسن غريب[٢]

و من الثاني ما رواه جعفر بن محمد عن أبيه قال " اجتمعت الحبشة فقالوا للنجاشي : إنك فارقت ديننا و خرجوا عليه فأرسل إلي جعفر و أصحابه فهيأ لهم سفنا و قال اركبوا و كونوا كما أنتم فإن هزمت فامضوا حتى تلحقوا بحيث شئتم و إن ظفرت فاثبتوا ثم عمد إلي كتاب فكتب فيه و هو يشهد أن لا إله إلا الله و أن محمدا عبده و رسوله و يشهد أن عيسي عبده و رسوله وروحه و كلمته ألقاها إلي مريم ثم جعله في قبائه عند المنكب الأيمن و خرج إلي الحبشة

١- الذهبي " السيرة النبوية ص ١٣٩ ، ١٤٠

٢- البداية و النهاية ج٢ ص ٧١

وصفوا له ، فقال : يا معشر الحبشة ألست أحق الناس بكم ؟ قالوا : بلي ! قال فكيف أنتم سيرتي فيكم ؟ قالوا : خير سيرة ، قال فما بكم ؟ قالوا : فـارقت ديننا و زعمت أن عيسي عبده و رسوله ، قال : فما تقولون أنتم في عيسـي ؟ قالوا : نقول هو ابن الله فقال النجاشي ووضع يده علي صدره علي قبائـه : و هو يشهد أن عيسي بن مريم لم يزد علي هذا و إنما يعني علي ما كتب فرفضـوا و انصرفوا) فلما علم الرسول بوفاة النجاشي دعا المسلمين للصلاة عليه .

فقد روى جابر عن رسول الله – صلي الله عليه و سلم – أنه قال حين مات النجاشي مات اليوم رجل صالح فقوموا فصلوا علي أخيكم أصحبه) . [١]

و بهذا تبين لنا أن قريشا قد أخفقت في منع انتشار المسلمين خـارج مكـة مثلما أخفقت في مفاوضة النبي و عمة و إيذائها لمحمد و صحبه ، فلجـأت إلي ورقة ظنتها رابحة فقاطعت النبي و عشيرته مقاطعه اقتصادية .

مقاطعة قريش لبني هاشم و بني المطلب :

تذكر المصادر القديمة أن قريشا لما يئست من محاولاتها العديدة التي قامت بها من أجل استئصال شأفة المسلمين بمكة فكرت في قتل النبي محمد صلي الله عليـه و سلم فلما و قف أبو طالب علي جليه أمرهم أوعز إلي عشيرته من بني هاشـم بأن يجتمعوا في شعبة ليبسطوا حمايتهم علي محمد حتي يمنعوا القوم مـن قتلـه فوجدت قريش أنه بتجمعهم هذا سهل عليها أمر مقاطعتهم اقتصاديا فكان هذا هو السبب الأول الذي تعزي إليه المقاطعة .

١- ابن كثير " البداية و النهاية " ج٣ ص ٧٧
النويري " نهاية الأرب " ج١٦ ص ٢٥٢، ٢٥٣

وسبب ثان هو أن قريشا طفقت تعض أناملها غيظا لإخفاقها في النيل من المسلمين بالحبشة لأن أنباء هذا الإخفاق قد زادت المسلمين في مكة تمسكا بدينهم ، و من ثم راحت تبحث عن و سيله تأثر بها لنفسها من هؤلاء الذين ما يزالون يقيمون بين أظاهرهم فوجدت أن أنجح وسيلة في القضاء عليهم هي جعل عشيرة نبيهم يتخلون عن حمايته فكانت المقاطعة الاقتصادية .

و ثالث الأسباب ما أسلفنا الحديث عنه من إسلام حمزة و عمر ؛ لأن قريشا رأت أن في هذا الأمر الجديد زيادة في قوة المسلمين بمكة و لكي ينجحوا في القضاء عليهم لابد من مواجهة هذه القوة قبل أن تتم بشكل يصعب معه السيطرة عليها فكانت المقاطعة الاقتصادية لبني هاشم و بني المطلب [1] .

فلما استقر أمر قريش علي هذه المقاطعة طلبوا من منصور بن عكرمة العبدري كتابه صحيفة و قيل إن الذي كتبها علي الصحيح بغيض بن عامر بن هاشم بما اتفق عليه القوم و جاء فيها أن الموقعين عليها يلتزمون بالا ينكحوا من بني هاشم و لا يناكحوهم و لا يبيعون لهم و لا يتبايعون منهم و كان ذلك في أول محرم سنه سبع من نزول الوحي علي النبي محمد- صلي الله عليه و سلم .

و قد اختلف في المكان الذي أودعت فيه الصحيفة المذكورة .فيقول البعض أنها علقت بجوف الكعبة بينما يذكر البعض الآخر أنها كانت موضوعه عند

١- البلاذري / أنساب الأشراف / ج١ ص ٢٣٠،، الطبري / تاريخ الأمم و الملوك ج٢ ص ٣٣٥ ،، ابن عبد البر / الدرر / ص ٥٧ ،، ابن سيد الناس / عيون الأثر / ج١ ص ١٢٦ ،، الذهبي / السيرة النبوية / ص ١٤٠ ،، أحمد إبراهيم دور الحجاز في الحياة السياسية / ص ٧٣ .

طعيمة بن عدي[١] و يقال عند أم جهل و هي أسماء ابنة مخربة التميميه ، و قـــوم يقولون إنها وضعت عند الجلاس بنت مخربة أختها [٢] .

و علي أية حال فإن المشركين القرشين ظلوا علي تمســـكهم بمـــا جـــاء في الصحيفة زهاء ثلاث سنوات كانوا أثناءها يصدون التجار . القادمين إلي مكـــة عن البيع لبني هاشم فيقال إنا أبا لهب كان يقول لهم (يا معشر التجار غـــالوا علي أصحاب محمد حتى لا يدركوا معكم شيئا ، و قد علمتم مالي ووفاء ذمـــتي فأنا ضامن لا خسارة عليكم فيزيدون عليهم في السلعة قيمتها أضعافـــا حـــتى يرجع أحدهم إلي أطفاله و هم يتضرعون من الجوع و ليـــس في يـــده شـــي يطعمهم به ، و يغدوا التجار علي أبي لهب فيربحهم فيما اشتروا مـــن الطعـــام واللباس حتى جهد المؤمنون و من معهم جوعا و عريا) . [٣]

و علي الرغم من هذه المعاناة التي عاني منها بنو هاشم فإنهم كانوا يحرصـــون كل الحرص علي ألا تصل قريش للنبي بسوء يكرهونه فكان أبو طـــالب أثنـــاء إقامتهم في الشعب يأمر رسول الله – صلي الله عليه و سلم – فيأتي فراشة كـــل ليله حتى يراه من أراد به شرا أو غائلة فإذا نام الناس أمر أحد بنيه أو أخواتـــه أو

١- ظل علي شركة حتى لقي المسلمين في بدر فقتلوه ، و قد اختلف فيمن قتله من المسلمين فقيل إن النبي هو الذي ضربه بحسامه و منهم من قال إنه حمزة أو علي (ابن قتيبة / المعارف / ص ١٥٤، ١٥٥ ، ١٥٦) .

٢- ابن عبد الله بن مصعب الزبيري – نسب قريش – ج٧ ص ٢٥٤٢ ، ٢٥٥ ،، ابن سعد / الطبقات الكبرى / ج١ / ص ٢٠٨ ،، البلاذري / أنساب الأشراف / ج١ ص = ٢٣٥،، ابن قيم الجوزيه / زاد المعاد / ج٢ ص ٤٦ ،، النبهاني / الأنوار المحمدية من المواهب اللدانيه ص ٤٢

٣-أبو نعيم الأصفاني / دلائل النبوة / ج١ / ص ٩٣،، ابن عبد البر الدرر / ص ٥٣،، ابن القيم الجوزية / زاد المعاد / ج٢ / ص ٤٦ الغزالي / فقة السيرة / ص ١٢٤.

بني عمه فاضطجع علي فراش رسول الله- صلي الله عليه و سلم – و يأمر رسول الله أن يأتي بعض فرشهم فيرقد عليها فلم يزالوا في الشعب حتى نقضت الصحيفة [١]

اختلفت الروايات فيما بينهما حول السبب الذي نقضت من أجله صحيفة المقاطعة فتعزوا بعض الروايات ذلك إلي جهود خمسة من الرجال منهم المطعم بن عدي و أبو البختري " . [٢]

فمن الأول ما رواه الطبري و غيره من أصحاب المصادر التاريخية الأصيلة أن هشام بن عمرو الحارث العامري[٣] .... مشي إلي زهير بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم و كانت أمة عاتكه بنت عبد المطلب فقال : يا زهير أرضيت أن تأكل الطعام و تلبس الثياب و تنكح النساء وأخوالك حيث قد علمت ما يبايعون و لا يبتاع منهم و لا ينكح إليهم أما إني أحلف بالله لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام ثم دعوته إلي مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبدا قال و يحك يا هشام ! فماذا أصنع إنما أنا رجل واحد و الله لو كان معى رجل آخر لقمت في نقضها حتى أنقضها قال ما هو ؟ قال أنا قال له زهير : ابغنا ثالثا فذهب إلي المطعم بن عدي بن نوفل فقال له : يا مطعم أقد رضيت أن يهلك بطنان من بني مناف و أنت شاهد علي ذلك موافق لقريش فيه : أما و الله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سراعا قال : و يحك فماذا أصنع إنما أنا رجل واحد ؟!

١- أبو نعيم الأصبهاني / دلائل النبوة / ج١ ص ٩٢ ،، ابن سيد الناس / عيون الأثر / ج١ ص ١٢٦،١٢٧ ،، أبو زهرة / خاتم النبيين / ج١ / ص ٤٢٣ .

٢- هو العاصي بن هشام بن الحارث بن أسد بن عبد العزى قتل علي شركة يوم بدر بيد المجذر بن زياد بن البلوى حليف الأنصار (الزبيرى / نسب قريش / ج٦ ص ٢١٣ .

٣- عرف عن تمسكه بالأمانة حتى أنه لما هاجر بعض المسلمين إلي المدينة ، استأمنوه علي أموال لهم ، فحافظ عليها حتى أداها إليهم (الزبيري / نسب قريش / ج ١٢ / ص ٤٣١)

قال : وجدت ثانيا ، قال : من هو ؟ قال أنا قال أبغنا ثالثا قال : قد فعلت قـال من هو ؟ قال : زهير بن أميه أبغنا رابعا فذهب إلي أبي البختري بـن هشـام ، فقال له : نحواها قال للمطعم بن عدي فقال : و هل من أحد يعين علي هـذا ؟ قال نعم ، قال من هو : قال زيد بن ابي أمية و المطعم بن عدى و أنا معـك ، قال أبغنا خامسا فذهب إلي زمعة بن الأسود ابن المطلب بن أسد فكلمة و ذكر له قرابتهم و حقهم ، فقال له : و هل علي هذا الأمر الذي تدعوني إليـه مـن أحد ؟ قال : نعم ثم سمي له القوم فاتعدوا له خطم الحجون الذي بأعلى مكـة فاجتمعوا هنالك و أجمعوا أمرهم و تعاهدوا علي القيـام في الصحيفـة حـتى ينقضوها ، و قال زهير : أنا أبدؤكم فأكون أولكم يتكلم فلما أصبحوا غـدوا إلي أنديتهم و غدا زهير بن أبي أمية عليه حله له فطاف بالبيت سـبعا ثم أقبـل علي الناس فقال : يا أهل مكة أنأكل الطعام و نشرب الشراب و نلبس الثيـاب و بني هاشم هلكى لا يباعون و لا يتبايع منهم و الله لا أقعد حتى تشق هـذه الصحيفة القاطعة الظالمة قال أبو جهل – و كان في ناحية المسجد – كذبـت والله لا تشق ، قال زمعة بن الأسود : أنت و الله أكذب ما رضينا كتابها قـال أبو البختري : صدق زمعه ، لا نرضي ما كتب فيها نقر به ، قال المطعم بـن عدي : صدقنا و كذب من قال غير ذلك فبرأ إلي الله منها و مما كتـب فيـها وقال هشام بن عمرو نحوا من ذلك ، قال أبو جهل أمر قضي بليل و تشـاوروا فيه بغير هذا المكان – و أبو طالب جالس في ناحية المسجد – و قام المطعم بـن عدي إلي الصحيفة ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها إلا مـا كـان " بـاسمك اللهم") [1]

١- الطبري / تاريخ الأمم و الملوك / ج٢ ص ٣٤١،٣٤٢،، البلاذري / أنساب الأشراف / ج١ ص ١٤٥ ،، أبو نعيم الاصبهاني / دلائل النبوة / ج١ / ص ٩٣،٩٤ ،،

و من الثاني ما رواه ابن كثير و الذهبي و غيرهم أن أبا طالب قال لما أبلغه النبي بأمر الصحيفة قال (لا و الثواقب ما كذبني ما نطلق يمشي بعصابته من بني عبد المطلب حتى أتى المسجد و هو حافل من قريش فلما رأوهم عامدين لجماعتهم أنكروا ذلك و ظنوا أنهم خرجوا من شدة البلاء فأتوهم ليعطوهم رسول الله – صلي الله عليه و سلم – فتكلم أبو طالب فقال قد حدثت أمور بينكم لم نذكرها لكم فأتوا بصحيفتكم التي تعاهدتم عليها ، فعله أن يكون بيننا و بينكم صلح و إنما قال ذلك خشية أن ينظروا في الصحيفة قبل أن يأتوا بها فأتوا بصحيفتهم معجبين بها لا شكوك أن رسول الله صلي الله عليه و سلم مدفوعا إليهم فوضعوها بينهم و قالوا قد أن لكم أن تقبلوا أو ترجعوا إلى أمر يجمع قومكم فإنما قطع بيننا و بينكم رجل واحد جعلتموه خطرا لهلكة قومكم وعشيرتكم و فسادهم . فقال أبو طالب : إنما أتيتكم لأعطيكم أمرا لكم فيه نصف إن ابن أخي أخبرني و لم يكذبني إن الله بري من هذه الصحيفة التي في أيديكم و محا كل اسم هو له فيه و ترك فيها غدركم و قطيعتكم إيانا وتظاهركم علينا بالظلم فإن كان الحديث الذي قال ابن أخي كما قال : فأفيقوا فو الله لا نسلمه أبدا حتى يموت من عندنا أخرنا و إن كان الذي قال باطلا دفعناه إليكم فقتلتموه أو استحيتم قالوا : قد رضينا بالذي تقول ففتحوا الصحيفة فوجدوا الصادق المصدوق –صلي الله عليه و سلم –قد أخبر خبرها فلما رأتها قريش كالذي قال أبو طالب .. قالوا و الله إن كان هذا قط إلا سحر من صاحبكم فار تكسوا و عادوا بشر ما كانوا عليه من كفرهم و الشدة علي رسول الله –صلي الله عليه و سلم– و القيام علي رهطه تعاهدوا عليه فقال أولئك النفر من بني عبد المطلب إن أولي بالكذب و السحر غيرنا فكيف ترون

= ابن الوهاب / مختصر سيرة الرسول / ص ٩١،، الطيب النجار / السيرة النبوية / ص ٨٠،، التاجي سيرة النبي العربي / ج١ ص ٢١٠ .

فإنا نعلم إن الذي اجتمعنا عليه من قطيعتنا إلي الجبت و السحر من أمرنا و لولا أنكم اجتمعتم علي السحر لم تفسد صحيفتكم و هي في أيديكم طمس ما كـان فيها من اسمه و ما كان فيها من بقي تركة أفلح السحرة أم أنتم ؟ فقال عنـد ذلك ، النفر ، من بني عبد مناف و بني قص و رجال من قريش ولدتهم نسـاء من بني هاشم منهم أبو البختري ، و المطعم بن عدى ، و زهير بن أبي أمية بـن المغيرة ، وزمعه بن الأسود ، و هشام بن عمر ، و كانت الصحيفة عنده و هـو بني عامر بن لؤي – في رجال من أشرافهم ووجوههم نحن براء ممـا في هـذه الصحيفة فقال أبو جهل لعنه الله : هذا أمر قضي بليل)[1]

مما تقدم يتضح لنا أن الروايتين السابقتين قد اتفقا فيما بينهما علي أن مـا في الصحيفة من بنود قد محي بفعل حشرة ما من الحشرات و أن زهير بن أميـه و من حذي حذوه من الرجال قد أقاموا بدور في نقضها اختلفت الروايتـان في تحديده اختلافا كبيرا .

و الذي أكاد أميل إليه هو الأخذ بما جاء في الرواية الثانية دون الأولي حيـث أن ذلك يتفق تماما الإنفاق مع الواقع الذي عاشه النبي محمد صلي الله -عليـه وسلم- بعد بعثته فقد أيده الله بوحي و معجزات استطاع بهم إقامـة الحجـج علي كذب قومه فيما نسبوه إليه من أوصاف تنتقص من ذاته الكريمـة مثـل

١-أبو نعيم الأصبهاني " دلائل النبوة " ج١ ص ٩٤ .
ابن سيد الناس " عيون الأثر " ج١ ص ١٢٧
البداية و النهاية " ج٣ ص ١٥، السيرة النبوية " ص ١٤١ الطهطاوي " نهاية الإيجاز ج١ ص ١٦١

الكذب فكونه يخبر أبا طالب بمحو الصحيفة و يذهب العم إلي القوم ليخبرهم بما سمع من النبي محمد فإذا هم بعد رؤية صحيفتهم يبهتون .

فجعل هذا الرجال الخمسة المذكورين في الرواية الأولي يصممون علي نقض الصحيفة لما عرف عنهم من رقة القلب ورؤيتهم انبلاج حقيقة صدق هذا النبي و تهاوى العقبات التي تقيمها قريش أمام انتشار دعوته .

و لعل هذا التصميم هو الذي جعل الرواة ينسبون إلي هؤلاء الخمسة السبب في نقض الصحيفة ، كما أن الرواية الأولي قد ذكرت أن أبا طالب كان في المسجد أثناء حديث الرجال مع أبي جهل و لم تذكر عما إذا كان تدخل في الحديث أم لا مما يجعلنا نشكك في الأخذ بالسابق و نميل إلي الأخذ باللاحق .

و لم يكن النبي صلي الله عليه و سلم – يستريح من عناء المقاطعة حتى ابتلي بوفاة الزوج و العم في عام واحد عرف عن المؤرخين بعام الحزن .

عام الحزن :

أختلف المؤرخون القدامى فيما بينهم حول من توفي أولاد أهي خديجة أم عم النبي محمد – صلي الله عليه و سلم .

فمنهم من قال إن أبا طالب توفي النصف من شوال في السنة العاشرة من حين نبي رسول الله – صلي الله عليه و سلم – و هو يومئذ ابن بضع و ثمانين سنة ، و توفيت خديجة بعده بشهر و خمسة أيام و هي يومئذ بنت خمس وستين سنة .[1]

١- ابن سعد / الطبقات الكبرى / ج١ ص ١٢٥

و منهم من ذكر أن خديجة توفيت قبل أبي طالب بخمسة و ثلاثين يوما وذكر أبو عبد الله الحاكم أن موتها كان بعد موت أبي طالب بثلاثة أيام و كذا قال غيره .[١]

و مهما يكن من أمر فإنه من الثابت تاريخيا حدوث وفاتهما دون فاصل زمني كبير يفصل بين رحيلهما .و من ثم عظمت مصيبتها علي النبي محمد فوجد لذلك وجدا شديدا ، فالزوجة كان يسكن إليها و يبثها آلامه فلا يجد منها إلا المودة و الرحمة تهونان بهما عليه عناء النهار ... و العم كان يبسط عليه الحماية و يمنع عنه إلي حد كبير أذي القرشيين .

و تذكر المصادر القديمة أن أبا طالب لما مرض الموت و جاءت وفود قريش لعيادته كان رسول الله يجلس فيمن يجلس عند أبي طالب ليعرض عليه الإسلام .

و هنا تختلف الروايات فيما بينهما فيذكر بعضها أن أبا طالب أبي ذلك خشية أن يعير به ذريته بعدرحيلة .و منها من يقول إنه نطق بالشهادتين سرا .

فمن الأول ما رواه محمد بن عمر أن أبا طالب قال للنبي بعد أن عرض عليه النطق بالشهادتين (يا ابن أخي و الله لولا رهبه أن تقول قريش دهر بي الجزع فيكون سبة عليك و علي بني أبيك لفعلت الذي تقول و أقررت عينك بها لما أرى من شكوك ووجد بي و نصيحتك لي ثم إن أبا طالب دعا بني عبد المطلب فقال : لن تزالوا بخير ما سمعتم من محمد و ما اتبعتم أمره فاتبعوه و أعينوه ترشدوا ... فقال رسول الله -صلي الله عليه و سلم -: أتأمرهم بها و تدعها

١- البيهقي / دلائل النبوة / ج٢ ص ٣٥٣،٣٥٢، الذهبي / السيرة النبوية / ص ١٥٢، ابن سيد الناس / عيون الأثر / ج١ ص ١٣٠

لنفسك ؟ فقال أبو طالب : أما أنك سألتني الكلمة و أنا صحيح لتابعتك تقـول و لكني أكره أن أجزع عند الموت فترى قريش أني أخذتها جذعا ورددتها في صحتي) .[١]

و من الثاني ما رواه الذهبي عن العباس (أنه لما ثقل أبو طالب رئي يحـرك شفتيه فأصغي إليه أخوه العباسي ثم رفع عنه فقال يا رسول الله و الله قالهـا . فقال رسول الله لم أسمع) [٢]

و قد انبري للرد علي الرواية الثانية غير واحد من المؤرخين فقـال الذهـبي (هذا لا يصح ، و لو كان سمعه العباسي يقولها لما قال للنبي صلي الله عليـه وسلم — هل نفعت عمك بشي ، و لما قال عليه بعد موته : يا رسـول الله إن عمك الشيخ الضال قد مات) .

و ذكر السهيلي أن (شهادة العباس لأبي طالب لو أداها بعد ما أسلم كـانت مقبولة لأن العدل إذا قال : سمعت و قال من هو أعدل منه لم أسمع أخذ بقـول من أثبت السماع و لكن العباسي شهد بذلك قبل أن يسلم) [٣].

و قد روى عن النبي صلي الله عليه و سلم — أكثر من حديث يثبـت أن أبـا طالب من المعذبين في النار .

و علي أية حال فإن قريشا قد نالت من النبي محمد — صلي الله عليه و سلم- الكثير مما يكره بعد وفاه العم (فقد قال رسول الله صلي الله عليه و سلم — ما

١- ابن سعد " الطبقات الكبري " ج١ ص ١٢٢

= ابن عبد الوهاب " مختصر سيرة الرسول " ص ٩٣ الطهطاوي " نهاية الإيجاز " ج١ ص ١٥

٢- السيرة النبوية " ص ١٤٩

٣- ابن سيد الناس " عيون الأثر " ج١ ص ١٣٣ الذهبي " السيرة النبوية " ص ١٤٩

نالتني قريش بشي أكرهه حتى مات أبو طالب) . [١]

و لهذا كان رسول الله – صلي الله عليه و سلم – بعد وفاه الزوج و العم يركن إلي الجلوس في بيته بشكل استرعى انتباه أبو لهب عدو الإسلام فيذكر محمد بن عمر أن أبا لهب جاء إلي النبي محمد .. فقال له : . و اللات لا يوصل إليك حتى أموت ! و سب بن الغيطله النبي – صلي الله عليه و سلم –فأقبل عليه أبو لهب ، فنال منه – فولي و هو يصيح : يا معشر قريش صبأ أبو عتبه فأقبلت قريش حتى وقفوا علي أبي لهب فقال : ما فارقت دين عبد المطلب ولكن أمنع ابن أخي أن يضام حتى يمض لما يريد .. قالوا : أحسنت و أجملت ووصلت الرحم فمكث رسول الله –صلي الله عليه و سلم – كذلك أياما يذهب و يأتي و لا يتعرض له أحد من قريش و هابوا أبا لهب إلي أن جاء عقبه بن معيط و أبو جهل بن هشام إلي أبي لهب فقالا له : أخبرك ابن أخيك أين مدخل أبيك ؟ فقال له أبو جهل : يا محمد أين مدخل عبد المطلب ؟ قال : مع قومه فخرج أبو لهب إليهما فقال : قد سألته .. فقال مع قومه .. فقالا : يزعم أنه في النار .. فقال : يا محمد أيدخل عبد المطلب النار ؟ فقال رسول الله صلي الله عليه و سلم – نعم ، و من مات علي مثل ما مات عليه عبد المطلب دخل النار .. فقال : أبو لهب : و الله لا برحت لك عدوا أبدا ، و أنت تزعم أن عبد المطلب في النار ، فاشتد عليه هو وسائر قريش) [٢].

وجد رسول الله – صلي الله عليه و سلم – أن الدعوة في قريش ستواجه بعد وفاة عمه مواجهة أشد مما كان في حياته .و من ثم فكر في الهجرة إلي الطائف لدعوة سكانها إلي الإسلام .

١- الطهطاوي " نهاية الإيجاز " ج١ ص ٧٨

٢ -ابن سعد " الطبقات الكبرى " ج١ ص ٢١٠ .

النويري " نهاية الأرب " ج١٦ ص ٢٧٩ و ٢٨٠

الدعوة في الطائف :

تعد الطائف ثاني أكبر مدينة في بلاد الحجاز بعد مكة ، لما كانت تتمتع بموقع فريد ميزها بطيب هوائها صيفا ، فإن المكيين قد حرصوا كل الحرص علي شراء العقارات و البساتين بها و توثيق العري بسكانها من قبيلة ثقيف [١].

فلما ضاقت الأحوال بالنبي محمد- صلي الله عليه و سلم – فكر أول ما فكر في الهجرة إلي الطائف دون غيرها من المناطق المجاورة .

و قد برر أحد المؤرخين هجرة النبي إليها دون غيرها فقال (أثر النبي الطائف لأسباب منها هذه الروابط و الصلات التي كانت تربطها بمكة و تربط الثقفيين بالقرشيين ، و منها أنها كانت خالية من الانقسام الذي كان بين الأوس و الخزرج في يثرب و سبب ثالث لا سبيل إلي إغفاله و هو أنها كانت بمنأى عن اليهود الذين عرفوا في التاريخ بإيذاء الرسل و الاضطهاد للأنبياء صحيح أنهم كانوا يبشرون بالنبي و يتوقعون ظهوره و لكن ذلك قد كان لظروف سرعان ما تزول و يظهر عداؤهم الأسود و بغضهم المقيت)[٢]

و علي الرغم من أن النبي محمدا – صلي الله عليه و سلم – قد خرج من مكة متسللا في شوال سنة عشر من البعثة قاطعا علي قدميه سبعين ميلا جيئة و مثلها إيابا ، فإن الثقفيين لم يجيبوه إلي دعوته و صبوا عليه الإيذاء و لسنا نجد كبير عناء في تبرير هذا الموقف الذي وقفته ثقيف من النبي محمد صلي الله عليه و سلم فإنه يعزي إلي أسباب منها :-

١- حرص الثقفيين علي ديمومة العلائق الودية بينهم و بين القرشيين و لا بد و الحالة هذه أن يثبتوا مؤازرهم لقريش في التصدي لدعوة هذا النبي

١- عبد العزيز غنيم " فلسفة السيرة " ص ٩٥

و من ثم أذوه عندما وصل إلي بلادهم و حاولوا بينهم و بين تحقيق أي نجاح في نشر الدعوة بالطائف و منها .

٢- أن عوه النبي محمد – صلي الله عليه و سلم – لم تكن تروق للثقفيين شأنهم في ذلك شأن القرشين حيث أنها تتعارض مع مصالحهم الدينية و الاقتصادية فإن اللات معبودة ثقيف تعد أم الآلهة عندهم و بها كانوا يتفاخرون علي كثير من القبائل و العشائر و الربا الذي كان يتعاملون به قد كان من الشيوع بمكان إلي حد أنه لم ينج من التعامل به بيتا من بيوت ثقيف .

٣- وجدت ثقيف أنه لا بد لها من التصدي لانتشار هذه الدعوة لما تضمنته من مبادىء تقف أمام مرذول العادات التي زعموها حميدة وأباحوا فعلها فيما بينهم علي غرار الزنا و الخمر و لعب الميسر و ما إلي ذلك من المفاسد الاجتماعية الخطيرة التي استأصلها الإسلام من جزيرة العرب بعد انتشارها بها [1].

و سبب رابع لا إلي إغفاله و هو أن زعماء ثقيف وجدوا في قبولهم الإسلام أيلولة سيادتهم علي قبيلتهم إلي شخص قريش ، و جدت فيه قبيلته أنه ليس أهلا لهذه السيادة فكيف و الحالة هذه يقبلون بما رفضته قريش و حتى تظل السيادة بينهم انبروا لمعارضته النبي محمد- صلي الله عليه و سلم – و أوعزوا إلي صبيانهم و عبيدهم بإيذائه ذلك أنه لم خرج رسول الله -صلي الله عليه و سلم – من عند عبد ليل بن عمرو و أخوه مسعد و حبيب يجر أذيال الفشل في إقناعهم دخول الإسلام وقف له العبيد و الصبيان صفين فلما مر رسول الله

١- الطهطاوي " نهاية الإيجاز " ج١ ص ١١٩

الغزالي " فقه السيرة " ص ١٣١

عبد المنعم ماجد " التاريخ السياسي للدولة العربية " ج١ ص ١٠٦

بينهما جعل لا يرفع رجليه و لا يضعها إلا رضخوهما بالحجارة حتى أدموا رجليه و كان صلي الله عليه و سلم إذا لقته الحجارة قعد إلي الأرض فيأخذون بعضدية فيقيمونه فإذا مشي رجموه و هم يضحكون و زيد بن حارثة مرافقة في الهجرة إلي الطائف يقيه بنفسه حتي لقد شج في رأسه شجاجا فخلص منهم النبي ورجلاه تسيلان دما فعمد إلي حائط من حوائطهم فاستظل في ظله [1]

و كان لعتبة و شيبه ولدي ربيعه فلما جلس الرسول محتما بهذا الحائط و ابتعد عنه سفهاء ثقيف طفق ينادي ربه و هو يقول :

" اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، و قلة حيلتي ، و هو أني علي الناس ، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين ، و أنت ربي ، إلي من تكلني إلي بعيد يتجهمني ، أو إلي عدو ملكته أمري ، إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات صلح عليه أمر الدنيا و الآخرة من أن يترل بن غضبك أو يحل علي سخطك لك العتبى حتي ترض و لا حول و لا قوة إلا بك "

فلما نظر إليه عتبه و شيبه – قابلاه و أرسلا إليه غلاما لهما يقال له عداس بطبق فيه عنب ليأكل منه النبي محمد صلي الله عليه و سلم [2].

١-ابن سيد الناس " عيون الأثر " ج١ ص ١٣٤

= ابن عبد الوهاب (مختصر السيرة الرسول " ص ١٢٠ الخضري " نور اليقين في سيرة سيد المرسلين " ص٦٣ أحمد شلبي " موسوعة التاريخ الإسلامي " ج١ ص ٢٠٩ الشامي " تاريخ العرب و الإسلام " ص ١٩٠

٢- البلاذري " أنساب الأشراف " ج١ ص ١٥٢ ،، الطبري / تاريخ الأمم و الملوك / ج٢ ص ٣٤٥،، ابن قيم الجوزيه / زاد المعاد / ج٢ ص ٤٦،، الذهبي / السيرة النبوية / ص ١٨٧،، الخضري / نور اليقين في سيرة المرسلين ص ٦٤

فلما وضع يده : قال" بسم الله ثم أكل ، فنظر عداس إلي وجهــه ، ثم قــال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة ، قال له رســول الله –صلــي الله عليه و سلم – و من أهل أي البلاد أنت يا عداس و ما دينك ؟ قال أنا نصراني ، و أنا من أهل نينوي ، فقال رسول الله –صلي الله عليه و سلم : أمن قريــة الرجل الصالح يونس بن متى ؟ قال له : و ما يدريك ما يونس بن متى ؟ قــال رسول الله –صلي الله عليه و سلم -:ذاك أخي ، كان نبيا و أنا نــبي فــأقبل عداس علي رسول الله –صلي الله عليه و سلم – يقبل رأسه و يديه و رجليــه ، قال : يقول ابنا ربيعه أحدهما لصاحبة أما غلامك فقد أفسده عليــك : فلمــا جاءهما عداس قال له ويلك يا عداس مالك تقبل رأس هــذا الرجــل و يديــه وقدميه قال يا سيدي ما في هذه الأرض خير من هذا الرجل ، لقد خبرني بــأمر لا يعلمه إلا نبي ، فقالا : ويحك يا عداس لا يصر فنك عن دينك فإن دينــك خير من دينه)[١]

و لما أزمع النبي محمد- صلي الله عليه و سلم – علي العودة من الطــائف إلي مكة نزل بنخله أياما قبل دخوله إلي بلده (فقال له زيد بن حارثــة : كيــف تدخل عليهم – يعني قريشا – و هم أخرجوك ؟ فقال : يا زيد ، إن الله جــاعل لما تري فرجا و مخرجا ، و إن الله ناصر دينه و مظهر نبيه ثم انتــهي إلي حــراء فأرسل رجلا من خزاعة فقال له رسول الله – صلي الله عليه و سلم -: هــل أنت مبلغ عن رسالة أرسلك بها ؟ قال : نعم ، قال : ائت الأخنس بن شــريق فقل له : يقول لك محمد : هل أنت مجيري حتى أبلغ رسالة ربي ؟ قــال فأتــاه

١- الطبري / تاريخ الأمم و الملوك / ج٢ ص ٣٤٦،، النويري / نهاية الأرب / ج١٦ ص ٢٨١،، التاجي / سيرة النبي العربي / ج١ ص٢٣٨،، خالد محمد خالد عشرة أيام في حياة الرسول / ص ٥٥

فقال له ذلك فقال الأخنس بن شريق : إن الحليف لا يجبر علي الصريح ، قال : فأتي النبي – صلي الله عليه و سلم – فأخبره قال : تعود قال نعم ، قال : ائـت سهل بن عمرو فقل له : إن محمدا يقول لك : هل أنتي بجـيري حـتي أبلـغ رسالات ربي فاتاه فقال له ذلك قال : فقال إن بني عامر بن لـؤي لا تجـير : فرجع إلي النبي – صلي الله عليه و سلم – فأخبز ه ، قال تعود ؟ قال : قـال نعم قال ائت المطعم بن عدي فقل له : إن محمدا يقول لك هل أنت مجيري حتى أبلغ رسالات ربي قال : نعم ، فليدخل ، قال : فرجع الرجـل إليـه فأخـبره وأصبح المطعم ابن عدي قد لبس سلاحه هو و بنوه و بنو أخيه فدخلوا المسـجد فلما رآه أبو جهل ، قال: أمجير أم تابع ؟ قال : بل مجير قال : فقال قد أجرنـا من أجرت فدخل النبي – صلي الله عليه و سلم – مكة و أقام بها) و ذلـك في الثالث و العشرين من ذي القعدة سنة عشر من نزول الوحي عليه) [1].

و لم ينسي النبي محمد – صلي الله عليه و سلم – للمطعم بن عدي ما فعلـه معه ، فقد روى أنه ، صلوات الله و سلامة عليه – قال لجبير بن مطعـم بـن عدي[2] يوم بدر (لو كان أبوك حيا و استوهبني هؤلاء الأسارى لوهبتهم لـه وشفعتهم فيهم) و كان المطعم قد مات في صفر سنة اثنتي من الهجرة قبل بـدر بأشهر ، و دفن بالحجون و هو ابن بضع و تسعين سنة) [3]

١- ابن سعد " الطبقات الكبرى " ج١ ص ٢١٢ ،، البلاذري " أنساب الأشراف " ج١ ص٢٣٧،، الطبري " تاريخ الأمم و الملوك " ج٢/ ص ٣٤٧،، ابن سيد الناس " عيون الأثر" ج١ ص ١٣٥،، ابن عبد الوهاب " مختصر سيرة الرسول " ص ١٢٢ ،، الطهطاوي " نهاية الإيجاز " ج١ / ص١٢٢،، الغزالي " فقه السيرة " ص ١٣٢،، التاجي " سيرة النبي العربي "ج١ ص ٢٤٢ .

٢- ينتهي نسبه إلي عبد مناف من قريش ، عالم بالأنساب ، روي عن النهي

٣- ستين حديث في الصحيحين ممن صلوا علي عثمان بن عفان بعد استشهاده توفي بالمدينة علي أرجح الأقوال سنه ٥٨ و قيل ٥٤هـ

الإسراء و المعراج

لما آب الرسول – صلي الله عليه و سلم – بعد رحلته إلي الطائف لم يدعه الله طويلا يتجرع كأس إخفاقه بها ، فمن عليه ربه بمعجزة الإسراء و المعراج [1] التي كان لها كبير الأثر لدي القرشيين عامة و المسلمين خاصة ، و لم يقتصر هذا الأثر علي أولئك الذين عاصروا الرسول و إنما ظلت هذه الرحلة موضع دراسة العلماء المسلمين و غيرهم ممن أرخوا للنبي محمد -صلي الله عليه و سلم -

فتباينت آراؤهم حول تاريخ حدوثها و عما إذا كانت بالروح و الجسد معا أم بالأول دون الثاني ليس هذا فحسب ، بل إنهم اختلفوا فيما بينهم أوقعت هذه الرحلة في ليلة واحدة أم في ليلتين ، و لسوف نعرض في شي من التفصيل لهذه القضايا فيما يلي :

أولا : تاريخ الرحلة :

ذكر أنس و الحسن أن الإسراء بالنبي كان قبل البعثة [1] ، غير أن العديد من رواه السيرة ذهبوا إلي أن الإسراء وقع للرسول قبل الهجرة بعام و بضعة أشهر و نظير ذلك الاختلاف في الشهر و اليوم الذي وقعت فيه هذه المعجزة للنبي محمد – صلي الله عليه و سلم – .

فقال بعضهم إن تلك الرحلة حدثت للنبي في السابع عشر من شهر ربيع الأول قبل الهجرة بعام و قال آخرون إنما كانت في شهر رجب من العام المذكور و قيل في السابع عشر من رمضان . [2]

١- الزمخشري " الكشاف " [illegible]

٢- ابن سعد " الطبقات [illegible] ٢١٤ ،، ابن سيد الناس " عيون الأثر " ج١ ص ١٤٦ ،، أبو الفدا " [illegible] البشر " ج١ ص ١١٩ ابن عبد الوهاب " مختصر سيرة سيرة الرسول " ص ١٢٦

و يعزى هذا الخلاف الذي وقع بين المؤرخين حول العام و اليوم الذي وقـع فيها الإسراء إلي أن القرآن الكريم حين ذكره قال تعالي (سبحان الذي أسـرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلي المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه مـن آياتنا إنه هو السميع البصير) فقد حدد الله المكان الذي اسري بـه إليـه دون إشارة إلي تاريخ تلك المعجزة و نظير هذا الأحاديث التي رواها النبي -صلـي الله عليه و سلم -عن الإسراء فإنها خلت من ذكر تاريخ وقوع هذه الرحلة لـه - صلوات الله و سلامه عليه -و لعل الدين ذهبوا إلي وقوع هذه المعجزة للنبي قبل البعثة يعدونها من قبيل الإعداد النفسي من الله لهذا النبي قبل بعثته حتي يتحمـل ما يصبه القوم عليه من إيذاء لا تحتمله إلا نفسا أعدت إعدادا خاصا .

أما أولئك الذين أرخوا لها بعام قبل الهجرة فإنها يعدونها درب ، مـن دروب التكريم الإلهي للنبي محمد بعد اشتداد إيذاء القرشية له إثر وفاه عمه و زوجـه و إغلاق الثقفيين أذنهم في وجه دعوته فلم يستجيبوا له .

و لا عبرة عندي لما ذهب إليه بعض المؤرخين من التوفيق بين الآراء ، المتباينـة في تحديد تاريخ رحله الإسراء حين قالوا إنه لا مانع من تكون الرحلة قد تكررت للنبي محمد صلي الله عليه و سلم أكثر من مـرة في حياته — لأن هذا الاحتمال تعوزه الأدلة التي تجعل المرء يفكر في جعلـه و لـو مجرد احتمال يطرح علي بساط البحث

فقد قال ابن القيم الجوزية : " في معرض تعقبه علي الآراء التي قالت بتعـدد رحله الإسراء للنبي محمد (كل هذا ضبط و هذه طريقة ضعفاء الظاهرية مـن أرباب ، النقل الذين إذا رأوا في القصة لفظة تخالف سياق بعـض الروايـات ، جعلوه من أخرى فكلما اختلفت عليهم الروايات عددوا ، الوقائع و الصـواب الذي عليه أئمة النقل أن الإسراء كان مرة واحدة بمكة بعد البعثة).[١]

١- زاد المعاد جـ٢ ص ٤٩

و أيده ابن عبد الوهاب في ذلك فقال (هذا بعيد و لم ينقل عن أحـــد مـــن السلف) [١]

و الذي نميل إليه هو الأخذ بالرأي الثاني دون الأول و هو أن الإسراء وقـــع للنبي قبل الهجرة بعام و بضعة أشهر و ذلك لأمرين :

أولهما : إن الناظر في المصادر الأصيلة لتاريخ النبي محمد و سيرته يجد الســـواد الأعظم من أصحابها قد وضعوا الإسراء و المعراج بعد الحديث عن دعوة النـــبي محمد للثقفيين بالطائف ، فهذا يدلنا بلا ريب علي هؤلاء الثقـــات يـــأخذون بالرأي الذي يقول بوقوع رحلة الإسراء قبل الهجرة بعام و بضعة أشهر .

ثانيهما : إن المصادر الأصيلة للتاريخ الإسلامي لم تنقل لنا شيئا عـــن موقـــف خديجة — رضوان الله عليها -. عن النبي بعد الإسراء به ، في الوقـــت الـــذي نقلت إلينا مواقف آخرين مثل أم هانئ و العباس [٢]. و غيرهما ، و لا أظـــن أن هذا الحدث العظيم لو كان قد وقع في حياه السيدة خديجة — رضوان الله عليـها — كما يزعم البعض لم يكن ليمضي دون أن يكون لها موقفا بارزا تشد بـه أزر النبي محمد علي غرار و ما كان منها عند نزول الوحي عليه أول مرة — كمـــا أسلفنا — و من ثم فإن الذي لامراء فيه أن الإسراء وقع للنبي بعد وفاة الســـيدة خديجة و رجوعه — صلي الله عليه و سلم — من الطائف فيكون الرأي الثـــاني راجحا علي الأول .

٢- مختصر سيرة الرسول ص ١٢٧

٣- ابن سعد الطبقات الكبرى ج١ ص ٢١٤

ثانيا : كون الإسراء بالروح دون الجسد أو بهما معا :

اختلف كثيرون من علماء السلف و الخلف فيما بينهم حول ما إذا كان، الإسراء بالنبي قد وقع له بجسده وروحة فيكون يقظة ، أم بروحة دون جسده فيكون رؤيا ، فطفقت أقلام الباحثين المحدثين تتناول هذه القضية من خلال وجهه نظر كل فريق علي حده.

فمنهم من حاول نصرة فريق علي آخر ، ومنهم من أبي الإدلاء برأي في هذه القضية مكتفيا بالإشارة إلي وجودها اعتقادا منه أن التعمق فيها و إجهاد النفس في استقصاء أدلة كل فريق هو مضيعة للوقت و لا يضيف جديدا للإسلام[1] ، وحتى نكون علي بينه من أمرنا نعرض لرأي القائلين من السلف بوقوعه بالروح دون الجسد ، ثم إلي أولئك الذين قالوا بوقوع الإسراء للنبي جسدا و روحا مشفعين ذلك كله برأي الباحثين المحدثين في هذه القضية مع تذييله بالرأي الذي نرتضيه لأنفسنا .

فمن الأول من ذكره غير واحد من علماء التاريخ و التفسير من أدلة تبرز لهم القول بأن الإسراء قد وقع النبي بالروح مثل ما أجاب به معاوية حين سئل عن مسرى رسول الله – صلي الله عليه و سلم – أنه كان رؤيا من الله – تعالى – صادقة .

و قول السيدة عائشة " ما فقد جسد رسول الله – صلي الله عليه وسلم – ولكن الله أسرى بروحة " و ما قاله بعض المفسرين من قول الله تعالي – (و ما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس)[2] يدل علي أن الإسراء قد وقع للنبي في الرؤيا بقصد فتنه الناس ليتبين المؤمن القوي الإيمان من غيره ، و تجعل الكافر

١-الغزالي " فقة السيرة " ص ١٣٦

٢-سورة الإسراء / آية ٦٠

يزيد طغيانا علي طغيانه أو يؤوب إلي رشده إن كان للحق مـــن سـبيل إلي فؤاده [١].

يضاف إلي هذه الأدلة ما ذكره " البلاذري " من روايات تـــدل علـــي أن الإسراء كان بالروح دون الجسد و أنه كان رؤيا رآها الرسول في نومة مـدرواه محمد و الوليد عن عكرمة قال " أسري بالنبي – صلي الله عليه و سلم – مــن المسجد و هو نائم في الحجر بعد هد ء من الليل " [٢].

و من الثاني ما ذهب إليه السواد الأعظم من جمهرة علماء المسلمين أن الإســراء قد وقع للرسول بالروح و الجسد ؛ لقوله تعالي : (سبحان الذي أسري بعبــده ليلا من المسجد الحرام إلي المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير) . [٣]

فقالوا إن كلمة عبده تدل دلالة قطعيه علي أن الإسراء كان في اليقظة بـــالروح والجسد و أجابوا علي حديث السيدة عائشة – رضـــوان الله عليـــها – بأنـــه ضعيف و أنها كانت في ذلك الوقت صغيرة السن لم يبن بها النبي – صلــي الله عليه و سلم .

و أما قول معاوية الذي احتج به المنكرون كون الرحلة بالجسد فمردود بأنـه كان يزال مشركا وقت الإسراء .

(كما ينبغي أن يعلم الفرق بين أن يقال كان الإسراء مناما و بين أن يقال كـان بروحة دون جسده و بينهما فرق عظيم و عائشة و معاوية لم يقولا كان منامـا و إنما قال أسري بروحه و لم يفقد جسده و فرق بين الأمرين فإن ما يراه النـائم

١-ابن هشام " سيرة النبي " ج٢ / ص٥ ،، أبو الفدا " المختصر في أخبار البشر ج١ ص ١١٩ ،، الألوسي " روح المعاني " ج٥ / ص٧

٢- أنساب الأشراف ج١ ص ٢٥٥ .

٣- سورة الإسراء / آية ١

قد يكون أمثالا مضروبة للمعلوم في الصور المحسوسة فيري كأنه قد عرج به إلي السماء أو ذهب إلي مكة و أقطار الأرض وروحه لم تصعد و لم تذهب و إنما ملك الرؤيا ضرب له المثال) .

ليس هذا فحسب بل إن الروايات التي نقلت لنا قصة الإسراء تدل بلا ريب علي أنه كان بالروح و الجسد ، و أية ذلك حديث العير التي رآها الرسول وأخبر قريشا بها يضاف إلي هذا كله أن استدلال المنكرين بقوله تعالي " و ما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنه للناس لا يدل علي أن الإسراء كان بالروح كما زعم الفريق الأول حيث إن الاستعمال اللغوي للرؤيا لا يقتصر علي المنام وحده فإنه ورد في اللغة ما يدل علي استعمال الكلمة في اليقظة كما في قول الشاعر :

و كبر للرؤيا وحشي فؤاده *** و بشر قلبا كان جما بلا له

(الطويل)

و انبرى هذا الفريق للرد علي رواية عكرمة السابقة و غيرهما من الروايات التي ، تتفق معها في المضمون فقال إن هذه الرواية لا تبرز جعل الإسراء بالروح دون الجسد إذا لا مانع أن يكون الملك قد جاء الرسول ابتداء و هو نائم فأيقظه ثم أسري به و دعم الجمهور رأيهم بأنه (لو كان مناما ما تعجبت منه قريش و لا استحالوه) [1] و تساءل أنصار هذا الفريق عن السبب الذي يدفع الفريق الأول إلي جعل الإسراء و المعراج بالروح دون الجسد و قد (ثبت بالهندسة أن مساحة قطر جرم الأرض ألفان و خمسمائة و خمسة و أربعون فرسخا و نصف فرسخ ، و أن مساحة قطر كرة الشمس خمسة أميال و نصف ، مثل قطر جرم الأرض ، و ذلك أربعة عشر ألف فرسخ ، و أن طرف قطرها المتأخر يصل

١- الألوسي " روح المعاني " ج ١٥ / ٨ ،، ابن قيم الجوزية " زاد الميعاد " ج٢ ص ٤٨ ،، النويري " نهاية الأرب / ج ١٦ ص ٣٩٣ ، ٢٩٤ ،، البوطي " فقه السيرة / ص ١٢١

موضع طرفة المتقدم في ثلثي دقيقة من ساعة مستوية .... و لما كانت الأجسام متساوية في الذوات و الحقائق وجب أن يصح علي كل واحد منها ما يصح علي غيره من الأعراض لأن قبيلة ذلك العر ض . إن كان من لوازم تلك الماهية فأينما حصلت حصل – لعزم حصول تلك القابلية فوجب أن يصح علي كل منها ما يصح علي الآخرون و إن لم يكن من لوازمها كان من عوارضها فيعود الكلام فإن سلم و إلا دار أو تسلسل و ذلك محال فلا بد من القول بالصحة المذكورة و الله تعالي قادر علي جميع الممكنات ، فيقدر علي أن يخلق مثل هذه الحركة السريعة في بدن النبي صلي الله عليه و سلم أو فيما يحمله وقال العلامة البيضاوى الاستحالة مدفوعة بما ثبت في الهندسة أن ما بين طرفي قرص الشمس ضعف ما بين طرفي كرة الأرض مائه ونيفا و ستين مرة) [1]

فإذا ما ولينا وجهنا شطر الباحثين المحدثين وجدنا من ينتصر لرأي الفريق الأول و هو كون الإسراء ةو المعراج بالروح دون الجسد و منهم من يؤيد الفريق الثاني .

فيطالعنا الدكتور هيكل برأي يمثل الفريق الأول خلاصته أن الإسراء و المعراج قد وقع للنبي محمد- صلي الله عليه و سلم – بالروح في اليقظة فهو ليس رؤيا في النوم كما ذكر علماء السلف الذين أنكروا كون الإسراء بالجسد ، و برر لرأية هذا بأن الله سبحانه و تعالي منح القوة لروح هذا النبي فوعت الكون من أزله إلي أبده في فترة التألق النفساني الفذ الذي اختص به بشر نقي جليل مثل -محمد صلي الله عليه و سلم -و في إبان هذا التألق الذي استعلى به علي كل شي واستعرض حقائق الدين و الدنياوشاهد صور الثواب والعقاب" [2]

١- الألوسي " روح المعاني " ج١٥ / ص ٨ ،، الطهطاوي نهاية الإيجاز ج١ / ١٣١

٢- حياة محمد ص ٢٠٧

و أما الباحثون المحدثون الذين مالوا للفريق الثاني من علماء السلف فمنـــــهم المفكر الإسلامي الإمام محمد أبو زهرة : الذي قال : " نحن نري أن الأدلــــة لم تتعارض ، بل الأدلة علي أن الإسراء كان بالجسد و الروح هي التي لا ريـــــب فيها و لا يمكن أن يعارض الضعيف القوي و لذا نرى أن الإسراء كان بالجســـد و الروح ، و لا نجد فيما استدل به ما يدل علي أنه كان بالروح و أن الآيـــة " وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنه للناس " لا نري أن موضوعها هو الإســـراء بل أن موضوعها هو المعراج و لا غرابه في أن ينقل الله تعالي نبيه -صلــــي الله عليه و سلم من مكة المكرمة إلي بيت المقدس و أن يعود به في ليله واحدة فـــإن هذا ليس ببعيد علي الله سبحانه و تعالي ، لأن المسافات في الزمان و المكان هي بالنسبة للعبيد و لا تكون قط بالنسبة لله سبحانه و تعالي و هو القادر علي كـــل شي و هو خالق الأماكن و الأزمان) .[١]

و قد وافق الإمام الكبير الدكتور / أحمد شلبي فذكر (أن المسلم الذي تلقـــي القرآن و آمن به لايجوز أن يتردد في أن الإسراء و المعـــــراج حدثــا بـــالروح والجسد جميعا ففي القرآن الكريم آيات تصور حدثا قريب الشبه بالإسراء قـــال تعالي (أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يؤتوني مسلمين قال عفريت من الجن أنـــــا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك و إني عليه لقوي أمين و قال الذي عنده علـــم الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هـــــذا من فضل ربي .) فهذه الآيات تقرر أن عرش بلقيس نقل هذه المسافة الطويلـــة من اليمن إلي فلسطين في لمح البصر و قبل ارتداد الطرف فإذا كنا قد آمنا بذلك فماذا يمنعنا من الإيمان بنقل سيدنا رسول الله إلي حيث شـــاء الله دون اعتبـــار للمادة أو مقياس الزمان و المكان ؟ و ربما تعرض بعض الناس إلي العقـــل أرادوا وأن يقيسوا هذا الحدث بما يعرفون من مقاييس عقلية و نحب — في إيجـــاز — ان

---

١ - خاتم النبيين " ج١ / ص ٤٧١ .

نذكر هؤلاء الذين تكلمون عن العقل بضعف عقولهم فالغالبية العظمـــي مـــن الملايين الذين يحملون الساعات لا يعرفون كيف تعمل هذه الساعات، و الغالبية العظمى الذين يمتلكون المذياع أو التليفزيون لا يعرفون كيف ينقـــل المذيـــاع الأصوات عبر القارات و المحيطات ، و لا كيف ينقـــل التليفزيـــون الصـــورة والصوت ، و الغالبية العظمى من الناس لا يعرفون كيف يتكلمون أو كيـــف يفكرون ، و طالما ضعف العقل عن فهم فكرة و استطاعت عقول أخـــرى أن تفهمها .

و لهذا فنحن نهيب بالناس ألا يغتروا بعقولهـــم الـــتي تقصـــد عـــن إدراك ، الأحداث المتكررة التي يفهما الآخرون فما بالهم يتعرضون لما هو أسمـــي مـــن العقل البشري من أحداث ؟) [1].

يضاف إلي هذا ما ذكره المؤرخين المحدثين بأنه (إذا سلمنا بالوحي و نـــزول جبريل من السماء على أنبياء الله و رسله إذا آمنا بذلك .. كان لنا أن نؤمـــن بصعود محمد- صلي الله عليه و سلم – من عالم الأرض إلي السماوات العـــلا فما فوقها ثم عودته ثانية ...... كما ينـــزل جبريل ثم يعود في غير لازمن .) [2] إن الله علي كل شي قدير "

مما تقدم نري أن الرأي الذي يقول بوقوع الإسراء بالروح و الجسد راجـــح علي غيره حيث إن النص القرآني يؤيده و لا شي يجعله يخرج عن دائرة الإمكان العقلي إلي دائرة الاستحالة لأن قدرة الله لا ينبغي للعقل البشـــري إخضاعـــها للضوابط المعروفة لنا و الأخذ بهذه الضوابط يجعل المعجزات التي يظـــهرها الله علي يد الأنبياء غير مقبولة لدينا إذ هي خارقة للعادة ، و الإســـراء و المعـــراج

١- موسوعة التاريخ الإسلامي ج١ / ص ٢١٣ ،، ٢١٤

٢- العدوى / الرسول بشيرا و نذيرا ص ٢٢٣ .

معجزة من المعجزات التي حدثت للنبي محمد و لا غرابه فيه حيث إن القـــرآن الكريم أخبرنا أن عيسي عليه السلام أبرأ الأكمة و الأبرص و أحيا الموتى بـــإذن الله ، فلو أخضعنا هذه الثلاثة للضوابط العقلية لدي البشر لما استطاع الإنســـان تصديقها لكن التصديق بها بالنسبة لأولئك الذين لم يشاهدوها جاء نتيجة إخبار القرآن بوقوعها و القرآن الذي أخبرنا بهذه الثلاثة نص علي حـــدوث معجـــزة الإسراء بالروح و الجسد ، فقال أسري بعبده ، فالإسراء بــــالروح و الجســـد حدث للنبي بقدرة من الله الذي إذا قال للشي كن فيكون فحدوثه دليل علي عجز المخلوقين و تضاؤلهم أمام قدرة الخالق المتفرد بصفة الكمال .

قصة الإسراء و المعراج :

يجد المؤرخ نفسه حين يعمد للحديث عن قصة الإسراء أمام روايـــــات كثيرة ليس بينها كبير اختلاف في أمر جوهري سوف تعيين المكان الذي أسري الله منه بالنبي محمد فعلي الرغم من أن القرآن الكريم ذكر لنا أن الإسراء بــــه – صلوات ربي و سلامة عليه – كان من المسجد الحرام نجد روايات أخرى تذكـــر لنا دار أم هاني مكانا بدأ منه الإسراء بالنبي محمد صلي الله عليه و ســـلم و إزاء هذا كله فإننا نعرض لروايتين من هذه الروايات ضاربين ذكرا عن بقيتها لكـــون ما نذكره يوفي بالغرض الذي نتوخى الوصول إليه من دراستنا هذه

فمن الأول ما رواه ابن إسحاق عن الحسن أن الرسول – صلـــي الله عليـــه وسلم – قال " بينا أنا نائم في الحجر إذ جاءني جبريل فهمزني بقدمه فلـــم أر شيئا ، فعدت إلي مضجعي فجاءني الثانية فهمزني بقدمه فجلست فلم أر شيئا ، فعدت إلي مضجعي ، فجاءني الثالثة فهمزني بقدمه فجلست فأخذي بعضـدي ، فقمت معه فخرج إلي باب المسجد ، فإذا دابة أبيض بين البغـــل و الحمـــار في فخذية جناحان يخفظ بهما رجليه يضع يده في منتهى طرفه فحملني عليـــه ، ثم

خرج معه لا يفوتني و لا أفوته " قال قتادة : حدثت أن رسول الله -صلـــي الله عليه و سلم – قال : (لما دنوت منه لأركبه شمس فوضع جبريل يــــده علـــي معرفته ، ثم قال : ألا تستحي يا براق مما تصنع فو الله يا براق ما ركبك عبـــد الله قبل محمد أكرم علي الله منه ، قال : فاستحيا حتى أرفض عرقا ثم قر حـــتى ركبته)[1].

و زاد شداد بن أوس علي ما تقدم أن رسول الله – صلي الله عليه و ســـلم – قال لما حملتنا الدابة (انطلقت تهوى بنا يقع حافرها حيث أدرك طرفها حـــتى بلغنا أرضا ذات نخل فأنزلني (جبريل) فقال صلي فصليت ثم ركبنـــا فقـــال أتدري أين صليت ؟ صليت بيثرب ، صليت بطيبة ، فانطلقت تهوي بنا يقـــع حافرها حيث أدرك طرفها ثم بلغنا أرضا ، فقال : انزل فصل ففعلت ثم ركبنـــا قال أتدري أين صليت ؟ قلت الله أعلم قال : صليت بمدين عند شجرة موســـى – عليه السلام – ثم انطلقت تهوى بنا يقع حافرها حيث أدرك طرفها ثم بلغنـــا أرضا بدت لنا قصور فقال : انزل ، فصليت و ركبنا فقال لي صليت ببيت لحـم حيث ولد عيسي ، ثم انطلق بي حتى دخلنا المدينة من بابها اليماني فـــأتي قبلـــه المسجد فربط فيه دابته ، و دخلنا المسجد من باب فيه تميل الشمس و العمـــر فصليت من المسجد حيث شاء الله و أخذني من العطش أشد ما أخذني فـــأتيت بإناءين لبن و عسل ، أرسل إلي بهما ، فعدلت بينهما ثم هـــداني الله فـــأخذت اللبن فشربت حتى قدعت به جبين و بين يدي شيخ متكى علي مثراه له فقـــال أخذ صاحبك الفطرة ، أنه ليهدي ثم انطلق بي حتى أتينا الوادي الذي في المدينة فإذا جهنم تنكشف عن الذرابى قلت يا رسول الله كيف وجدتها ؟ قال مثـــل الحمأة السخنة ، ثم انصرف بي فمررنا بعير لقريش ، بمكان كذا و كـــذا قـــد ضلوا بعيرا قد جمعه فلان فسلمت عليهم فقال بعضهم هذا صـــوت محمـــد ثم

١- ابن هشام – سيرة النبي – ج٢ / ص ٣، ٤

أتيت أصحابي قبل الصبح بمكة ... فأتاني أبو بكر فقال أيـــن كنـــت الليلة فقد إلتمستك في مظانك ؟ قلت : علمت أني أتيت المقدس الليلة فقال يـــا رسول الله أنه مسيرة شهر فصفة لي ، قال ففتح لي صراط كأني أنظر إلي ابــن لا يسألني عن شي إلا أنبأته عنه ، أشهد أنك رسول الله ، فقال المشركون : انظــر إلي ابن أبي كبشة ، يزعم أنه أتى ببيت المقدس الليلة فقال : إني مررت بعـــير لكم بمكان كذا و قد أضلوا بعيرا لهم فجمعه فلان ، و إن مسيرهم ينــــزلون بكذا ثم كذا و يأتوكم يوم كذا يقدمهم جمل آدم عليه مسح أسود و غرارتـــان مسودان فلما كان ذلك اليوم أشرف الناس ينظرون حتى كان قريب عـــن نصف النهار حين أقبلت العير يقدمهم ذلك الجمل ، قال البيهقي في هذا إســناد صحيح " [١]

و من الثاني ما ذكره ابن سعد و الز مخشرى عن أم هانئ ألها قـــالت " مـــا أسري به إلا من بيتنا نام عندنا تلك الليلة ، صلي العشاء ثم نام ". ثم رجع مـــن ليلتة و قص القصة عليها و قال : "مثل لي النبيون فصليت بهم و قام ليخرج مـــن المسجد فتشبثت أم هاني " بثوبه ". [٢]

و يري القائلون أن الإسراء بالرسول من بيت أم هاني لا يتعارض مع النـــص القرآني إذا المراد بالمسجد الحرام ، الحرم لإحاطته بالمسجد و التباسه به وعن ابن عباس الحرم كله مسجد " [٣]

١- الذهبي " السيرة النبوية " ص ١٥٤، ١٥٥
٢- الطبقات الكبرى ج١ / ص ٢١٤ ،، الكشاف ج١ / ٤٣٦
٣- الزمخشري " الكشاف " ج٢ ص ٤٣٦ .

أما المعراج فإن علماء المسلمين اختلفوا فيما بينهم حول ما إذا كان وقع للنبي في ليلة الإسراء أم أنه كان في ليلة خاصة به [١].

فمن الأول ما رواه أنس بن مالك و أبو سعيد الخدرى أن الرسول صلي الله عليه و سلم قال لما صليت بالأنبياء في بيت المقدس (أتيت بالمعراج ..... فصعدت أنا و جبريل .... فاستفتح جبريل باب السماء قيل من هذا ؟ قال جبريل ، قيل : و من معك ؟ قال : محمد ، قيل : و قد بعث إليه ؟ قال : نعم ، فإذا أنا بآدم كهيئة يوم خلقة الله علي صورته ....

....

ثم صعدنا إلي السماء الثانية فإذا أنا برجل أحسن ما خلق الله قد فضل عن الناس بالحسن كالقمر ليلة البدر علي سائر الكواكب ، قلت : يا جبريل من هذا قال : أخوك يوسف و معه نفر من قومه فسلمت عليه و سلم علي .
ثم صعد إلي السماء الثالثة فإذا أنا بيحى و عيسي و معهما نفر من قومها فسلمت عليهما و سلما علي .

ثم صعدت إلي السماء الخامسة فإذا أنا بها رون و نصف لحيته بيضاء و نصفها سوداء تكاد لحيته تصيب سرته من طولها ، قلت : يا جبريل من هذا ؟ قال هذا المحبب في قومه ، هذا هارون بن عمران و معه نفر من قومه فسلمت عليه وسلم علي ثم صعدت إلي السماء السادسة فإذا أنا بموسى بن عمران...... و إذا هو يقول : يزعم الناس إني أكرم علي الله من هذا ، بل هذا أكرم علي الله مني : قال : قلت : يا جبريل ما هذا ؟ قال هذا أخوك موسى بن عمران قال : و معه نفر من قومه فسلمت عليه و سلم علي ثم صعد إلي السماء السابعة فإذا أنا بأبينا إبراهيم خليل الرحمن ساندا ظهره إلي البيت

١- ابن سيد الناس " عيون الأثر " ج١ ص ١٤٦ .

المعمور كأحسن الرجال ، قلت : يا جبريل من هذا ؟ قال : هذا أبوك إبراهيم خليل الرحمن و هو في نفر من قومه فسلمت عليه و سلم علي و إذا بأمتي شطرين شطر عليهم ثياب بيض و شطر عليهم ثياب رمد ، قال : فدخلت البيت المعمور ، و دخل معي الذين عليهم الثياب البيض و حجب الآخرون الذين عليهم ثياب رمد ، و هم علي حر ، فصليت أنا و من معي في البيت المعمور

ثم خرجت أنا ومن معي ....
....

ثم إني دفعت إلي السدرة المنتهي فتغشى لي ، و كان بيني و بينه قاب قوسين أو أدني .... قال : و قال : فرضت علي خمسون صلاة و قال : لك بكل حسنه عشر إذا هممت بالحسنة فلم تعملها كتبت لك حسنة فإذا عملتها كتبت لك عشرا و إذا هممت بالسيئة فلم تعملها لم يكتب عليك شي فإن عملتها كتبت عليك سيئة واحدة ، ثم دفعت إلي موسى ، فقال بما أمرك ربك ، قلت : بخمسين صلاة ، قال : ارجع إلي ربك فسله التخفيف لأمتك فإن أمتك لا يطيقون ذلك و متى لا تطيقه تكفر فرجعت إلي ربي فقلت يا رب خفف عن أمتي فإنها أضعف الأمم فوضع عني عشرا و جعلها أربعين فما زلت أختلف بين موسى و ربي كلما أتيت ، قال لي مثل ما قاله حتى رجعت إليه فقال لي بم أمرت ؟ قلت : أمرت بعشر صلوات ، قال ارجع إلي ربك فسلة التخفيف عن أمتك ، فرجعت إلي ربي فقلت أي رب خفف عن أمتي فإنها أضعف الأمم ، فوضع عني خمسة ، و جعلها خمسة ، فناداني ملك عندها : تمت فريضتي و خفف عن عبادي ، و أعطيتهم بكل حسنة عشر أمثالها ، ثم رجعت إلي موسى ، فقال : بم أمرت ؟ قلت : بخمس صلوات ، قال ارجع إلي

ربك فسله التخفيف فإنه لا يؤد وده شي فسلة التخفيف لأمتك فقلت رجعت إلي ربي حتي استحييته ....)[1]

و من الثاني ما رواه أبوذر الغفارى أن رسول الله – صلي الله عليه و سلم – قال : خرج سقف بيتي و أنا بمكة فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسلة من ماء زمزم ثم جاء بطست من ذهب ممتلي حكمة و إيمانا ثم أفرغها في صدري ثم أطبقه ثم أخذ بيدي فعرج بي إلي السماء الدنيا[2] .... إلي آخرة بما يتفق مع الرواية السابقة .

و علي الرغم من أن روايات المعراج قد جاء ذكرها في كتب الصحاح فإن أحد الباحثين يرى أن بعض ما جاء فيها يجعل المرء يقول إنها لم تنج من وضع الواضعين و برهن علي صحة رأيه هذا (بأن مثل هذا البراق لا يحتاج أن يربط و هذا التصوير مادي محض ، و عندما يطلب سيدنا رسول الله لهذا اللقاء السامي فلا بد من أن تكون الأوامر قد صدرت لكل من بالطريق ليهيي السبيل لهذا اللقاء ، و لا يقف محمد بهذا النمط الذي تصوره الرواية ، ثم إن الرواية تصور الله جل و علا – كأنه هناك في مكان يسعي له محمد مع أن القرآن الكريم يقول (وسع كرسيه السماوات و الأرض) و يقول علماء التوحيد إن الله في كل مكان أو ينزهونه جل و علا عن المكان فيقولون : إن الله ليس له مكان ، و علي هذا فالصورة السابقة مردودة تماما بنص القرآن ، و بحكم الفكر الإسلامي ، و القرآن الكريم يوضح أن القمر في السماوات ، قال تعالي (ألم

١- البيهقي " دلائل النبوة " ج٢ ص ٣٩٠ – ٣٩٥ ،، التوبري – نهاية الأرب – ج ١٦ ،، ص ٢٨٤ : ٢٨٦ .

٢- ابن سعد " الطبقات الكبرى " ج١ / ص ٢١٣ ،، ابن سيد الناس " عيون الأثر " ج١ / ص ١٤٧ ،، الذهبي " السيرة النبوية " ص ١٦٧ : ١٦٨

تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا و جعل القمر فيهن نـــورا)[١] و قـــال : (تبارك الذي جعل في السماء بروجا و جعل فيها سراجا و قمرا منيرا)[٢].

و قد استطاع العلماء الأمريكيون أن يصلوا إلي القمر و أن يهبطوا عليه و إننـــا نتساءل هل وقفوا يستفتحون أبواب السماء ، و من الذي فتحها لم ؟)

كما رفض هذا الباحث ، ما جاء في الرواية من مراجعة محمد – صلـــي الله عليه و سلم – لربه عدة مرات لتخفيف فرائض الصلاة عن أمته بناء علي طلب موسى ذلك منه ، لأن الرواية بهذا الشكل تجعل من موسى معلما لمحمد عليـــهما السلام ، و أن الروايات جعلت مكان موسى في السماء السابعة الأمـــر الـــذي يدل علي أن الإسرائيليات وجدت سبيلها إلي هذه الروايات و خلـــص ذلـــك الباحث إلي أن اعتراضه يتخلص في عده وجوه :

أولا : أنها تصور الله – سبحانه و تعالي – كموسى في وضع مادي يمشي لـــه محمد و يعود لموسى ثم يرجع إليه ، و تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

ثانيـــا : تصور الله – تعالي- على غير ما هو معروف عنه من وفرة المنح و مـــن الكرم العظيم ، فهي تصوره ينقص الخمسين إلي خمس و أربعـــين ثم ينقصـــها جولة أخرى إلي أربعين ، إلي خمسة و ثلاثين .... و نحن نصرح في وجه من يقول بأن كرم الله تصوره آياته (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها)[٣]

١- سورة نوح / آية ١٥ ، ١٦ .
٢- سورة الفرقان / آية رقم ٦١
٣- سورة الأنعام / آية رقم ١٦٠ .

و

(من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة) [1] ولا يمكن إلا في خيال – مادي – أن تتم هذه الصورة ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

ثالثا : كيف يتصور العقل محمدا ذاهبا و عائدا عدة مرات ، بناء علي طلب موسى ، والابن لا يطيع أباه إلي هذا المدى مهما كان في ذلك من خير إليه و اعتقادي أن الصلوات فرضها الله من أول الأمر خمسا في العمل و خمسين في الأجر أو فرضها خمسين فاستعطفه سيدنا رسول الله فاستجاب الله إليه و جعلها خمسا في العمل و خمسين في الأجر) .

و علي الرغم من وجاهة هذا الرأي الذي أبداه هذا المؤرخ فإن المرء لا تسكن نفسه للأخذ به و يعزى ذلك إلي عدة أسباب :

أولها : إن ما أبداه من حجج مثل تنزيه الله عن المكانية إذا هو في السماوات و الأرض ووقوف النبي محمد عند باب كل سماء حتى يفتح له ، و تعليم موسى لمحمد – عليهما السلام – و رجوع النبي إلي ربه أكثر من مرة لتخفيف فرض الصلاة أمور لم تكن لتغيب عن أذهان السلف و هم من هم في التدقيق والتحقيق لكل أمر من الأمور المتعلقة بالنبي و الدين الإسلامي ، فصمت هؤلاء عن تنفيذ هذه الروايات يدل علي صدق ما جاء فيها .

ثانيهما : كلنا يؤمن أن الله وسع كرسيه السماوات و الأرض و بأنه تعالي منزه عن المكانية مخالف للحوادث إذا ليس كمثله شي و هو السميع البصير ومع هذا فإن العروج بالنبي محمد إلي سدرة المنتهي لا يدل من قريب أو بعيد

١- سورة البقرة / آية رقم ٢٤٥

علي شي مادي يوهم أن لله مكانا معينا ، إذا المراد من المعراج تكريم النبي محمد من ناحية و إظهار عجز المخلوقين أمام قدرة رب العالمين من ناحية أخرى والذي يقوي ما ذهبنا إليه من أن المراد من المعراج التكريم أن الغرض منه لو كان فريضة الصلاة لنزل جبريل من عند ربه علي محمد ، بتحديدها شأنها في ذلك شأن بقيه الأمور التي علمها الأمين لسيد المرسلين .

ثالثها : إن ما استشهد به الباحث من هبوط الأمريكان علي القمر لا يقوي راية من بعيدا أو قريب فإن النظريات العلمية أثبتت أن القمر يتبع الأرض و أن كل كوكب من مجموعتنا الشمسية له قمر واحد أو عدة أقمار ، بل إن الصحف طالعتنا باكتشاف مجموعة جديدة في الفضاء يفصلها عن مجموعتنا الشمسية مسافات ضوئية شاسعة فكيف يتصور هذا الباحث أن القمر سماء صعد عليها رائد الفضاء دون حاجة إلي فتحها له .

و من ثم فإننا نجزم بأن السماوات التي فتحت للنبي محمد تختلف عن المجموعات الفضائية التي رآها البشر بواسطة أجهزته العلمية و تلك التي يرونها فيما بعد فهيهات أن يحيط البشر علما بكل ما في الكون إذا للعقول نهاية لا بد لها من الوقوف عندها ، فلكل مخلوق قدرات تحكمه .

رابعها : إن ما برر به المؤرخ الكبير رفض تعليم موسى لمحمد و رجوعه إلي ربه أكثر من مرة لتخفيض فرائض الصلاة قول لا يستقيم إذا هولا ينقص شيئا من مكانه النبي محمد بوصفة خاتم النبيين بل علي النقيض من ذلك يؤكد الصلة بين أمة النبي محمد و الأمم السابقة علي أساس أن الرسل جميعا جاءوا لدعوة التوحيد .

و رجوع الرسول إلي ربه أكثر من مرة لتخفيض الصلاة لا يتعارض مع المنح الإلهية إذ المراد منه إظهار نعمة التيسير التي أجرها رب العالمين علي المخلوقين حين يفرض عليهم خمس صلوات في اليوم و الليلة ، يتم أداؤها بدون عناء جسدي ووقت زمني طويل .

خامسا : إن ما خلص إليه الأستاذ الكبير من اعتقاد خلاصته إن الله فرض الصلاة من أول الأمر خمسا في العمل و خمسين في الأجر أو أنها كانت خمسين في العمل و الأجر فاستعطف محمد ربه ، و جعلها خمسا في العمل دون إنقاص الأجر – اعتقاد تعوزه الأدلة .

فقد ذكر الطبري [1] : أن جبريل نزل علي النبي محمد في بداية الدعوة ليعلمه الوضوء و الصلاة دون ذكر عدد لها ، و أن المنصوص عليه حدوث . تحديد الفرائض للنبي محمد عندما عرج به وقد ذكر النص رجوع محمد إلي ربه أكثر من مرة . و لا يوجد نص آخر يعارضه و من ثم لا يجوز إنكاره سيما إذا كان جيد السند علي غرار الروايات التي أسلفناها في هذا الصدد .

و علي كل حال فإن الإسراء بالنبي محمد من المسجد الحرام إلي المسجد الأقصى و العروج به– صلوات ربي و سلامة عليه – يراد منه علي حد قول أحد الباحثين تأكيد الصلة بين رسالة النبي محمد و الرسالات المتقدمة عليها . [2]
و إنقاذ الشرائع السابقة من التحريفات التي تسلل إليها فنكبت بها علي الطريق المستقيم (فقد ظلت النبوات و هوراً طوالا و هي وقف علي بني إسرائيل ، وظل بيت المقدس مهبط الوحي و مشرق ، أنواره علي الأرض و قصبة الوطن

١- تاريخ الأمم و الملوك ج٢ / ص ٣٠٧
٢- البوطى " فقه السيرة " ص ١٢٠

المحبب إلي شعب الله المختار ، فلما أهدر اليهود كرامة الوحي و أسقطوا أحكام السماء حلت بهم لعنه الله ، و تقرر تحويل النبوة عنهم إلي الأبد و من ثم كـــان مجئ الرسالة إلي محمد – صلي الله عليه و سلم – انتقالا بالقيـــادة الروحيـــة في العالم من أمة إلي أمة ، و من بلد إلي بلد ، و من ذريـــة إســـرائيل إلي ذريـــة إسماعيل، و قد كان غضب اليهود مشتعلا لهذا التحول مما دعاهم إلي المســـارعة بإنكاره " بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله من فضلة علي مـــن يشاء من عبادة فباءوا بغضب علي غضب " .

لكن إرادة الله مضت و حملت الأمة الجديدة رسالتها ، وورث النبي العـــربي تعاليم إبراهيم و إسماعيل و إسحاق و يعقوب ، و قام بكفاح لنشرها و جمـــع الناس عليها فكان من وصل الحاضر بالماضي و إدماج الكل في حقيقة واحدة أن يعتبر المسجد الأقصى ثالث الحرمين في الإسلام ، و أن ينتقل إليه الرســـول في إسرائه فيكون هذا الانتقال احتراما للأديان الذي درج – قديما – في رحابـــة ....) [٢١]

تلك هي معجزة الإسراء و المعراج التي أنكرتها قريش ، وعدتها دربـــا مـــن دروب السحر) [٣] و شددت من إيذائها لهذا النبي حتى ألجأته إلي الهجرة من مكة إلي المدينة التي أسس فيها الرسول – صلي الله عليه و سلم – الدولة الإســـلامية ، و التي نتنـــاولها بالدراسة في الجزء الثاني من هذا المؤلف إن شاء الله .

١- الغزالي " فقه السيرة " ص ١٣٧ .

٢- الزمخشري " الكشاف " ج٢ ص ٤٣٧٠

ابن عبد الوهاب " مختصر سيرة الرسول ص ١٢٦ س

ثبت المصادر و المراجع

١-القرآن الكريم

٢- أخطاء يجب تصحح في التاريخ .. د. جمال عبد الهادي ، د .
وفاء محمد رفعت ط١،، ١٤٠٤ هـ-
دار الوفاء .

٣- أزمنة التاريخ الإسلامي ..د/عبد السلام الترمانيني ط١ الكويت
١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م

٤-أسد الغابة في معرفة الصحابة .. ابن الأثير(عز الدين أبو الحسين)
ط. دار أحياء التراث العربي ببيروت
لبنان

٥-الإصابة في تميز الصحابة .. ابن حجر العسقلاني (٧٧٣ -٨٥٢ هـ) ،
تحقيق علي محمد البخاري - ط.دار نهضة
مصر

٦- أعلام النساء ..د/ .. [illegible] كحالة ط/ ٤ مؤسسة الرسالة سنة ١٤٠٢
سنة ١٩٨٢ م

٧- الأغاني .. أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني طبعة دار الكتب
سنة ١٩٧٠ م

٨-الإمام علي من المهد إلي اللحد .. د . محمد كاظم القزويني
ط١١ ،،لمؤسسة الوفاء بيروت سنة ١٤٠٢ هـ

=إمتاع الإسماع - المقريزى ، تقي الدين أحمد ت- ٨٤٥هـ) طبعة لجنة
التأليف و النشر و الترجمة القاهرة سنه ١٩٤١ م

٩-أنساب الأشراف .. أحمد بن يحيي المعروف بالبلاذرى تحقيق د/ محمد حميد
حميد الله ، و أخرجه معهد المخطوطات بالاشتراك مع دار المعارف .

١٠-الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية - يوسف بن إسماعيل المعروف بالنبهاني

١١-أيام العرب في الجاهلية ../ علي محمد البجاوى ، محمد أحمد جاد المولى ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة عيسى الحلبي بمصر سن١٩٤٢١

١٢-البداية و النهاية .. الحافظ بن كثير (ت ٧٤٤هـ) ط.دار الفكر بيروت سنة ١٩٧٨ م

١٣تاريخ الإسلام السياسي و الديني و الثقافي و الاجتماعي .د.حسن إبراهيم حسن ط٩ مطبعة مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٧٩ م

١٤-تاريخ الأمم و الملوك — أبو جعفر محمد بن جير الطبري (ت ٣١٠ هـ) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم — ط.دار المعارف بالقاهرة

١٥-التاريخ السياسي للدولة العربية —د .عبد المنعم ماجد ط٧ ، مطبعة الأنجلو المصرية سنة ١٩٧٥ م

١٦-تاريخ العرب و الإسلام — د. أحمد عبد الحميد الشامي —ط٢ ،، مطبعة الأنجلو المصرية سنة ١٩٨٢ م

١٧-تاريخ العرب و صدر الإسلام — د. عبد الرازق الطنطاوي القرموط ط١ — ١٩٨٣ م

١٨- الامام محمد الرازى ، فخر الدين (٥٤٤ —٦٠٤ هـ) دار الفكر للطباعة و النشر ١٤٠١هـ

١٩-جامع البيان في تفسير أي القرآن — أبو جعفر محمد بن جرير الطبري الصحيح (٢٤٤) — ٣١٠ ط . دار المعارف بمصر

٢٠- الجامع الصحيح (صحيح البخاري) د.محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري ت ٢٥٦هـ دار إحياء التراث العربي ١٣١٣هـ

٢١-الجامع الأحكام القرآن — أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

ط٣ دار الكتاب العربي للطباعة و النشر ١٣٧٨ هـ ١٩٦٧ م

٢٢حاضر العالم الإسلامي .لوثروب ستودارد الأمريكي (ترجمة شكيب ارسلان) مطبعة دار الفكر العربي .

٢٣-حياة محمد — د. محمد حسين هيكل — مطبعة دار المعارف .

٢٤-خاتم النبيين الامام محمد أبو زهرة ،، دار الفكر العربي .

٢٥-دلائل النبوة — أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت٤٣٠ هـ) مكتبة المتنبي القاهرة .

٢٦-دلائل النبوة ومعجزات الرسول — صلي الله عليه و سلم — د. عبد الحليم محمود ط٢ دار الإنسان للتأليف و الترجمة و النشر سنة ١٤٠٤ هـ — ١٩٨٤ م

٢٧-دلائل النبوة و معرفة أحوال صاحب الشريعة .. أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٣٨٤ — ٤٥٨ هـ) ط. دار الكتب بيروت سنة ١٤٠٥هـ ١٩٨٥ م

٢٨-دراسات في تاريخ العرب — د. مصطفي أبو ضيف ، ط١ ، مطبعة مؤسسة شباب الجامعة .

٢٩-الدرر في اختصار المغازي و السير ... ابن عبد البر الحافظ يوسف بن عبد البر النمري (٣٦٨- ٤٦٣ هـ) تحقيق د. شوقي ضَيف . ط٢،، دار المعارف .

٣٠-دور الحجاز في الحياة السياسية العامة —د. أحمد إبراهيم الشريف ط٢،، مطبعة دار الفكر العربي سنة ١٩٧٧ م

٣١-دولة الرسول في المدينة — د. محمد ممدوح العربي ، ط.الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٣٢-الرحيق المختوم — صفي الرحمن المباركفوري ط. دار الوفاء للطباعة و النشر سنة ١٣٩٦ هـ —١٩٧٦ م)

٣٣-روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المساني – الألوسي البغدادي
مطبعة دار إحياء التراث العربي –بيروت
٣٤-الرسول – صلي الله عليه و سلم بشيرا و نذيرا – د. محمد عبد العليم
العدوى ، ط ١٤٠٢ هـ- ١٩٨٢ م)
٣٥-زاد المعاد في هدي خير العباد –الإمام ابن قيم الجوزيه (بدون) المطبعة
المصرية .
٣٦-سبل الهدي و الرشاد – الإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي
(ت ٩٤٢ هـ) تحقيق د/ مصطفي عبد الواحد ط
١١٣٩٢هـ-١٩٧٢ م)
٣٧-السيرة النبوية –(دراسة تحليلية في ضوء القرآن و السنة) مروان محمد
مصطفي شاهين ،مصطفي محمد السيد أبو عمارة
ط١، دار الطباعة المحمدية ١٤٠٢ هـ
٣٨السيرة النبوية – محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي – (ت ٧٤٨ هـ)
تحقيق حسام الدين القدسي ١٩٢٧ م ،، دار
الكتب العملية بيروت- لبنان .
٣٩-السيرة النبوية – أبو الحسن علي الحسني الندوة ، منشورات المكتبة
العصرية صيدا – بيروت ط ١٣٩٩ هـ
٤٠-السيرةالنبوية – محمد الطيب النجار –ط. دار الاتحاد العربي للطباعة
٤١-سيرة النبي – أبو محمد عبد الملك بن هشام (ت ٢١٨ هـ) تحقيق
محمد محي الدين عبد الحميد ط٣ ، المكتبة
التجارية ،، بيروت ١٩٧١ م
٤٢-سيرة النبي العربي – أحمد الناجي ط١ (بدون) سنة ١٣٩٨هـ ١٩٧٨ م
٤٣-شذرات الذهب في أخبار من ذهب – ابن العماد الحنبلي)
ت١٠٨٩ هـ) ط. دار الآفاق الحديثة بيروت .

شهداء الإسلام – د.علي سامي النشار – ط٧ ،، دار المعارف القاهرة .
٤٤-صحيح مسلم بشرح النووي .. الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج ابن مسلم ط. بيروت ١٩٧٢ .
٤٥-الطبقات الكبرى – محمد بن سعد بن منيع الزهري المعروف بابن سعد (ت ٢٣٠ هـ) ط١٠ ليدن ١٣٢١بيروت هـ
٤٦-عشرة أيام في حياة الرسول – خالد محمد خالد ظ٨ مطبعة دار ثابت للنشر و التوزيع ١٤٠٢ هـ
٤٧-العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين – تقي الدين محمد بن أحمد الحسن الفاسي(٧٧٥-٨٣٢)تحقيق محمد حامد الفقي ط٢ ،، مطبعة مؤسسة الرسالة
١٤٠٦ هـ -١٩٨٦ م
٤٨-عيون الأثر في فنون المغازى و الشمائل و السير – فتح الدين أبو الفتح محمد بن محمد المعروف بابن سيد الناس
(٧٣٤ هـ) طبعة دار المعرفة للطباعة
و النشر بيروت – لبنان .
٤٩-فقه السيرة – محمد الغزالي – ط٤ مطبعة السعادة ١٣٨٤ هـ ١٩٦٤ م
٥٠-فقه السيرة – محمد سعيد رمضان البوطي – ط٧ ،،
سنه ١٢٩٧هـ ١٩٧٧ م
٥١-فلسفة السيرة – د. عبد العزيز غنيم ، ط. دار الوفاء للطباعة ١٤٠٣ هـ
٥٢-القاموس الإسلامي – أحمد عطيه الله ، ط. مكتبة النهضة المصرية ١٣٨٣
٥٣-قيام الدولة العربية الإسلامية – د. محمد جمال الدين سرور ط.
(١٣٧١ هـ- ١٩٥٢ م)
٥٤-الكامل في التاريخ – ابن الأثر ، ط دار صادر بيروت .

٥٥-الكشاف – أبو القاسم جاد الله محمود بن عمر الزمخشري (٤٦٧ هـ)

٥٣٨ م) حققه محمد الصادق قمحـــاوى ٥٦-

لسان العرب – أبو الفضل جمال الدين المعروف بابن منظور (ت٧١١ ه)

دار صادر بيروت سنة ١٩٦٨م

٥٧-محمد الرسول الأعظم – د. عبد العزيز محمد عزام ، يصدرها المجلس

الأعلى للشئون الإسلامية للقاهرة العدد ١٥٦.

٥٨-محمد رسول الله – صلي الله عليه و سلم – محمد رضا –ط. بيروت

لبنان ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥ م

٥٩-مختصر سيرة الرسول – صلي الله عليه و سلم – الشيخ محمد بن عبد

الوهاب (ت ١٢٤٢ هـ) نشرة محب الدين الخطيب ط٤،،

المطبعة السلفية

بالقاهرة ١٣٩٩ هـ

٦٠-المختصر في أخبار البشر – عماد الدين إسماعيل بن الملك نور الدين

المعروف بأبي الفدا (ت ٧٣٢ هـ) دار ،

المعرفة – بيروت .

٦١-مراصد الإطلاع علي أسماء الأمكنة و البقاع – بن عبد الحق البغدادي ،

حققه علي محمد البجاوي ،ط١ سنة ١٣٧٤ هـ

٦٢-مروج الذهب و المعادن الجوهر – أبو الحسن علي بن الحسين بن علي

المسعودى (ت٣٤٦ هـ) تحقيق محمد محي الدين ط. دار المعارف بيروت

٦٣-المعارف – ابن قتيبة أبي محمد عبد الله بن مسلم (٢١٣هـ ٢٧٦ هـ)

ط٢ ،، دار المعارف بمصر .

٦٤-معجم البلدان – شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت ،ط. دار صار بيروت

(١٣٩٧هـ – ١٩٧٧ م)

٦٥-موسوعة التاريخ الإسلامي – د. أحمد شلبي ط٨ مكتبة النهضة المصرية

٦٧-النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة ابن تغزي بردي ت (٨٧٤هـ)
المؤسسة المصرية العامة للتأليف و النشر
القاهرة .
٦٨-نساء النبي د/ عائشة عبد الرحمن ، ط. دار الكتاب العربي – بيروت ،،
١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣
٦٩- نسب قريش – أبو عبد الله المصعب بن عبد الله الزبير (١٥٦ هـ
معارف القاهرة.
٧٠-نهاية الأرب في فنون الأدب – شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري
(٦٧٧ – ٧٣٣ هـ) ط. دار الكتب
وزارة الثقافة و الإرشاد .
٧١-نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز – رفاعة رافع الطهطاوي ،، (١٢٩٠
تحقيق عبد الرحمن حسن محمود ، فاروق بدر
ط. المعارف المكية سنة ١٢٩١ هـ)
٧٢-نور اليقين في سيرة سيد المرسلين – الشيخ محمد الخضري ، دار إحياء
التراث العربي ببروت – لبنان

فهرست المحتوى

الفصل الأول

بلاد العرب قبل ميلاد النبي - صلى الله عليه وسلم.

الموضوع ... الصفحة

الموضوع	الصفحة

الفصل الثاني

محمد من ميلاده إلى بعثته

الموضوع | الصفحة

الفصل الثالث

محمد من بعثته إلى هجرته

الموضوع	الصفحة